أول ترجمة للرواية الضائعة

روايات الهلال



جائزة نوبل فى الأدب

البير كامى

علي مولا

الانسان الأول

تأليف

ألبير كامى

جائزة نوبل فى الأدب

ترجمة :

لبنى الريدى

●

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

LE PREMIER HOMME

تأليف

ALBERT CAMUS

الغلاف مستوحى من لوحة «يوميات الشاطىء»

للفنان الايطالى باولو جاندولفى مرسومة عام ١٩٩٤

قبل أن تقرأ
عالم ألبير كامى

«الانسان الأول» هى مسودة آخر عمل كتبه ألبير كامى ولم يسعفه الموت كى ينقحه ويراجعه ويعيد ترتيبه فى شكله النهائى . ولقد حرصت زوجته وابنته على ألا يتدخل أحد فى صياغة هذه المسودة ، كما حرصنا على تضمينها كل ما سجله كامى من هوامش أثناء كتابتها ليعود إليها مرة أخرى .

ولكن قبل أن أقدم لهذا العمل الرائع الزاخر بالمشاعر الإنسانية البسيطة والعظيمة فى آن واحد، أريد أن أقدم ألبير كامى للأجيال الحالية. فقد أتيح لنا نحن جيل الستينات أن نتعرف جيدا على فيلسوف التمرد ، لكن الأجيال التى تلتنا ربما لا تعرف الكثير عن هذا الفيلسوف الأديب الذى تمرد على كل التحديات والاحباطات التى اعترضت حياته حتى أصبح أصغر من نال جائزة نوبل للأدب لفترة طويلة .

ان تمرد كامى هو صراع ضد العذاب والشر ، واحتجاج ضد الظلم واليأس والعبث ، وهو ليس بالتمرد الفلسفى فحسب وإنما تمرد يرتبط بالواقع اليومى والتجربة واللحظة المعاشة .

ويبدو أن بذور التمرد وعدم الاستسلام صحبته منذ صباه المبكر، فلقد تمرد على فقره وبؤس أسرته ، دون أن يتنكر للفقراء والمضطهدين، وأنهى دراسته الثانوية وحصل على البكالوريا ، ودرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الجزائر

معتمدا على منح التفوق وما كان يكسبه من قيامه ببعض الأعمال ، وظهرت ميوله الأدبية فى سن مبكرة واكتشف هذه الميول أستاذه الكاتب والمفكر چان جرينييه الذى شجعه على القراءة والكتابة وكان له أكبر الأثر فى حياته .

وفى عام ١٩٣٠ ، عندما كان كامى فى السابعة عشرة من عمره أصيب بالسل فجأة ، وكانت صدمته بالمرض قاسية ، وخيل إليه أن المرض لن يمكنه من مواصلة الدراسة وأن أبواب المستقبل سدت أمامه ، لكنه تمرد على مرضه الخطير واستكمل دراسته الجامعية ، بل شارك فى النشاط السياسى ، حيث انضم فى عام ١٩٣٢ للحركة المناهضة للفاشية ، ثم انخرط فى عام ١٩٣٤ فى صفوف الحزب الشيوعى .

وفى العام نفسه أنشأ المسرح العمالى فى الجزائر ، حيث أخرج بعض الروايات ولعب بطولة بعضها الآخر ، ويعتقد بعض الذين تناولوا حياة وأعمال ألبير كامى بالنقد والتحليل أن مرضه كان له دور فى بناء شخصيته وفلسفته ، أما هو فيقول عن تأثير المرض عليه : «مما لا شك فيه أن هذا المرض أضاف عوائق أخرى أكثر ثقلا وهما مما كان لدى فى ذلك الوقت، إلا أنه حرر قلبى نهائيا ، وباعد بينى وبين المشاكل البشرية التى كانت تملؤنى دائما بإحساس البغض ، لقد تمتعت بفضله بحياتى بلا حدود ولا ندم» .

وفى عام ١٩٣٥ تمرد كامى على الحزب الشيوعى ، وعلى كل فكر يفرض العنف على الإنسان ، فهو وإن كان يطلب العدالة والحرية ، إلا أنه رفض أن يكون السبيل إليهما الطغيان والارهاب ، كما أنكر أن يخضع الحق والحقيقة للظروف ، لكن رفض كامى للشيوعية كحزب سياسى لا يعنى رفضه للاشتراكية كمبدأ ، بل إنه آمن بالاشتراكية كحل لمشكلة سوء توزيع الثروة ، ولم يترك مناسبة إلا ودعا

فيها للاشتراكية واتاحة تكافؤ الفرص للجميع ، وهو يقول عن نفسه : «الحقيقة ، أننى لم أتعلم الحرية من كتب ماركس . لقد تعلمتها من الفقر» .

وفى عام ١٩٣٧ ، صدر له أول مؤلفاته وهو كتاب «الظهر والوجه» «L'ENVERS ET L'ENDROIT» ، وكان عمره لم يتجاوز الرابعة والعشرين، وتلاه بعد أقل من عام بمؤلف آخر هو «أفراح» «NOCES» ، ويرى النقاد أنه كتب هذين العملين وهو تحت تأثير صدمة المرض، وكتاب «الجزر» «LESILES» لاستاذه چان جرينييه ، وهو عبارة عن مجموعة مقالات فلسفية ، ويقول عنه كامى: فى الوقت الذى اكتشفت فيه كتاب «الجزر» اعتقدت أننى أريد أن أكتب ، لكننى لم أقرر الكتابة فعلا إلا بعد أن فرغت من قراءة هذه المقالات» ، ويضيف موضحا : «كنت بحاجة لأن يذكرنى أحد بطبيعة الإنسان الفانية .. وهكذا أدين لجرينييه بالشك الذى لن ينتهى ، والذى منعنى من أن يصيبنى بالعمى إيمان ضيق الأفق». لقد أنار له كتاب جرينييه فكرة التناقض الذى يتسم به الوجود والقلق ، الذى ينخر فى سعادة الانسان ، إزاء هذا التناقض ، كما كانت تجربة المرض من الثراء والغزارة بحيث أثبتت له أن متع الجسد زائلة ، وأن مبدأ المتعة لا يصلح كأساس للحياة ، وإنما يجب أن يكون لتلك الحياة أساس أكثر رسوخا .

وفى عام ١٩٣٧ عاوده المرض وزادت وطأته عليه هذه المرة ، ولكن بدلا من الاستسلام والركون إلى الراحة اختار كامى فى عام ١٩٣٨ أن يحترف مهنة الصحافة الشاقة ، وقبل أن يصبح صحفيا جرب مهناً كثيرة : بائع قطع غيار ، وراصد فى مرصد فلكى فى جنوب الجزائر حيث تعرف على البربر وقبائل البدو ، واشتغل كاتبا فى مأمورية الشرطة ، واحتك ببؤس الإنسان وشقاء الفقراء .

وواصل كامى مشوار تمرده ورفضه للظلم ، فاصطدم بالرقابة العسكرية الفرنسية على الصحف ، ففى عام ١٩٣٩ أصبح رئيس تحرير صحيفة مسائية

اسمها «LE SOIR REPUPLICAIN» ، كانت هى الوحيدة التى تتحدث باسم اليسار فى الجزائر . وبدأت حربه مع الرقابة عندما أحدثت المقالات التى كان يكتبها ضد «الظلم» الفرنسى فى الجزائر تأثيرا كبيرا بين شباب المثقفين فى المستعمرة الفرنسية ، وأدى رفضه الخضوع لأوامر الرقابة إلى إبعاده إلى فرنسا فى عام ١٩٤٠ ، وبذلك كان كامى أول صحفى يطرد من الجزائر .

وفى فرنسا استكمل كامى مسيرة التمرد فانضم إلى حركة المقاومة ضد الاحتلال النازى ، وبذلك استخدم العنف مقابل العنف . وأجاب على سائليه عن سبب التحاقه بصفوف المقاومة : «لقد فهمت حينذاك أن كراهيتى للعنف كانت أقل من كراهيتى للأنظمة القائمة على العنف» ، وانضم فى تلك الفترة لهيئة تحرير صحيفة المقاومة «COMBAT» التى كان يجرى تداولها بطريقة سرية ، وجرى توزيعها علنا عام ١٩٤٣ ، وبعد أن تم تحرير فرنسا تولى رئاسة تحرير الصحيفة حتى عام ١٩٤٦ .

وفى أواخر عام ١٩٤٢ ، وبينما يطغى اليأس على الجميع فى ظل الاحتلال النازى لباريس ، نشرت له دار جاليمار الشهيرة رواية «الغريب» بناء على نصيحة أديب فرنسا الكبير أندريه مالرو ، وبعدها بوقت قصير أصدر مؤلفه الفلسفى «اسطورة سيزيف» (١٩٤٣) . ويقول الأديب اندريه مالرو عن هذين العملين: «إن الغريب هى اسطورة سيزيف تدب فيها الحياة الروائية» ، وتحكى رواية «الغريب» مأساة الإنسان المعاصر وقد خلقت مع بعض الأعمال الأخرى لكتاب الفترة نفسها ما أصبح يعرف فى الأدب بالرواية الجديدة .

وقوبل العملان بترحاب كبير ونال كامى بسببهما شهرة واسعة ، رأى عندها أن الفرصة مواتية للكتابة للمسرح ، وكتب بالفعل مسرحية «سوء التفاهم» التى

جرى عرضها على خشبة المسرح عام ١٩٤٤ بينما باريس تهتز تحت وابل القنابل، وبعد ذلك بقليل عرضت له مسرحية «كاليجولا» (١٩٤٥) التى تكمن قيمتها فى أنها وثيقة درامية تدين العدمية المعاصرة ، فقد تناول كامى فى تلك المسرحية موضوع التمرد الفوضوى ، ورد على النازية كنظام يقوم على التمرد الفوضوى وعبادة القوة .

وتعبر تلك الأعمال عن المرحلة التى أدرك فيها كامى المعنى الدقيق لعبثية الوجود ، فالعبث ، بالنسبة له ، «ليس هو العالم ولا الإنسان، وإنما هو العلاقة التى تربط العالم بالإنسان» ، والعالم برأيه إذن ليس عبثيا ولكنه لا عقلانى ، فالصفة الجوهرية للعبث هى استعصاء العالم على الخضوع للمقاييس العقلية ، وهكذا يرى كامى أن العقل محدود ولا يستطيع أن يصل إلى عقلنة الوجود ، ولكنه يقرر فى الوقت نفسه أن العقل هو وسيلة الإنسان الوحيدة الموصلة للحقيقة ، العبث إذن هو مقابلة الوعى ، الذى هو «رغبة مجنونة فى الوضوح» مع هذا العالم اللاعقلانى . وبالرغم من اعتراف كامى بعبث الحياة فإنه يرفض فكرة الانتحار، إذ إن اكتشاف عبثية الحياة هو برأيه بداية فقط لاكتشاف قيم أخرى . فالتجربة العبثية ضرورية لأنها تحرر الوعى من قيوده وتمنحه سلاح الشك ، غير أنه لا ينبغى التوقف عندها وإنما يتعين تجاوزها ، ويوضح ذلك بقوله: «إن التجربة العبثية تمنحنى بديهية وحيدة وأولية هى : تمردى» . وعندئذ تتجلى إرادة الإنسان بأن يجعل للحياة معنى رغم علمه بأنها بلا معنى ، لذلك يدعو كامى الإنسان لأن يعيش حياته بامتلاء «وبوعى مضاعف» ، ولكن ذلك يستلزم أن يكون لدى الإنسان الشجاعة والذكاء ، لكى يعيش ارادته، وهى التمرد على مصيره الذى لا مصير غيره ، وهو الموت ، ويفجر هذا التناقض بين الوعى بحتمية الموت، ورفض اليأس من الحياة جواب كامى الخاص ، وهو الجواب الذى أبرز من وقتها تميزه وشجاعته .

ولم يرض كامى عن النتائج التى توصل إليها فى كتابه «أسطورة سيزيف» فكتب أربعة خطابات إلى صديق ألمانى ، أشار فيها إلى أن ما توصل إليه الفلاسفة الألمان من عبث الوجود فسره البعض على أن الإنسان يستطيع أن يفعل ما يشاء ، وجسد هتلر هذا الموقف من الوجود فى صورة النازية ، لكن الأمر نقيض ذلك بالنسبة لكامى الذى رفض تماما منطق اليأس من الوجود ، فهو وإن كان يقر بعبث الوجود إلا أنه اتخذ الموقف المقابل وانضم إلى المقاومة ، وفسر ذلك بولهه بالعدالة وإيمانه بأن العبث رغم أنه ينبع من التناقض الموجود فى الحياة ، إلا أن الإنسان له معنى وقيمة ، وكانت تلك الخطابات الأربعة بمثابة مناقشة داخلية بين كامى ونفسه قبل أن يخلص إلى موقفه النهائى ، وهو التمرد ، وبذلك بدأت مرحلة أخرى من حياة وإنتاج كامى ، هى مرحلة النضج ، وتميز انتاجه فى تلك المرحلة بالإيجابية ، فلم يعد يكتف بالنفى والشك بل طالب الإنسان بالتمرد على مصيره ، وفى مسرحياته لم يعد يتناول مجرد الفوضى أو التشاؤم والعدمية ، بل صار يطلب الفعل الإيجابى. وامتدت تلك الفترة من ١٩٤٧ إلى ١٩٥١ ، وقدم خلالها رواية « الطاعون » (١٩٤٧) ومسرحية « حالة حصار » (١٩٤٨) ثم مسرحية « العادلون » (١٩٥٠) . وفى عام ١٩٥١ أصدر كتاب «الإنسان المتمرد» الذى يعد تتويجا لجهده الفلسفى .

ولقد أثارت رواية «الطاعون» عاصفة من الإعجاب بين القراء العاديين الذين وجدوا أنها تعبر عنهم وعن آمالهم فى عالم جديد ويسار جديد وأدب جديد . وحققت الرواية رواجا كبيرا وبيع منها مائة ألف نسخة فى مدى شهرين . ووجه العظمة فى «الطاعون» هو إنسانيتها المفرطة . إنها تدافع عن الإنسان وتدفع عنه كل النظم والمذاهب التى تضلله ، فعندما يكتشف المتمرد عبثية الحياة وعذاب

الأبرياء يتمرد لنفسه وللآخرين ، فالوقوف على عذاب الآخرين يوقظ الحب كما يوقظ التمرد ، والاثنان – الحب والتمرد – هما الثمرة المزدوجة للعذاب .

لقد تناولت رواية «الطاعون» فكرة أن الإنسان ليس وحده ، وأن الشر ليس مسألة فردية بل عامة ، لكننا لا ندرك ذلك إلا عندما يصبح الشر كالطاعون . ويشير كامى إلى أنه بالإضافة إلى الطاعون الذى يهاجم الأجساد هناك طاعون داخلى يلتصق بالروح ، وهو الحقد والكذب والكبرياء ، وبالتالى «يحمل كل إنسان الطاعون فى نفسه لأن ليس ثمة إنسان ، أى إنسان فى العالم ، معصوم منه» .

أما مسرحية «حالة حصار» فإن قيمتها الفلسفية تفوق قيمتها المسرحية ، فلقد ضمنها كامى كل جوانب فلسفة التمرد ، وتعد هذه المسرحية من أروع ما كتب كامى ضد الطغيان معبرا بذلك عن اليسار الجديد الذى ثار على انحرافات ثورات القرن العشرين ، وينفث فيها كل كراهيته لنظام الحزب الواحد وكل حبه للقيم الإنسانية البسيطة التى يهددها ذلك النظام .

وكانت مسرحيته التالية «العادلون» من أفضل ما كتب للمسرح ، وفيها يتصارع موقفان وبطلان : بطل مستعد أن يضحي بسعادة الناس من أجل السعادة المطلقة التى سينعم بها من يجيئون بعده ، فى حين يريد الآخر أن يحقق السعادة للأحياء الموجودين الآن الذين ثار من أجلهم ، ويرفض أن يزيد الظلم بحجة التمهيد لعدالة ستنعم بها أجيال قادمة «إنه يريد عدالة حية وليست عدالة ميتة» . فكامى ينكر الغاية التى تبرر الوسيلة وينكر الحرية التى تقوم على إلغاء الحرية أو القتل السياسى ، فالقضية الصحيحة بالنسبة له هى «التى تكون وسائلها ، لا غايتها ، صحيحة ، ذلك لأن الوسائل هى حاضرنا ، أى أنها هى التى تحدد وجودنا» . وكان كامى الوحيد بين كتاب اليسار الفرنسى الذى آمن بإمكانية تحقيق الاصلاح عن طريق المؤسسات الديمقراطية لا عن طريق الثورة .

ويقول كامى أنه يكره الديكتاتورية سواء كانت بسبب الشيوعية أو ضد الشيوعية ، ولذلك كان ضد ديكتاتورية فرانكو وطالب المجتمع الدولى فى عام ١٩٤٥ بأن يضغط على إسبانيا لإسقاط حكم فرانكو ، بل استقال من منظمة اليونسكو عام ١٩٥٢ عندما قبلت المنظمة عضوية إسبانيا ، مؤكدا أنه يقف دائما ضد «مجتمع التجار مثلما يقف ضد مجتمع رجال الشرطة» .

وفى عام ١٩٥١ صدر كتابه «الإنسان المتمرد» الذى أثار ضجة فى الأوساط السياسية والأدبية . ويقول عنه «هذا جهد من أجل فهم عصرى» ، ومن ثم فإن «الإنسان المتمرد» يحدد موقفا فلسفيا وليس نظرية .

والتمرد برأى كامى خلاف الثورة ؛ لأن التمرد مجرد احتجاج ضد الظلم واليأس والعبث ، لكن الثورة احتجاج ضد كل ذلك يأخذ شكل العنف والحرب والدماء . لذلك يرفض كامى الثورة ويحتضن «التمرد» . لكن ليس معنى ذلك أن تمرد كامى هو تمرد الرومانسيين إنما هو تمرد يعلي من شأن الإنسان ويقدر فى الوقت نفسه حدوده وقيوده ، ويوضح كامى ذلك بأن أى تمرد - لا يعلو على العدمية ويعترف بالتكامل فى الفرد والنسبية فى السياسة والحدود والقيود - سينتهى حتما إلى تبرير القتل ويصبح ديكتاتورية .

ولقد حلل كامى فى كتاب «الإنسان المتمرد» أسباب فشل التمرد والثورة حتى الآن وتخليهما عن مبادئ الحرية والعدالة وتحولهما دائما إلى الدولة البوليسية أو الفرد الطاغى .

إن التمرد عند كامى فعل إيجابى ، ولذلك يدعو إلى عدم رفض العصر الذى نعيشه ، ولا قبوله بشكل أعمى ، إنما يجب على الإنسان أن ينهضه ويعيد بناءه . «فبالتمرد يتجاوز الإنسان نفسه بواسطة الآخرين .. إننى أتمرد ، إذن نحن موجودون» .

وجعل كامى الوضوح والبراءة من شروط التمرد ، مؤكدا بذلك انحيازه للجانب المضئ فى الحياة ، فالخطيئة بالنسبة له هى رفض البراءة ، والتخلى عن الوضوح، والفضيلة التى يعترف بها هى فضيلة «أن يعرف الإنسان أن الوجود عبث ومع ذلك يعيش العالم كأنه ملئ بالقيم» .وبعد البراءة والوضوح تأتى أخلاقية التمرد التى يمكن تلخيصها فى الاعتدال والحب . فالمتمرد الأمين لأصول تجربته يكون واعيا بالحدود ، وهذا الوعى يولد الاعتدال ويحمى المتمرد من كل وهم . لذلك يرفض كامى المطلق ويؤمن بالنسبى وبأن لا يعيش الإنسان فى المستقبل وإنما فى الحاضر .

فالحاضر - بالنسبة له - هو الصراع المتجدد أبدا من أجل الابقاء على الوعى، فليست القضية أن يطمئن الإنسان أو أن ييأس وإنما هى أن يواجه ، وإذا كان العمل الحقيقى أى الأمين للتمرد هو الاعتدال فإنه الحب أيضا ، والحب لدى كامى هو حب النسبى لأن حب المطلق قد يتحول إلى بغض ويقود إلى القتل ، ويقصد كامى أن يحب المرء ذويه والأشياء المتواضعة والأرض ، وفوق كل ذلك كله المضطهدين ، وهكذا يغذى الحب الحقيقى ، ويصف كامى حب المتمرد بأنه «السخاء المجنون ، سخاء المتمرد الذى يمنح طاقة حبه من غير تأخير ، ويرفض الظلم دون ابطاء ، ويقتضيه شرفه ألا يحسب شيئا وأن يعطى كل شئ للحياة الحاضرة والإخوة الاحياء ... إن السخاء الحقيقى نحو المستقبل هو منح الحاضر كل شئ » .

والإنسان المتمرد يجب أن يعترف بالحدود ، فنحن أحرار ولكن قبل حريتنا هناك حرية الآخرين ، وإذا كنا نطلب العدل لأنفسنا ، فعلينا أن نطلبه للآخرين ونعطيه لهم ، أى نعترف بالحدود ، فالحرية المطلقة التى تلغى حرية الآخرين طغيان . «فالمتمرد ليس مجرد عبد يثور على سيده ولكنه إنسان يثور على عالم

السيد والعبد» . يؤكد كامى أن فى الاحساس بالحرية إحساساً بالمسئولية ، والحرية والمسئولية يورثان القلق ، وهذا القلق يملأ صاحبه بالحياة .

وهكذا يخلق التمرد أخلاقية حية تجابه انعدام كل أخلاقية من ناحية ، والأخلاقية القطعية من ناحية أخرى ، وكلتاهما انحراف من منظور التمرد؛ فأخلاقية التمرد الحقيقية محسوسة وعاملة فى الحياة اليومية للفرد والمجموع ، «إنها أخلاقية الجهد الموصول للإبقاء على الاعتدال وعلى ثباته المضنى» إن كامى لا يستقى تجربته من الكتب فهو مؤمن بأنه «بدون أن نجرب الحياة أو أن نغوص فى أعماق أنفسنا من خلال التجربة ، لن نستطيع أن نسيطر على العالم أو على أنفسنا» . وفى نهاية الطريق ، عندما يتحقق التوازن أخيرا ، يولد الفرح الذى يعتبره كامى غوث المتمرد ومكافأته «عندئذ ، يولد الفرح القريب الذى يساعد على الحياة وعلى الموت» ، الفرح الذى هو قوة وحرية وشجاعة .

وخلص كامى فى كتابه «الإنسان المتمرد» إلى أن مفهوم التمرد هو رفض الماركسية كحل سياسى والرأسمالية كحل اقتصادى والفوضوية كحل فلسفى بل اعتبر أن هذا الكتاب يقدم رد اليسار على الماركسية .

وبعد «الإنسان المتمرد» لم يقدم كامى شيئا كبيرا ، مارس الإخراج والاعداد المسرحى وأصدر مجموعة مقالات «الصيف» ومجموعة قصص قصيرة «المنفى والملكة» (١٩٥٧) وبعض المترجمات ، وبدا طوال تلك الفترة وكأنه قد أجدب ولكنه وصف تلك الفترة قائلا : «فى وسط الشتاء يوجد داخلى صيف لا ينهزم» . فعبثية كامى تسكنها أشعة الشمس وجمال البحر وزرقة السماء وروعة الطبيعة إنها عبثية ترفض الاستسلام لبؤس الحياة، فالسعادة هى الفكرة المحورية فى كل ما كتب كامى، ويوضح ذلك قائلا : «عندما أفتش فى نفسى باحثا عن أعمق أعماق ذاتى فإننى لا أعثر إلا على حب السعادة وتذوقها .. هناك شمس لا تغيب فى قلب ما أكتب» .

ولكنها كانت فترة لابد منها كى يستعد كامى لكتابة عمل فريد . وكان بالفعل يكتب مسودة سيرته الذاتية أو «الإنسان الأول» التى هى بين يدى القارئ ، بينما كان المرض الخطير يعاوده ويشتد عليه من وقت لآخر ، وساءت صحته بشكل خاص فى سنتيه الأخيرتين ، وفي عام ١٩٥٧ حصل على جائزة نوبل للآداب ، وفى الخطاب الذى ألقاه بهذه المناسبة ذكر فضل لويس جرمان مدرسه فى المدرسة الابتدائية ، وچان جرينييه أستاذه الذى غرس فيه حب الأدب وظل صديقا له حتى وفاته .

ويختلف «الإنسان الأول» عن باقى أعمال كامى ، ففى رواياته وأعماله المسرحية كان يعبر عن أفكاره الفلسفية ، أما فى «الإنسان الأول» فقد قدم حياة أسرة بائسة تصارع الحياة بواقعية وشجاعة وبدون مرارة ، مركزا على حياة الطفل چاك الذى هو كامى نفسه ، وإمكانات السعادة فى حياة هذا الطفل وما منحته له الطبيعة من بهجة «ولدت فقيرا تحت سماء سعيدة ، وسط طبيعة يشعر المرء معها بالود والصلة لا بالجفاء والعداوة ، فأنا إذن لم أبدأ بالتمزق ، بل بالامتلاء» .

ويروى كامى بعفوية ، من خلال عيون الطفولة ، مغامرات هذا الطفل وسعادته وعذاباته الصغيرة ، ويصف براءة الطفولة التى لا تعرف الحقد وإن كانت تدرك الفروق المادية والطبقية دون أن يولد ذلك لديها إحساسا بالدونية ، فعند خروجه ، هو وصديق طفولته ، من المدرسة كانا يتركان زملاءهما ليركبا عربات الترام الحمراء المتجهة إلى الأحياء الفقيرة «كانا يشعران بالانفصال وليس بالدونية .. كانا من مكان آخر. هذا كل ما فى الأمر» . ويعبر كامى على لسان چاك عن ارتباطه بأسرته وعدم رفضه لواقعها أو تعاليه عليه «بالرغم من كل شئ ، لم يكن چاك يرغب قط فى تغيير حالته ولا أسرته ، وكانت أمه - كما هى - أكثر شئ

يحبه فى العالم » . ويتساءل كامى «كيف يمكن أن نوضح للآخرين أن طفلا فقيرا يمكنه أحيانا أن يشعر بالخجل والخزى دون أن يشتهى أو يتطلع قط إلى شئ لدى الآخرين ؟ » . فهو يقدم لنا تفهما محبا لتلك الأسرة البائسة الجاهلة المعاقة ويؤكد انتماءه لها . ولعل حب چاك لأمه وإعجابه بها ، الذى يتخلل كل سطور الكتاب ، وعجزه طفلا ثم رجلا عن أن يعبر لها عن هذا الحب العميق هو أكثر ما يمس القلب فى هذه السيرة . ربما لا يوجد كاتب تأثر بصورة مباشرة بأمه مثل ألبير كامى .

ويروى لنا قصة ذلك الطفل الذى أصبح رجلا بدون أب ولا عقيدة ولا قدوة وكأنه «الإنسان الأول» فى صحراء الحياة ، عليه أن يضع لنفسه قوانينه وأخلاقياته وأن يتعلم ويفهم العالم بدون مساعدة من أحد «وأن يكبر ويربي نفسه وحده بأغلى ثمن» .

ولعل ما كتبه چان جرينييه عن كامى فى تقديمه لأعماله الكاملة .. هو أفضل ختام لهذه المقدمة : «إن آلاف الصفحات التى كتبت ولا تزال تكتب وستكتب عن ألبير كامى تدل على عمق الأثر الذى أحدثه ، وإنها شهادة جيل تجعلنا نستشعر آفاق الأجيال القادمة » .

لبنى الريدى

(١)

إليك يا من لن تستطيع

قط قراءة هذا الكتاب

فى الغروب أسرعت سحب كبيرة وكثيفة نحو الشرق، أعلى عربة النقل الصغيرة ذات العجلتين والمظلة، راحت تقطع طريقا كثير الحصى. قبل ذلك بثلاثة أيام، كانت السحب قد انتفخت فوق الاطلنطى وانتظرت رياح الغرب، ثم تحركت ببطء فى أول الأمر وتسارعت تدريجيا، وحلقت فوق مياه الخريف المومضة، متجهة نحو اليابسة، وتمزقت باصطدامها بالقمم المغربية، وأعيد تشكيلها فى قطعان على الهضاب الجزائرية العالية، والآن، وعلى مقربة من الحدود التونسية تحاول بلوغ البحر لكى تضيع فيه. وبعد أن قطعت آلاف الكيلومترات فوق هذه الجزيرة الشاسعة، التى يحميها البحر المتحرك فى الشمال وأمواج الرمل الثابتة فى الجنوب، مارة فوق هذا البلد الذى لا اسم له، أسرع مما فعلت الامبراطوريات والشعوب طوال آلاف السنين، وينكسر اندفاعها وينوب بعضها فى شكل قطرات مطر كبيرة ونادرة بدأت ترن على غطاء العربة الكتانى فوق المسافرين الأربعة.

كانت العربة تصر فوق الطريق المعبد بشكل جيد، ولكنه مدكوك بالكاد. ومن وقت لآخر تندفع شرارة تحت الاطار الحديدى للعجلات أو تحت حافر أحد الجوادين، راح حجر صغير يضرب خشب العربة أو ينغرس بصوت مكتوم، فى أرض الحفرة اللينة، ورغم ذلك كان الحصانان الصغيران يتقدمان بشكل منتظم،

يكادان يتعثران على فترات متباعدة، الصدر إلى الأمام لشد العربة الثقيلة، المحملة بالأثاث، يدفعان بدون توقف الطريق وراءهما بمشية كل منهما المختلفة السرعة. كان أحدهما يطرد أحيانا الهواء من منخاريه محدثا صوتا عاليا ويختل ايقاع خطواته عندئذ كان العربى الذى يقود العربة يفرقع فوق ظهره باطن الزمام المتشقق، ويسترد الحيوان بعزم ايقاعه.

كان الرجل الجالس على المقعد الأمامى إلى جوار السائق، فرنسيا فى الثلاثين من عمره، ينظر بوجه صارم إلى الكفلين اللذين يتحركان أسفله كان متوسط الطول، ممتلئا، له وجه طويل، وجبهة عالية مربعة، وفك قوى، وعيون نضرة، وبالرغم من تقدم فصل الخريف، كان يرتدى سترة خفيفة بثلاثة أزرار ومقفولة عند الياقة تبعا لموضة تلك الفترة، ويضع على شعره القصير قبعة خفيفة بواقية أمامية. وفى اللحظة التى بدأ فيها المطر يتدحرج على غطاء العربة فوقهم، استدار إلى داخل العربة وصاح: «هل الامور على مايرام؟» ، وعلى مقعد ثان، تجلس امرأة محشورة بين المقعد الأول وكومة من الحقائب القديمة والأثاث، تنم ملابسها عن الفقر وان كانت تتدثر بشال كبير من الصوف السميك، ابتسمت بوهن، وقالت بحركة اعتذار خفيفة: «نعم، نعم». كان هناك طفل فى الرابعة من عمره ينام مستندا اليها. لها وجه لطيف متناسق، وشعر اسبانى أسود متموج، وانف صغير مستقيم، ونظرة بنية جميلة ودافئة. كان هناك شئ ما فى هذا الوجه يلفت النظر. لم يكن مجرد نوع من القناع المؤقت يرسمه التعب، أو أى شئ مماثل على قسماتها، لا، بل مظهر من الغياب والشرود العذب الذى تحمله دائما وجوه بعض الابرياء، ولكنه كان يطفو هنا بشكل عابر على قسمات مليحة. كما يمتزج أحيانا بالطيبة الصارخة، للنظرة بريق خوف غير منطقى سرعان ما ينطفىء، راحت تربت على ظهر زوجها، براحتها التى أتلفها العمل وتشكو مفاصلها من الالتهاب،

وتقول: «كل شيء على ما يرام، كل شئ على ما يرام» ثم توقفت عن الابتسام لتنظر، تحت غطاء العربة، إلى الطريق حيث بدأت تلمع برك الماء.

استدار الرجل نحو العربى الهادىء تحت عمامته ذات الأشرطة الصفراء، والذى يضخم جسمه سروال فضفاض مزموم أعلى الساق «ألا يزال المكان بعيدا؟» ابتسم العربى من أسفل شاربه الضخم الأبيض «ثمانية كيلو مترات ونصل» استدار الرجل، نظر إلى زوجته دون أن يبتسم. لم تكن قد حولت نظرها عن الطريق. قال الرجل: «اعطنى الزمام»، اعطاه العربى الزمام، وتخطاه الرجل بينما كان العجوز العربى ينزلق تحته ليحتل مكانه وبضربتين من باطن الزمام سيطر الرجل على الجوادين اللذين عدلا من عدوهما واندفعا فجأة بشكل أكثر استقامة ، سأل العربى: «ألك معرفة بالخيول؟» جاء رد الرجل مقتضبا، ودون أن يبتسم: «نعم».

خفت الضوء وفجأة هبط الظلام. سحب العربى مزلج الفانوس المربع الموضوع على يساره، مستديرا إلى الداخل، استخدم عدة أعود ثقاب بدائية لاشعال الشمعة الموجودة داخله ثم أعاد الفانوس إلى مكانه. الآن يسقط المطر بهدوء وبشكل منتظم كان المطر يلمع فى ضوء المصباح الضعيف، ومن كل جهة، كان صوته الخفيف يخترق الظلام. ومن وقت لآخر، كانت العربة تحاذى أدغالا شائكة، وأشجارا قصيرة، تضاء لبضع ثوان بضوء ضعيف. ولكن فى باقى الوقت تسير وسط فضاء خال تجعله الظلمة أكثر اتساعا وفجأة فان روائح العشب المحروق، رائحة سماد قوية تدل على أن العربة تسير فى محاذاة أراض مزروعة. تكلمت المرأة وراء السائق الذى عدل قليلا من سير خيوله ومال إلى الوراء «لا يوجد انسان»، كررت المرأة - هل انت خائفة؟ - ماذا؟ كرر الرجل الجملة صائحا هذه المرة. «لا، لا، ليس معك». ولكنها بدت قلقة. «أتشعرين بألم؟.» رد الرجل: قليلا

حث خيوله، وامتلأ الليل من جديد بصوت العجلات القوى وهى تدوس الأثلام، وصوت الحدوات الثمانية وهى تضرب الطريق.

إنها ليلة من ليالى خريف عام ١٩١٣ . كان المسافرون قد غادروا محطة قطار بوون قبل ساعتين، حيث وصلوا من الجزائر العاصمة بعد سفر استمر يوما وليلة على مقاعد الدرجة الثالثة القاسية. فى المحطة وجدوا العربة والعربى الذى كان فى انتظارهم ليصحبهم إلى البيت الذى يقع قرب قرية صغيرة، على بعد عشرين كيلو مترا داخل الأراضى التى من المفروض أن يتولى الرجل إدارتها. استغرق تحميل الأمتعة بعض الوقت، كما تسبب الطريق الردىء فى تأخيرهم. وكأن العربى، كان يدرك قلق رفيقه، لذا قال له : «لاتخف . لا يوجد قطاع طرق هنا» قال الرجل: «أنهم موجودون فى كل مكان، ولكن لدى اللازم» وضرب على جيبه الضيق. قال العربى: معك حق، هناك دائما مجانين. فى تلك اللحظة نادت المرأة على زوجها: «هنرى، انه يؤلم» سب الرجل وحث خيوله أكثر وقال : نكاد ان نصل» وبعد لحظة، نظر إلى زوجته مرة أخرى «لايزال يؤلم؟» ابتسمت له فى شرود دون أن يبدو عليها الألم «نعم، كثيرا» نظر اليها بالجدية نفسها. واعتذرت مجددا «لاشئ ، لعله القطار». قال العربى: «انظر، انها القرية». وبالفعل تراءت القرية على مسافة أبعد قليلا يسار الطريق، أضواء سولفرينو الغائمة بسبب المطر. قال العربى «لكنك تنعطف إلى اليمين»، تردد الرجل واستدار نحو زوجته، وسأل: «هل نذهب إلى البيت أم إلى القرية؟.

– أوه! إلى البيت أفضل».

وعلى مسافة أبعد قليلا انحرفت العربة إلى اليمين فى اتجاه البيت الغامض الذى ينتظرهم. قال العربى «بقى كيلو متر واحد» ثم قال الرجل فى اتجاه زوجته : «نحن على وشك الوصول». كانت مثنية إلى نصفين وجهها بين ذراعيها. صاح

الرجل «لوس» لم تكن تتحرك لمسها الرجل بيده تبكى فى صمت: صاح وهو يقسم مقاطع الكلمات ويوضح بالإيحاءات كلماته: «سوف ترقدين وسأذهب لاحضار الطبيب - نعم اذهب لاحضار الطبيب، اعتقد ذلك». كان العربى ينظر إليهما مندهشا. قال الرجل: «إنها على وشك الولادة هل الطبيب فى القرية؟ - نعم، سأذهب لاحضاره إذا أردت - لا، ابق انت فى المنزل وانتبه سأذهب أنا أسرع هل لديه عربة أو حصان؟ - لديه العربة» . ثم قال العربى للمرأة : «ستلدين ولدا، وسيكون جميلا». ابتسمت المرأة له دون ان يبدو انها فهمت ما يقول، قال الرجل: «انها لا تسمع. فى البيت، تتكلم بصوت عال وباشارات».

فجأة سارت العربة بدون صوت تقريبا. الطريق الذى أصبح أضيق كان مغطى بطبقة من الحجر الجيرى، ويحاذى عنابر مغطاة بالقرميد تظهر من ورائها الصفوف الأولى لحقول الكروم. استقبلتهم رائحة قوية لعصير عنب متخمر تجاوزوا مبانى كبيرة ذات أسقف شديدة الارتفاع، وسحقت العجلات رماد الفحم الحجرى الذى يكسو فناء خاليا من الأشجار، ودون أن يتكلم أخذ العربى الزمام لكى يجذبه. توقف الجوادان وحمحم أحدهما أشار العربى بيده إلى منزل صغير ومطل بالجير. كانت اغصان العنب المتسلقة تحيط بالباب الصغير المنخفض الذى اصطبغ اطاره بلون مائل للزرقة نتيجة المعالجة بالكبريتات. قفز الرجل وجرى تحت المطر نحو المنزل. كان الباب يؤدى إلى غرفة مظلمة تنبعث منها رائحة مدفأة فارغة. سار العربى فى الظلام وراء الرجل، مباشرة نحو المدفأة، وحك جذوة أضاء منها لمبة كيروسين كانت تتدلى وسط الغرفة فوق منضدة مستديرة. ولم يتح للرجل سوى التعرف على مطبخ به حوض غسيل مبلط بالقيشانى الأحمر وصوان سفرة قديم وتقويم مبقع معلق علي الجدار. يؤدى سلم مغطى بنفس المربعات الحمراء إلى الطابق العلوى. قال الرجل: «أوقد نارا»، «وعاد إلى العربة. كانت المرأة تنتظر

دون ان تقول شيئا. أخذها بين ذراعيه لينزلها على الأرض وللحظة ضمها إليه، ونكس لها رأسها «يمكنك السير»؟ – أجابت: «نعم»، وربتت على ذراعه بيدها ذات المفاصل الملتهبة. قادها نحو المنزل. وقال: «انتظرى». كان العربى قد أشعل النار وراح يقويها بفروع الكروم بحركات ماهرة. مكثت قرب المنضدة ويداها على بطنها ووجهها الجميل نحو ضوء المصباح وقد علته موجات ألم قصيرة. لم تلاحظ على ما يبدو الرطوبة ولا رائحة الاهمال والبؤس . وكان الرجل منشغلا فى الغرفة العلوية ثم ظهر أعلى السلم «ألا توجد مدفأة فى الغرفة؟». – رد العربى: «لا، ولا فى الغرفة الأخرى أيضا». قال الرجل «تعال» .. لحق العربى به، ثم بدا من ظهره حاملا مرتبة وأمسك الرجل طرفها الآخر. ووضعاها قرب المدفأة. جذب الرجل المنضدة إلى أحد الأركان، بينما صعد العربى مرة أخرى إلى الطابق ثم نزل مسرعا وهو يحمل وسائد وأغطية ، فقال الرجل لزوجته: «نامى انت هنا» ، وقادها إلى المرتبة ترددت كانت رائحة الشعر الرطب المنبعثة من المرتبة واضحة الآن. قالت وهى تنظر حولها بخوف كما لو كانت تكتشف المكان «لا.. استطيع تبديل ملابسى».. قال الرجل «اخلعى ما ترتدينه بأسفل»، وكرر:« اخلعى ملابسك الداخلية» ثم موجها كلامه للعربى «شكرا، حل حصانا من العربة. سوف اركبه إلى القرية». خرج العربى. كانت المرأة منهمكة وظهرها إلى زوجها الذى استدار هو أيضا: ثم تمددت وبمجرد أن فعلت ذلك، وسحبت الأغطية عليها، صرخت فجأة، طويلا وبملء فمها كأنها تريد التخلص مرة واحدة من كل الصرخات التى جمعها الألم داخلها. تركها الرجل، الواقف قرب المرتبة تصرخ، وعندما صمتت، خلع قبعته ووضع إحدى ركبتيه على الأرض وقبل الجبهة الجميلة أعلى العيون المغمضة. ولبس القبعة وخرج تحت المطر. راح الحصان الذى فصله عن العربة يلف حول نفسه، وساقاه الأماميتان منزرعتان فى رماد الفحم الحجرى قال

العربى «سأبحث عن سرج».- لا ، أترك له الزمام. سوف اركبه هكذا. ادخل الأمتعة والحقائب فى المطبخ. ألديك زوجة؟ - ماتت، كانت عجوزا - ألديك ابنة؟ - لا ، الحمد لله. ولكن لدى زوجة ابنى - أخبرها أن تاتى .

- سأفعل، اذهب فى سلام» نظر الرجل إلى العربى العجوز الواقف ساكنا تحت المطر الدقيق والذى يبتسم له تحت شاربه المبلل. لايزال لا يبتسم، ولكنه نظر إليه بعينيه الفاتحتين اللطيفتين. ثم مد له يده التى أمسك بها الآخر على الطريقة العربية بأطراف أصابعه التى رفعها إلى فمه. استدار الرجل ورماد الفحم الحجرى يصر تحت قدميه واتجه نحو الحصان، وقفز بدون سرج على ظهره وابتعد بمشية متثاقلة.

وعند الخروج من أراضى الدائرة، أخذ الرجل اتجاه تقاطع الطرق الذى رأى فيه لأول مرة أنوار القرية ، كانت الانوار تلمع ببريق أكثر حدة، لقد توقف المطر والطريق على اليمين المؤدية اليها - كانت مرسومة مستقيمة عبر حقول العنب التى كانت أسلاك الحديد فيها تلمع فى بعض المناطق. وفى منتصف الطريق أبطأ الحصان سرعته من تلقاء نفسه وراح يتقدم. كان يقترب من كوخ مستطيل، جزء منه حجرة مبنية بالطوب، والجزء الأكبر مبنى بألواح الخشب، مع افريز كبير ينثنى على نوع من النضد البارز وعلى الباب المركب فى الجزء المبنى، كان يمكن قراءة ما يلى «مقصف زراعى ، مدام چاك» كان الضوء يتسلل تحت الباب. أوقف الرجل حصانه قرب الباب مباشرة، وبدون أن ينزل، دق الباب وعلى الفور سأل من الداخل صوت رنان وحازم: «من هناك؟

- أنا المدير الجديد لدائرة سان - ابوتر، زوجتى فى حالة وضع، واحتاج إلى مساعدة» . لم يرد أحد وبعد برهة، فتحت الارتاج، ونزعت القضبان، ثم سحبت ، وانفتح الباب قليلا. كان يمكن تمييز رأس سوداء مموجة لسيدة اوروبية ذات وجنات ممتلئة وأنف أفطس بعض الشئ فوق شفاة غليظة «اسمى هنرى كورمرى.

أيمكنك ان تكونى قرب زوجتى؟ انا ذاهب لاحضار الطبيب». حدقت فيه بعينين اعتادتا وزن الرجال والشدائد. استمر ينظر اليها فى ثبات، ولكن دون أن يضيف كلمة. قالت: «سوف اذهب اليها، فلتسرع انت». شكرها وضرب الحصان بكعبيه. وبعد لحظات قليلة، اقترب من القرية مارا بين أنواع من المتاريس من الطين الجاف: شارع وحيد، على ما يبدو، يمتد أمامه، تحف به بيوت صغيرة بدون طوابق وكلها متشابهة. قطع الطريق حتى ميدان صغير مغطى بالكلس حيث يرتفع، كشك موسيقى ذو هيكل معدنى. كان الميدان خاليا مثل الشارع. وراح كورمرى يسير نحو أحد المنازل عندما انحرف الحصان جانبا برز عربى من الظلام فى برنس قاتم وممزق، وسار نحوه سأله كورمرى مباشرة «منزل الطبيب»، تفحص الآخر الفارس قال بعد أن تفحصه «تعال» عادا وقطعا الشارع فى الاتجاه المعاكس، وعلى أحد المبانى التى تضم بدروما مرتفعا يتم الوصول اليه بواسطة سلم مطلى بالجير كان مكتوبا: «حرية، مساواة، إخاء»، وتجاور المبنى حديقة صغيرة محاطة بجدران مطلية بالملاط، فى نهايتها يقع منزل ، اشار إليه العربى قائلا: «هو ذا» . قفز كورمرى من على الحصان، وبخطوة لا تنم عن أى تعب، عبر الحديقة التى لم ير منها سوى نخلة قزمة جافة السعف ومنخورة الجذع، فى منتصف الحديقة تماما . طرق الباب. لم يرد أحد استدار. كان العربى ينتظر صامتا.. طرق الرجل الباب مرة أخرى. سمع صوت خطوة من الناحية الأخرى وتوقفت وراء الباب. لكن الباب لم يفتح ، وعاود كورمرى الطرق، وقال: «ابحث عن الطبيب». وعلى الفور، جذبت الارتاج وفتح الباب. وظهر رجل، له ملامح شابة ونضرة، لكن شعره ابيض تقريبا، ذو قامة طويلة وقوية، والساقان مضمومتان فى كساء من الجلد، كان يرتدى نوعا من سترات الصيد قال مبتسما: «عجبا، من أين أتيت؟ لم أرك قط من قبل» أوضح الرجل هويته. «أوه نعم، لقد

اخبرنى العمدة. ولكن اخبرنى ، أليس غريبا الحضور للولادة فى هذا البلد العجيب»، قال الآخر انه كان ينتظر ذلك بعد بعض الوقت وانه أخطأ على ما يبدو «إن ذلك يحدث لكل الناس هيا، سوف أشد السرج واتبعك».

فى منتصف طريق العودة، وتحت المطر الذى عاود السقوط من جديد، لحق الطبيب، الراكب على حصان رمادى مرقط، بكورمرى الذى ابتل الآن تماما ولكنه منتصب دائما على حصانه الثقيل، حصان مزرعة «وصول عجيب»، صاح الطبيب. لكنك سترى، البلد بها اشياء طيبة ، ماعدا الناموس وقطاع الطرق» أصبح فى مستوى رفيقه. لاحظ بالنسبة للناموس انت فى راحة حتى الربيع أما بالنسبة لقطاع الطرق...» كان يضحك ، ولكن الآخر كان يستمر فى التقدم دون أن ينبس....بكلمة . نظر اليه الطبيب بفضول وقال: «لا تخش شيئا، كل شئ سيكون على ما يرام». أدار كورمرى نحو الطبيب نظرته الفاتحة، ونظر اليه بهدوء وقال بلهجة تشوبها مودة: «لست خائفا، أنا معتاد على الضربات القاسية - هل هو أول مولود لك؟ - لا، لقد تركت صبيا فى الرابعة من عمره لدى حماتى فى الجزائر العاصمة». كانا قد وصلا إلى تقاطع الطرق وأخذا طريق أملاك الدائرة، وسرعان ما تطاير رماد الفحم الحجرى تحت أقدام الخيول. وعندما توقف الجوادان وساد الصمت مرة أخرى، انطلقت من البيت صرخة كبيرة وترجل الرجلان.

كان ينتظرهما خيال، يحتمى تحت الكرمة التى يقطر منها الماء. وعندما اقتربا، تكشف عن العجوز العربى الذى غطى رأسه بكيس «صباح الخير، يا قادور» قال الطبيب، كيف الحال، - لا أعرف ، أنا لا أدخل عند النساء، قال العجوز - مبدأ جيد، أجاب الطبيب « خاصة عندما تصرخ النساء» لكن لم يعد يأتى من الداخل أى صراخ. فتح الطبيب ودخل وكورمرى فى أثره.

كانت نار كبيرة من فروع الكروم تشتعل أمامهما فى المدفأة وتضئ الغرفة أكثر من مصباح الكيروسين المزين بحواشى من النحاس والخرز الذى يتدلى من منتصف السقف. وعن يمينهما، امتلأ حوض المطبخ بأباريق معدنية وفوط. وعلى اليسار، ازيحت منضدة المنتصف أمام صوان سفرة صغير متهالك من الخشب الأبيض. كان يغطى المنضدة الآن كيس سفر قديم وصندوق قبعات وطرود وبالات صغيرة وفى كل أركان الغرفة، كانت الأمتعة القديمة، من بينها حقيبة كبيرة من الخوص، تحتل كل الأرجاء ولا تترك سوى حيز خال فى المنتصف، على مقربة من النار. وفى هذا الحيز، كانت المرأة ترقد، على مرتبة وضعت رأسيا أمام المدفأة، ووجهها مائل قليلا إلى الخلف على وسادة بدون كيس، وشعرها محلول الآن. لم تعد الأغطية تغطى سوى نصف المرتبة وعلى يسار المرتبة، كانت صاحبة المقصف، جاثية على ركبتيها، تخفى الجزء المكشوف من المرتبة. وتعصر فوق طشت، فوطة ينقط منها ماء احمر اللون. وعلى اليمين، كانت تتربع امرأة عربية سافرة، تمسك بيديها ، فى وضع من يقدم قربانا، حوضا آخر مطليا بالمينا المقشرة بعض الشئ حيث كانت تدخن مياه ساخنة. كانت المرأتان تجلسان عند طرفى ملاءة مثنية تمر تحت المريضة. كانت الظلال ونيران المدفأة تصعد وتهبط على الجدران المطلية بالجير، وعلى الحقائب والأمتعة التى تزدحم بها الغرفة، وعن كثب أكثر، كانت تضفى لونا محمرا على وجهى السيدتين وعلى جسم المريضة الغارق تحت الأغطية.

عندما دخل الرجلان، نظرت إليهما المرأة العربية سريعا بضحكة صغيرة ثم استدارت نحو النار، وذراعاها السمراوان النحيلان لاتزالان تحملان الحوض. نظرت صاحبة المقصف اليهما وصاحت بفرحة: «لم تعد هناك حاجة إليكم يا دكتور، الأمر يتم من تلقاء نفسه». ونهضت فرأى الرجلان، قرب المريضة، شيئا

داميا غير محدد الشكل يتحرك فى سكون ويصدر عنه صوت مستمر مثل صرير أرضى يكاد يكون غير محسوس. قال الطبيب : «يقال ذلك، آمل ألا تكونا قد لمستما الحبل السرى. - لا، قالت الأخرى ضاحكة «كان يتعين أن نترك شيئا لكم». قامت وتركت مكانها للطبيب، الذى أخفى من جديد المولود عن عينى كورمرى الذى ظل واقفا عند الباب وقد خلع قبعته. جلس الطبيب القرفصاء ، وفتح حقيبته، ثم أخذ الحوض من يدى المرأة العربية، التى انسحبت على الفور خارج المجال المضئ ولاذت بالركن المظلم للمدفأة غسل الطبيب يديه، مديرا ظهره دائما إلى الباب، ثم سكب على يديه كحولا سرعان ما ملأت رائحته الغرفة. فى هذه اللحظة، رفعت المريضة رأسها ورأت زوجها. وأضاءت ابتسامة رائعة الوجه الجميل المنهك. تقدم كورمرى نحو المرتبة. «لقد وصل»، قالت له فى نفس واحد وأشارت بيدها نحو الطفل قال الطبيب: «نعم، لكن ابقى هادئة» نظرت له المرأة بتساؤل. أشار لها كورمرى، الواقف عند نهاية المرتبة، اشارة مهدئة. «ارقدى» تركت نفسها ترجع إلى الوراء. فى هذه اللحظة ضاعف المطر من قوته على السقف المصنوع من قرميد قديم. انهمك الطبيب تحت الغطاء ثم نهض وبدا كأنه يهز شيئا أمامه. وسمعت صرخة صغيرة . وقال الطبيب : « انه صبى جميل - يالها من بداية طيبة » ، قالت صاحبة المقصف، «بداية بالانتقال إلى مكان سكن جديد». ضحكت المرأة العربية فى الركن وصفقت مرتين نظر اليها كورمرى فاستدارت مرتبكة ، قال الطبيب « حسن ، والآن ، اتركونا برهة ثم نظر كورمرى إلى زوجته . لكن وجهها كان دائما مائلا إلى الوراء . فقط اليدان المرخيتان على الغطاء الخشن ، كانتا لا تزالان تذكران بالابتسامة التى ملأت منذ قليل الغرفة البائسة وبدلتها . وضع قبعته وتوجه نحو الباب . صاحت صاحبة المقصف : « ماذا ستسمونه ؟ » «لا أعرف ، لم نفكر فى ذلك » . نظر إليه وقال : « سنسميه چاك طالما أنك كنت موجودة

هنا» . انفجرت الأخرى ضاحكة وخرج كورمرى . كان العربى ينتظر تحت الكرمة ورأسه مغطى دائما بالكيس .. نظر إلى كورمرى الذى لم يقل له شيئا .

قال العربى : «خذ» ، ومد له طرف كيسه . احتمى كورمرى به . كان يشعر بكتف العربى العجوز وبرائحة الدخان التى تنبعث من ملابسه والمطر الذى يسقط على الكيس فوق رأسيهما .

قال دون أن ينظر إلى رفيقه : «انه صبى – الحمد لله» .

أجاب العربى : «أنت الآن كبير قوم» . كان الماء القادم من آلاف الكيلو مترات يسقط دون توقف أمامهما على رماد الفحم الحجرى ، الذي تكونت فيه برك عديدة، وعلى حقول الكروم الأبعد قليلا ، وكانت الدعامات المصنوعة من أسلاك الحديد تلمع دائما تحت القطرات . لن تبلغ المياه البحر فى الشرق ، وسوف تغرق الآن كل البلاد ، أراضى المستنقعات قرب النهر والجبال المحيطة ، والأراضى الشاسعة شبه الخالية والتى كانت رائحتها القوية ترتد حتى الرجلين الملتصقين تحت كيس واحد ، بينما كانت صرخة ضعيفة تعاود على فترات وراءهما .

وفى وقت متأخر من الليل ، كان كورمرى ممددا فى سروال طويل وحبيكة ، على مرتبة ثانية بجوار زوجته ، ينظر إلى اللهب يتراقص على السقف . أصبحت الغرفة الآن مرتبة تقريبا . وعلى الجانب الآخر لزوجته ، فى سلة غسيل ، كان يرقد الطفل دون أن يطلق صوتا ، عدا قرقرة ضعيفة فى بعض الأحيان . كانت زوجته تغرق فى النوم ، وتوليه وجهها ، وفمها مفتوح قليلا . كان المطر قد توقف . فى الغد ، يتعين بدء العمل . كانت يد زوجته ، إلى جانبه ، يداً عملت كثيرا ، متخشبة تقريبا ، تحدثه أيضا عن هذا العمل . مد يده ووضعها بهدوء على يد المريضة ، ومال إلى الخلف ، وأغمض عينيه .

- ٢ -

سان - بريوك

بعد ذلك بأربعين عاما ، وقف رجل فى ممر قطار سان - بريوك ينظر أمامه بعدم رضا إلى هذا البلد الضيق المسطح والمغطى بقرى ومنازل قبيحة ، الممتد من باريس إلى المانش ، يمر تحت شمس باهتة لأحد عصارى يوم من أيام الربيع . كانت تتابع أمامه مروج الحقول لأرض زرعت وحرثت منذ قرون حتى آخر متر مربع . برأس عارية ، وشعر حليق ، ووجه طويل وقسمات رقيقة ، ونظرة زرقاء مستقيمة ، بدا الرجل ذو القامة الطويلة ، بالرغم من سنواته الأربعين ، نحيفا فى معطفه الواقى من المطر . كان مظهره يوحى باليسر والنشاط والعزم ، بصدره المشدود ويديه الممسكتين بقوة بعمود الارتكاز ، بينما يتكئ الجسم على ورك واحد. كان القطار يهدئ من سرعته فى هذه اللحظة وانتهى بالتوقف فى محطة صغيرة بائسة . وبعد برهة ، مرت سيدة شابة أنيقة تحت الباب الذى كان يقف عنده الرجل . توقفت لتنقل حقيبتها من يد إلى الأخرى ، وفى تلك اللحظة لمحت المسافة. نظر إليها مبتسما ، ولم تستطع منع نفسها من الابتسام . انزل الرجل الزجاج ، لكن القطار كان قد تحرك مرة أخرى . قال : «خسارة» . كانت السيدة لا تزال تبتسم له .

ذهب المسافر ليجلس فى مقصورة الدرجة الثالثة حيث كان يشغل مكانا قريبا من النافذة . كان يجلس أمامه رجل أصلع قليل الشعيرات الملتصقة ، سنه أقل

مما يوحى به وجهه المنتفخ والمصاب بعدة وردية ، متكوم على نفسه ، عيناه مغمضتان ويتنفس بصعوبة ، يعانى بوضوح من صعوبة فى الهضم ، وتنساب منه من وقت لآخر نظرات سريعة نحو الجالس قبالته . على المقعد نفسه ، قرب الممر ، كانت تجلس فلاحة ترتدى ثياب يوم الأحد ، وقبعة غريبة مزينة بعنقود عنب من الشمع ، وتمخط طفلا شعره أحمر ووجهه باهت وماسخ . تلاشت ابتسامة المسافر. أخرج مجلة من جيبه وقرأ بذهن شارد مقالا جعله يتثاء ب .

وبعد قليل ، توقف القطار وببطء ظهرت لافتة صغيرة مكتوبا عليها «سان - بريوك» لترتسم فى الباب . وقف المسافر على الفور ورفع بدون جهد حقيبة منفاخ من رف الحقائب فوقه ، وبعد أن حيا رفاقه فى السفر الذين ردوا عليه التحية باندهاش ، خرج بخطوة سريعة ونزل بسرعة درجات العربة الثلاث . وعلى رصيف المحطة ، نظر إلى يده اليسرى التى اتسخت بالسناج المترسب على الدرابزين النحاسى الذى تركه لتوه ، وأخرج منديلا ومسح يده بعناية . ثم أخذ اتجاه الخروج، ولحقت به تدريجيا مجموعة من المسافرين يرتدى أفرادها ملابس قاتمة وسحنهم غائمة . انتظر بصبر تحت الافريز ذى الأعمدة الصغيرة لحظة أن يعطى تذكرته ، وأنتظر أن يعيدها له الموظف الصموت ، اجتاز قاعة انتظار جدرانها عارية وقذرة ، مزينة فقط بلافتات قديمة حيث تلونت الكوت دازور ذاتها بدرجات من السناج ، وبخطوة نشيطة فى ضوء العصر المائل قطع الشارع النازل من المحطة نحو المدينة .

وفى الفندق ، سأل عن الغرفة التى حجزها ، ورفض خدمات الوصيفة التى يشبه وجهها حبة بطاطس كانت تريد حمل حقيبته ، لكنه أعطاها ، بعد أن قادته إلى حجرته ، بقشيشا أدهشها وجلب بعض البهجة إلى وجهها . ثم غسل يديه مرة أخرى ونزل بالخطوة النشيطة نفسها دون أن يغلق بابه بالمفتاح . وفى البهو

قابل الوصيفة وسألها أين تقع المقابر ، وحصل على فيض من الشرح والتوضيح ، استمع إليه بود ، ثم توجه إلى الجهة المشار إليها . واجتاز شوارع ضيقة وحزينة تحف بها منازل عادية ذات قرميد أحمر قبيح . وكانت المنازل القديمة ذات العوارض الظاهرة تبدى أحيانا اردوازها بشكل مائل . ولم يكن المارة النادرون يتوقفون حتى أمام واجهات العرض التى تقدم بضائع من الزجاج ، وروائع البلاستيك والنايلون ، والخزفيات الشهيرة التى توجد فى كل مدن الغرب الحديث . كانت حوانيت الأغذية هى الوحيدة التى تظهر وفرة ورخاء . وكانت تحيط بالمقابر جدران عالية متجهمة ومنفرة . وبجوار الباب ، فرشات زهور فقيرة وحوانيت لبيع الرخام . وأمام أحد هذه الحوانيت ، توقف المسافر لينظر إلى طفل تبدو على سيماه اليقظة . كان يكتب واجباته المدرسية فى ركن على شاهد قبر لم يسجل عليه شئ بعد . ثم دخل واتجه إلى منزل الحارس . لم يكن الحارس هناك . انتظر المسافر فى المكتب الصغير ذى الأثاث الفقير ، ثم لمح خريطة ، كان منهمكا فى حل رموزها عندما دخل الحارس . كان رجلا طويلا أعجر له أنف كبير وتفوح رائحة العرق من تحت سترته الغليظة المرتفعة .

سأل المسافر عن مربع موتى حرب ١٩١٤ .

قال الآخر :

«نعم ، انه يسمى مربع الذكرى الفرنسية . ما الاسم الذى تبحثون عنه ؟ .
أجاب المسافر : هنرى كورمرى» .

فتح الحارس كتابا كبيرا مغطى بورق تغليف وتتبع بأصبعه المترب قائمة اسماء . توقف اصبعه وقال : «كورمرى هنرى مصاب بجرح قاتل فى معركة المارن، توفى فى سان - بريوك يوم ١١ أكتوبر ١٩١٤ - قال المسافر: «هو ذاك» . أغلق الحارس الكتاب . وقال : «تعال» . وتقدمه نحو الصفوف الأولى من المقابر ،

بعضها متواضع والبعض الآخر متكلف وقبيح ، وكلها مغطاة بهذا الخليط من الرخام والخرز الذى يشوه ويشين أى مكان فى العالم . سأل الحارس بشكل شارد : «هل هو قريب لك ؟» – انه أبى – إنه لشئ قاس ، قال الآخر . – لا . عندما توفى لم أكن قد أكملت عامى الأول . وبالتالى ، أنت تفهم . – رد الحارس : «نعم»، ولكن ذلك لا يمنع أنه قد سقط الكثير من الموتى» . لم يجب چاك كورمرى بشئ . بالطبع كان هناك عدد كبير جدا من الموتى ، ولكن بالنسبة لأبيه ، كان لا يستطيع أن يختلق لنفسه برا بوالده لا يتوفر لديه . منذ سنوات طويلة وهو يقيم فى فرنسا ، واعتزم أن يقوم بما طلبته منه أمه ، التى ظلت فى الجزائر، ما طلبته منه منذ وقت طويل : أن يذهب لرؤية قبر أبيه الذى لم تره هى قط . وكان يجد أن هذه الزيارة لا معنى لها إطلاقا . أولا بالنسبة له ، لأنه لم يعرف أباه أبدا ، ويجهل تقريبا كل شئ عنه ، بالاضافة إلى أنه يكره تماما التصرفات والسلوكيات التقليدية ، ثم بالنسبة لأمه التى لم تكن تتكلم قط عن المتوفى ، ولا تستطيع تخيل شئ مما كان سيراه . ولكن طالما أن مدرسه السابق قد اعتزل فى سان – بريوك وبذلك يجد الفرصة لرؤيته ، فلقد قرر زيارة هذا الميت المجهول ، بل حرص على القيام بهذه الزيارة قبل أن يذهب للقاء صديقه القديم لكى يشعر بعد ذلك بأنه حر تماما .

قال الحارس : «إنه هنا» . كانا قد وصلا أمام مربع محاط بعدد من النصب الصغيرة من الحجر الرمادى متجمعة بواسطة سلسلة غليظة مطلية باللون الأسود. بدت الأحجار متشابهة ، مستطيلات بسيطة منحوتة وموضوعة على مسافات منتظمة فى صفوف متتالية . مزدانة بباقات صغيرة من الورود الندية . «إنها الذكرى الفرنسية التى تتولى العناية بهذه المقابر منذ أربعين عاما ، إنه هنا». وأشار إلى حجر فى الصف الأول . توقف چاك كورمرى على مسافة قصيرة

من الحجر . هنا قال له الحارس : «سأتركك» . اقترب كورمرى من الحجر ونظر إليه بشرود . نعم ، انه اسمه . ورفع عينيه . فى السماء الأكثر شحوبا ، مرت ببطء سحب صغيرة بيضاء ورمادية ، وسقط واحتجب على التوالى نور خفيف من السماء . وساد السكون من حوله فى حقل الموتى الفسيح . كان ضجيج مكتوم يأتى فقط من المدينة من فوق الجدران العالية . وكان يمر ، أحيانا ، شبح أسود بين المقابر البعيدة . وبينما كان چاك كورمرى يحاول ، وهو ينظر إلى حركة السحب البطيئة فى السماء ، أن يلتقط وراء رائحة الزهور المبللة ، الأريج الملحى القادم فى هذه اللحظة من البحر البعيد الساكن ، أخرجه من شروده رنين اصطدام دلو برخام أحد القبور . وفى هذه اللحظة قرأ على القبر تاريخ ميلاد أبيه الذى اكتشف بهذه المناسبة انه كان يجهله . ثم قرأ التاريخين «١٨٨٥ – ١٩١٤» وأجرى بشكل عفوى عملية حسابية : ٢٩ عاما . وفجأة أذهلته فكرة هزته حتى فى جسمه . إن عمره أربعون عاما . والرجل المدفون تحت شاهد هذا القبر ، والذى كان أباه ، كان أصغر منه .

لم يكن سيل الحنو والشفقة الذى ملأ قلبه فجأة هو الشعور الذي يكنه الابن لذكرى الأب الغائب ، لكنه الحنو المضطرب الذى يستشعره رجل ناضج أمام طفل قتل ظلما – شئ هنا كان فى غير ترتيبه الطبيعى ، والحق يقال : لم يكن هناك نظام أو ترتيب إنما جنون وفوضى فقط حيث يكون الابن أكبر عمرا من الأب . كان تتابع الزمن ذاته يتحطم من حوله وهو يقف ساكنا ، بين هذه المقابر التى لم يعد يراها ، وكفت السنون عن الانتظام تبعا لهذا النهر الكبير الذى يجرى نحو نهايته . لم تعد السنوات سوى انقصاف وارتداد الأمواج ودوامات يتخبط فيها چاك كورمرى الآن فى صراع مع القلق والشفقة . ونظر فى لوحات المربع الأخرى وعرف من التواريخ أن هذا الثرى مبذور بأطفال كانوا آباء لرجال شاب شعرهم

ويظنون أنهم يعيشون فى هذه اللحظة . فقد أحس أنه على قيد الحياة ، انه عصاى ، يعرف قوته ، وطاقته ، ويمسك بزمام أمره . ولكن فى الدوامة الغريبة التى هو فيها فى هذه اللحظة ، فان هذا التمثال الذى ينتهى كل رجل باقامته وتقسيته فى نار السنين لكى يصب نفسه فيه وينتظر التفتت النهائى ، هذا التمثال تشقق سريعا وانهار بالفعل . لم يتبق منه سوى هذا القلب الذى ينهشه القلق ، النهم للحياة ، المتمرد ضد النظام الفانى للعالم الذى صاحبه طوال أربعين عاما ، والذى صارع دائما وبنفس القوة ضد الجدار الذى يفصله عن سر كل حياة ، راغبا فى الذهاب أبعد ، دائما أبعد ، وفى أن يعرف قبل أن يموت ، أن يعرف أخيرا لكى يوجد ، لمرة واحدة ، لثانية واحدة ، ولكن للأبد .

استرجع حياته المجنونة ، الشجاعة ، والجبانة ، والعنيدة ، والمشدودة دائما إلى هذا الهدف الذى كان يجهل كل شئ عنه ، وفى الحقيقة ، لقد مرت حياته كاملة دون أن يحاول تخيل ما كان يمكن أن يكون عليه الرجل الذى أعطاه هذه الحياة لكى يذهب ليموت بعد ذلك مباشرة فى أرض مجهولة من الجانب الآخر للبحار . ألم يكن هو نفسه ، وهو فى التاسعة والعشرين هشا ، ومتألما ، ومتوترا ، وعنيدا ، وحسيا ، وحالما ، ووقحا وشجاعا . نعم كان كل ذلك وأشياء أخرى كثيرة ، كان حيا ، ورجلا فى نهاية الأمر ، ومع ذلك لم يفكر قط فى الرجل الراقد هنا على أنه كائن حى ، إنما على أنه شخص مجهول مر فيما مضى على الأرض التى ولد هو فيها ، والذي كانت أمه تقول عنه أنه يشبهه وانه مات فى ساحة الشرف . غير أن ما حاول معرفته بنهم من خلال الكتب والمخلوقات ، بدا له الآن أن هذا السر مرتبط ارتباطا وثيقا بهذا الميت ، بهذا الأب الذى يصغره، وبما كان عليه وما أصبح فيه ، وأنه نفسه بحث بعيدا جدا عمن كان قريبا منه فى الزمن والدم . الحق يقال ، لم يساعده أحد . ففى أسرة الحديث

فيها قليل ، ولا يوجد بها من يقرأ أو يكتب ، وأم تعيسة شاردة الذهن ، من يمكنه أن يقدم له معلومات عن هذا الأب الشاب الذى يدعو للرثاء ؟ .

لم يعرفه أحد سوى أمه التى نسيته . لقد كان متأكدا من ذلك . مات مجهولا على هذه الأرض التى مر عليها مرورا سريعا ، كمجهول أيضا ، كان عليه هو بدون شك أن يستعلم وأن يسأل . ولكن من كان مثله ، لا يملك شيئا ويريد العالم كله ، لم تكن كل طاقته لبناء نفسه وغزو العالم أو فهمه . على كل حال ، لم يفت الوقت بعد ، فمازال يستطيع البحث ، ومعرفة من يكون هذا الرجل الذى بدا له الآن أقرب من أى كائن فى العالم . كان يستطيع ..

قارب العصر على الانتهاء الآن . أعاده حفيف جونلة على مقربة منه وشبح أسود إلي منظر المقابر والسماء الذى يحيط به . كان عليه أن يرحل فلم يعد لديه ما يفعله هنا . غير أنه لم يستطع أن يفصل نفسه عن هذا الاسم وهذه التواريخ . لم يعد تحت هذا الشاهد سوى رماد وتراب . ولكن بالنسبة له فقد عاد أبوه إلى الحياة من جديد ، حياة صموتة غريبة ، وكان يبدو له أنه سيتخلى عنه من جديد ، سيتركه يتابع هذه الليلة أيضا الوحدة التى لا نهاية لها التى ألقوه فيها ثم تخلوا عنه . ودوت السماء الخالية بصوت انفجار فجائى وقوى . طائرة غير مرئية تجاوزت حاجز الصوت . ومديرا ظهره للقبر ، ترك چاك كورمرى أباه .

- ٣ -

سان - بريوك ومالان

فى المساء ، وفى العشاء ، راح چاك يراقب صديقه وهو يأكل بنوع من النهم القلق شريحته الثانية من فخذة الخروف ، وكانت الريح التى هبت تزمجر بلطف حول البيت الصغير المنخفض فى إحدى الضواحى القريبة من طريق الشواطئ . كان چاك قد لاحظ عند وصوله قطعا من الطحالب المجففة فى الجدول الجاف عند حافة الرصيف ، وكانت هذه الطحالب مع رائحة الملح هما فقط ما يذكران بقرب البحر . فيكتور الذى أمضى كل حياته العملية فى إدارة الجمارك ، يقضى حياته بعد التقاعد فى هذه المدينة الصغيرة ، التى لم يخترها ، ولكنه يبرر هذا الاختيار بعد ذلك ، قائلا أن لاشئ يلهيه عن التأمل المنعزل ، لا افراط فى الجمال ، ولا إفراط فى القبح ، ولا حتى الوحدة ذاتها . لقد علمته إدارة الأشياء وتوجيه البشر الكثير ، ولكن أولا ، على ما يبدو ، أننا لا نعلم سوى القليل . بالرغم من أن ثقافته عظيمة، وكان چاك معجبا به بدون تحفظ ، لأن مالان كان الشخص الوحيد الذى لديه أفكار ذاتية أصيلة ، في الحدود التى تسمح بامتلاك مثل هذه الأفكار ، فى زمن كان الرجال المتفوقون والراقيون تافهين ومتبذلين .

وفى جميع الأحوال ، وتحت مظاهر زائفة للتساهل والتسامح ، كان يمتلك قدرا من الحرية للحكم على الأشياء ما يتطابق مع أكثر أنواع التفرد جموحا .

قـال مـالان : «هكذا إذن ، يا بنى . طـالما إنك ذاهـب لرؤيـة أمـك ، حـاول أن تعرف شـيئا عن أبيك ، ولتعد بسـرعة كى تروى لى النتيجة ، إن فرص الضحك نادرة .

– نعم ، إنه لأمر مضحك . لكن طالما استبد بى حب الاستطلاع هذا ، استطيع على الأقل أن أحاول جمع بعض المعلومات الاضافية . كونى لم أهتم بذلك قط من قبل ، قد يكون الأمر مرضيا بعض الشئ .

– لكن لا ، إنها الحكمة هنا . أنا تزوجت مارت لمدة ثلاثين عاما . كانت امرأة كاملة ولازلت اشتاق إليها حتى اليوم . اعتقدت دائما أنها تحب بيتها . (*)

ثم قال وهو يغض نظره ، انك على حق ، بدون شك . وانتظر كورمرى الاعتراض الذى كان يعرف انه لابد أن يلى الموافقة .

واستطرد مالان قائلا : «غير أننى كنت سأتجنب محاولة معرفة أكثر مما علمتنى إياه الحياة ، وسأكون مخطئا بالطبع . لكننى مثال سيئ فى هذا الصدد ، أليس كذلك ؟ اجمالا ، وبسبب عيوبى بالتأكيد لم أكن لاتخذ أية مبادرة . أما أنت (وأضاءت عينه بلمحة مكر) فأنت رجل فعل» .

بدا مالان كرجل صينى ، برأسه المستدير ، وأنفه الأفطس ، وحواجبه الغائبة أو تكاد ، وقبعته وشاربه الكثيف ، وإن كان غير كاف لتغطية فمه السميك الشهوانى . وجسمه ذاته ، البدين الطرى ، ويده السمينة وأصابعه المضغوطة بعض الشئ توحي بموظف كبير من موظفى الامبراطورية الصينية ، عدو للسير على الأقدام . وعندما يغمض عينيه نصف اغماضة وهو يأكل بشهية ، كان لا مناص من تخيله فى ثوب حريرى ممسكا بين اصابعه بالعصيان المستخدمة فى

(*) هذه الفقرات الثلاثة مشطوبة فى الأصل

الأكل . لكن النظرة كانت تغير كل شئ . فالعينان المحمومتان ذات اللون البنى الغامق ، القلقتان أو الثابتتان فجأة ، كما لو كان الذكاء يعمل سريعا على نقطة محددة ، كانت عيون رجل غربى يتميز بحساسية عالية وبثقافة واسعة .

أحضرت الخادمة العجوز الجبن التى كان مالان ينظر إليها بطرف عينه باشتهاء . وقال : «لقد عرفت رجلا ، بعد أن عاش مع زوجته ثلاثين عاما ..» انصت كورمرى باهتمام ، ففى كل مرة كان مالان يبدأ حديثه بأن يقول : «لقد عرفت رجلا ... أو صديقا .. أو انجليزيا كان يسافر معى .. » كان الأمر يتعلق به يقينا .. وكان هذا الرجل لايحب الحلوى وزوجته أيضا لم تكن تأكلها قط . وبعد عشرين عاما من الحياة المشتركة ، باغت زوجته فى محل للحلوى ، وأدرك وهو يراقبها انها كانت تذهب عدة مرات أسبوعيا لكى تتخم بحلوى «الأكلير» بالقهوة . نعم ، كان يعتقد انها لاتحب الحلوى ، والحقيقة انها كانت مغرمة «بالأكلير» بالقهوة .

أجاب كورمرى :

– إذن ، نحن لا نعرف أحدا قط حق المعرفة .

– كما تشاء لكن يبدو لى انه قد يكون أصح ، على أية حال اعتقد اننى أفضل أن أقول ، أعرف عجزى عن تأكيد أى شيء ، نعم يكفى القول انه إذا كانت عشرون عاما من الحياة المشتركة لاتكفى لمعرفة شخص ، فان بحثا – سطحيا بالضرورة – بعد وفاة رجل بأربعين عاما ، قد لايعطيك سوى معلومات محدودة المغزى ، نعم يمكن أن يقال محدودة ، عن هذا الرجل . وإن كان ،فى إتجاه آخر...» .

ورفع يدا قدرية مسلحة بسكين وأنزلها على جبن الماعز .

«معذرة . ألا تريد جبنا ؟ لا ؟ دائما زاهد . ما أصعب الحصول على الاعجاب!» .

وتسلل مرة أخرى ضوء ماكر بين جفونه نصف المغلقة .إن كورمرى يعرف صديقه منذ عشرين عاما ويتقبل سخريته عن طيب خاطر .

«ليس من أجل إثارة الإعجاب . إن الإفراط فى الطعام يزيد وزنى . ويجعلنى أغرق» .

– «نعم ، وعندئذ لن تحلق فوق الآخرين» .

نظر كورمرى إلى قطع الأثاث الروستيك الجميلة التى كانت تملأ غرفة الطعام المنخفضة ، ذات الكمرات والروافد المطلية بالجير .

وقال : «صديقى العزيز ، لقد اعتقدت دائما اننى متكبر ومتعجرف . واننى لكذلك ، ولكن ليس دائما ولا مع كل الناس . معك ، مثلا ، أنا عاجز عن أى غطرسة وخيلاء» .

غض مالان النظر ، وهو ما يعتبر عنده علامة تأثر .

أجاب :

«أعرف ذلك ، ولكن لماذا ؟» .

قال كورمرى بهدوء :

«لأننى أحبك» .

جذب مالان إليه طبق الفاكهة المبردة ولم يرد .

واستطرد كورمرى قائلا : «لاننى عندما كنت صغير السن وأبله جدا ووحيدا جدا ، التفت إلىّ وفتحت لى أبواب كل ما أحبه فى هذا العالم .

– أوه ! أنت موهوب .

– بالطبع . ولكن بالنسبة لأكثر الناس موهبة لابد من موجه ومعلم . هو الذى

تضعه الحياة ذات يوم على طريقك ، هذا الشخص يجب أن يحظى دائما بالحب والاحترام ، حتى وإن كان غير مسئول . هذا ما أومن به ! .

– نعم ، نعم ، أجاب مالان بنغمة ذلقة .

– إنك تشك فيما أقول ، أعرف ذلك ، لكن لا تعتقد أن حبى لك أعمى . فان لك عيوبا كبيرة ، بل كبيرة جدا ، على الأقل فى نظرى».

لعق مالان شفتيه الغليظتين وبدا فجأة مهتما .

– «ماهى هذه العيوب» ؟ .

– مثلا أنت باختصار لست بخيلا ولكنك تخاف العوز ، إلخ . إلا ان ذلك لايمنع من أنه عيب كبير وانني لا أحبه بشكل عام . لكن لاتستطيع أن تمنع نفسك من الارتياب فى أن الآخرين لديهم قصد خفى . كما لاتستطيع ، غريزياً ، تصديق المشاعر النزيهة تماما وغير المغرضة .

قال مالان وهو ينتهى من شرب نبيذه – أعترف ، كان يجب ألا آخذ قهوة . ولكن ...» .

إلا أن كورمرى لم يفقد هدوءه .

«أنا واثق أنك لن تستطيع تصديقى إذا قلت لك إننى سوف أسلمك فورا كل ما أملك ، بمجرد طلب منك» .

تردد مالان ونظر إلى صديقه هذه المرة :

– «أوه ، أعرف . أنت كريم وسخى» .

– لا ، لست كريما . أنا بخيل بوقتى ، وبمجهوداتى ، وتعبى وذلك يجعلنى أشعر بالاشمئزاز . لكن ما أقوله حقيقى . أنك لا تصدقنى ، إن ذلك عيبك وعجزك لا الحقيقى ، بالرغم من أنك رجل متفوق وراق. لانك مخطىء . فبكلمة منك ، وفى

التو ، كل ما أملك هو لك . أنت لست فى حاجة إليه وليس ذلك سوى مثال . ولكنه ليس مثالا اختير أعتباطا . فحقيقة كل ما أملك هو لك .

أجاب مالان وعيناه نصف مغمضتين : شكرا . حقيقة إننى متأثر جدا .

– حسنا ، إننى أضايقك . أنت لا تحب الحديث شديد الوضوح . كنت أريد فقط أن أخبرك إننى أحبك بكل عيوبك . إننى أحب وأحترم القليل من الكائنات . بالنسبة لكل الباقين . فاننى أشعر بالخزى من عدم مبالاتى . أما من أحبهم ، فلا شىء أبداً يمكن أن يجعلنى أكف عن حبهم ولا حتى أنا نفسى ، ولا هم أنفسهم بالذات . هذه أشياء استغرق منى تعلمها وقتا طويلا ، والآن أنا أعلم ذلك جيدا . بعد أن أوضحت هذه النقطة فلنكمل حديثنا : أنت لا توافق أن أحاول الاستعلام عن أبى .

– بلى أوافقك ، كنت أخشى أن تصاب بخيبة أمل ، كان لى صديق ارتبط بشدة بفتاة، وكان يريد أن يتزوجها لكنه ارتكب خطأ عندما حاول جمع معلومات عنها .

قال كورمرى : .

– شخص برجوازى .

علق مالان :

– نعم ، هذا الشخص هو أنا .

وانفجرا فى الضحك .

«كنت شابا . وجمعت آراء متناقضة لدرجة أن رأيى تشوش . وتشككت فى إننى أحبها أو لا أحبها . باختصار تزوجت من أخرى .

– لا أستطيع أن أجد لنفسى أبا آخر .

– لا . لحسن الحظ . واحد يكفى ، إذا صدقت تجربتى .

أجاب كورمرى :

– حسناً . فضلا عن ذلك ، يجب أن أذهب لرؤية أمى خلال بضعة أسابيع . إنها فرصة . لقد حدثتك عن ذلك لأن الأمر ارتبك علىّ منذ قليل بسبب هذا الفرق فى السن لصالحى .

نعم، لصالحى .

– نعم ،أدرك ذلك .

نظر إلى مالان :

«لتقل لنفسك إنه لم يشخ . لقد رحم من هذا العذاب ، وهو طويل» – مع عدد لا بأس به من المباهج .

– نعم ، أنت تحب الحياة وهذا أمر طبيعى، فأنت لاتؤمن إلا بها » .

جلس مالان بتثاقل على مقعد وثير ، مسانده وظهره منجدة ، مغطى بقماش كريتون ، وفجأة غيرت لمحة حزن يصعب وصفه تعبير وجهه .

«أنت على حق ، لقد أحببت الحياة ، وأحبها بنهم . وفى الوقت نفسه تبدو لى شنيعة وصعبة الإدراك، لذلك فإننى أؤمن بها نتيجة تشككى . نعم ، أريد أن أؤمن، أريد أن أعيش ، دائما » .

وصمت كورمرى .

«عندما يصل الإنسان إلى سن الخامسة والستين فان كل عام يمر هو بمثابة إيقاف تنفيذ . أتمنى أن أموت قرير العين والموت مخيف . لم أفعل شيئاً .

– هناك أشخاص يبررون العالم ، إنهم يساعدون – بمجرد وجودهم – على الحياة .

– نعم ، ويموتون .

أثناء صمتهما ، عصفت الريح بشدة أكثر قليلا حول البيت .

قال مالان : «أنت على حق يا چاك . تحرر عن والدك . انك لم تعد فى حاجة إلى أب . لقد ربيت نفسك بنفسك . والآن ، يمكنك أن تحبه كما تعرف أن تحب لكن ..» . وتردد .. ثم أضاف : «ارجع لتراني . لم يتبق لى وقت طويل . ولتسامحنى ...

– أسامحك ؟ أجاب كورمرى . إننى مدين لك بكل شىء .

– لا ، لست مدينا لى بالشىء الكثير . سامحنى فقط لعدم معرفى كيف أستجيب لمودتك وحنانك ..» .

ونظر مالان إلى المصباح الكبير ذى الطراز القديم الذى فوق المائدة ، وصار صوته أكثر انخفاضا وعمقا ليقول ، ما ظل كورمرى يسمعه يتردد داخله دون توقف ، بعد ذلك بلحظات ، وحيدا فى الريح والضاحية الخالية من البشر :

«إن بداخلى فراغاً بشعاً، لامبالاة تؤلمنى(*) ..» .

(*) چاك / لقد حاولت أن أجد بنفسى ، منذ البداية ، منذ أن كنت طفلا ، ما هو خير وماهو شر – طالما لم يكن هناك حولى من يستطيع أن يقوله لى . والآن أعترف أن كل شىء يتخلى عنى ، وأننى فى أشد الحاجة لمن يدلنى على الطريق ويوبخنى ويمدحنى ، ليس طبقا للقوة ولكن طبقا للسلطة ، أحتاج إلى أبى . كنت أعتقد إننى أعرف كيف أتحمل مسئوليتى لكننى لم أعرف بعد.

– ٤ –

ألعاب الطفل

دفع تموج خفيف وقصير المركب فى حرارة يوليو . وكان چاك كورمرى ينظر ، وهو ممدد نصف عار ، إلى إنعكاسات الشمس المتكسرة على البحر علي الحواف النحاسية لنافذة الكابينة . قفز قائما ليفصل المروحة التى تجفف العرق مسامه قبل أن يبدأ فى السيلان على جذعه ، إن العرق أفضل ، وعاد إلى فراشه الخشن الضيق هكذا يجب أن تكون الأسرة . وسرعان ، ما صعد من أعماق المركب صوت الآلات الخفى فى شكل ذبذبات مخمدة وكأنه جيش ضخم لايتوقف عن السير . انه يحب هذا الصوت الذى يميز بواخر الركاب الكبيرة ، نهارا وليلا ، والاحساس بالسير على بركان ، بينما البحر الشاسع يعرض للرؤية امتداده الحر من كل جهة . لكن الجو كان حارا جدا على سطح الباخرة ، بعد طعام الغذاء ، أصاب الركاب الخمول فألقوا بأنفسهم على مقاعد الجزء المغطى من سطح السفينة أو هربوا فى ساعة القيلولة إلى الممرات بين الغرف . كان چاك لا يحب نوم القيلولة، وتذكر جدته فى حقد عندما كان طفلا فى الجزائر العاصمة حين كانت تجبره على مرافقتها فى نوم القيلولة . كانت الحجرات الثلاث للشقة الواقعة فى إحدى ضواحى العاصمة الجزائرية غارقة فى الظل المخطط للشيش المغلق بأحكام. فى الخارج تكوى الحرارة الشوارع الجافة المتربة ، وفى ظل الحجرات ، كانت ذبابة أو ذبابتان تحدثان أزيز طائرة وهما تحاولان ، بلا كلل ، العثور على

مخرج . كان الجو شديد الحرارة لايسمح بالنزول إلى الشارع واللحاق بالرفاق الذين أجبروا على المكوث فى بيوتهم . كما كان الجو شديد الحرارة للقراءة . وعندما لا تكون الجدة هناك ، وهو استثناء ، أو تثرثر مع الجارة ، كان الطفل يضع أنفه على شيش نافذة قاعة الطعام المطلة على الشارع . وسط الشارع خال من المارة . وأنزلت محلات الأحذية والخردوات المواجهة للمنزل تنداتها المصنوعة من قماش أحمر وأصفر ، وأخفت ستارة من الخرز الملون مدخل مكتب التبغ ، وفى المقهى ، كانت القاعة خالية ، فيما عدا القط الذى كان ينام وكأنه ميت، على الحد الفاصل بين الأرضية المغطاة بالنشارة والرصيف المترب .

عندئذ كان الطفل يرتد إلى الغرفة شبه العارية ، المطلية بالجير، والتى لا تضم سوى مائدة مربعة فى منتصفها ، وعلى امتداد يوجد صوان السفرة ومكتب صغير تغطيه الندوب وبقع الحبر ، وعلى الأرضية ، مرتبة صغيرة عليها غطاء حيث ينام الخال نصف الأصم ، عندما يحل المساء ، وخمسة مقاعد . وفى أحد الأركان ، وعلى مدفأة يتكون أعلاها فقط من الرخام ، يوجد إناء زهر صغير ذو عنق ممشوق تزينه ورود ، وهى آنية منتشرة فى الأسواق . يظل الطفل ، المحصور بين صحراء الظل وصحراء الشمس ، يدور حول المائدة دون توقف ، بالخطوة المتعجلة نفسها ، كررا : «أنا زهقان ! أنا زهقان !» وكأنها تسبيح أو صلاة . كان يشعر بالضجر ، ولكن فى الوقت نفسه كان هناك لعب ، وفرحة ، ونوع من اللذة فى هذا الضجر ، لأن الغضب كان يتملكه عندما يسمع جدته ، التى عادت أخيرا، تناديه لكى ينام القيلولة . لكن إحتجاجاته كانت لاتجدى نفعا . لأن الجدة التى ربت تسعة أطفال فى ال «البلد» (*) لها أفكارها عن التربية . وكان يتم دفع الطفل مرة واحدة إلى الحجرة . وهى احدى الحجرتين المطلتين على الفناء . الحجرة

(*) مكتوبة فى الفرنسية BLED

الأخرى تضم سريرين ، أحدهما لأمه والآخر ينام فيه مع أخيه . كان من حق الجدة غرفة لها وحدها . ولكن كثيرا ما كانت تستقبل الطفل ، فى سريرها الخشبى الكبير المرتفع لليلة وكل الأيام للقيلولة . كان يخلع نعله ويرفع نفسه على السرير، وتعين عليه أن يأخذ المكان الملاصق للجدار منذ اليوم الذى ترك نفسه ينزلق إلى الأرض أثناء نوم الجدة لكى يستأنف دورانه حول المائدة مغمغماً صلاته . وعندما يستقر فى مكانه من السرير كان ينظر إلى جدته وهى تخلع ثوبها وتنزل قميصها المصنوع من تيل سميك ، مدكك من أعلى بشريط كانت تفكه عندئذ . ثم تصعد بدورها على السرير، وكان الطفل يشم إلى جواره رائحة اللحم المسن بينما ينظر إلى الأوردة الزرقاء السميكة وبقع الشيخوخة التى تشوه قدمى جدته . كانت تردد «هيا ، نام» وسرعان ما تنعس هى ، بينما يتابع الطفل وعيناه مفتوحان ، حركة الذباب التى لا تكل ذهابا وإيابا .

نعم ، لقد مقت ذلك لسنوات ، وفيما بعد أيضا ، بعد أن أصبح رجلا ، وإلى أن أصيب بمرض خطير ، كان لايستطيع أن يعمد إلى التمدد بعد الغذاء فى الأيام شديدة الحرارة . وإذا حدث ونام كان يستيقظ منحرف المزاج ويشعر ماديا بالغثيان . منذ فترة وجيزة فقط ، عندما بدأ يعانى من الأرق ، كان يستطيع النوم خلال النهار لمدة نصف ساعة يستيقظ بعدها متنبها ونشيطا .

يبدو أن الهواء هدأ ، منسحقا تحت الشمس . وفقدت السفينة تمايلها الخفيف وبدت الآن وكأنها تتقدم على طريق مستقيم ، وكانت الآلات تعمل بأقصى سرعتها، ومروحة السفينة تحفر أعماق المياه مباشرة، وأصبح صوت المكابس أخيرا منتظما لدرجة انه اختلط مع صخب الشمس المخنوق والمستمر على البحر . كان چاك نصف نائم ، قلبه منقبض بنوع من الجزع السعيد لفكرة رؤية الجزائر العاصمة مرة أخرى وبيت الضواحى الصغير الفقير .

هكذا كان حاله في كل مرة يغادر باريس متجها إلى افريقيا ، ابتهاج بهيم ، القلب ينبض ، يضحك وهو يفكر في وجه حراسه . في كل مرة كان يرجع اليها عن طريق البر أو القطار ، كان قلبه ينقبض عند رؤية أول بيوت الضواحي التي يتم الاقتراب منها فجأة ، دون حدود من الأشجار أو المياه ، وكأنها سرطان تعيس ، يعرض عقده من البؤس والقبح ويهضم تدريجيا الجسم الغريب ليقوده حتى قلب المدينة ، هناك حيث كان الديكور الرائع ينسيه أحيانا غابة الأسمنت والحديد التي كانت تسجنه نهارا وليلا وتسكن حتى ليالي أرقه . ولكنه هرب ، وها هو ذا يتنفس ، على ظهر البحر الكبير ، إنه يتنفس في موجات ، وتحت تأرجح الشمس الكبير ، يستطيع أخيرا أن ينام ويعود للطفولة التي لم يشف منها قط ، إلى هذا السر من الضوء ، ومن الفقر الدافيء ، الذي ساعده على الحياة وعلى قهر كل شيء . إن الانعكاس المتكسر على نحاس نافذة السفينة ، والذي يكاد يكون ثابتا الآن ، يأتي من الشمس نفسها التي تضغط بكل ثقلها على سطح شيش الغرفة المظلمة ، حيث كانت جدته تنام ، وكانت هذه الشمس تغرق في الظل سيفا واحدا دقيقا للغاية من خلال الثلمة الوحيدة في غطاء وصلات الشيش والناجمة عن عقدة خشب منزوعة . كان المشهد ينقصه الذباب ، فلم يكن هو الذي يطن ويسكن ويغذي إغفاءته ، لا يوجد ذباب في البحر لقد مات ذلك الذباب منذ البداية ، كان الطفل يحبه لانه يسبب الصخب ، فهو الوحيد الحي في هذا العالم المخدر بالحرارة ، كل البشر والحيوانات مضطجعون ، بلا حراك ، إلا هو ، هذا صحيح ، فقد كان يتقلب على السرير في الحيز الضيق الذي يتبقى له بين الحائط والجدة ، يريد أن يحيا هو أيضا ، ويبدو له أن وقت النوم مقتطع من الحياة ومن ألعابه . الرفاق ينتظرونه ، بكل تأكيد ، في شارع بريفو - بارادول ، الذي تحف به الحدائق الصغيرة التي تنبعث منها في المساء رائحة رطوبة الري وزهر العسل

، الذى كان ينمو فى كل مكان سواء تم ريه أم لا بمجرد أن تستيقظ الجدة ، سيسرع ، وينزل إلى شارع ليون الذى يكون خاليا فى ذلك الوقت تحت أشجار التين ، وسيجرى حتى النافورة المقامة فى ركن شارع بريڤو - بارادول ، ويدير بكل السرعة الذراع الضخم المصنوع من الحديد الزهر على قمة النافورة ، ورأسه منحنية تحت الصنبور لتتلقى دفقة الماء الكبيرة التى ستملأ أنفه وأذنيه ، وتنساب من خلال ياقة القميص المفتوحة حتى بطنه وتحت سرواله القصير وعلى امتداد ساقيه حتى نعله . وعندئذ ، سيجرى بلا توقف ، سعيدا بأن يشعر بالماء يزبد بين باطن قدميه وجلد النعل ، ليلحق ببيير(*) والآخرين ، الذين يجلسون فى مدخل ممر البيت الوحيد ذى الطابقين فى الشارع ، يشحذون السيجارة الخشبية التى ستستخدم فى الحال لمزاولة رياضة خاصة مع مضرب من الخشب الأزرق .

وبمجرد اكتمالهم ، كانوا ينطلقون ، ويمررون المضرب على السياج الصدئة للحدائق أمام المنازل ، محدثين ضوضاء ، عالية كانت توقظ الحى وتجعل القطط النائمة تحت النباتات المعرشة المتربة تنتفض . كانوا يجرون ، عابرين الشارع ، محاولين الامساك ببعضهم البعض ، يغطيهم عرق طيب ، لكن دائما فى الاتجاه نفسه ، نحو «الحقل الأخضر» ، على مقربة من مدرستهم على بعد أربعة أو خمسة شوارع من هناك . غير أنه كانت توجد محطة إجبارية ، فى ساحة كبيرة ، عند نافورة دائرية ضخمة من طابقين حيث لم تعد المياه تسيل فيها ، لكن حوضها المسدود منذ أمد طويل ، يمتلىء على فترات طويلة حتى حافته ، بأمطار البلاد الغزيرة . عندئذ كانت المياه تأسن ويغطيها زبد قديم وقشر الشمام والبرتقال وكل أنواع الفضلات ، إلى أن تمتصها الشمس أو تستيقظ البلدية وتقرر شفط المياه ،

(*) بيير ، ابن ارملة حرب ، تعمل فى هيئة البريد ، كان صديقه .

ويتبقى فى قاع الحوض ولمدة طويلة وحل جاف ، قذر ، ومجزع ، ينتظر الشمس ، لتواصل جهدها وتحول الوحل إلى تراب يلقيه الهواء أو مكانس عمال النظافة على أوراق أشجار التين اللامعة التى تحيط بالمكان . فى الصيف ، على أية حال ، يكون الحوض جافا ويعرض حافته الضخمة المصنوعة من الحجر القاتم ، اللامعة، التى أصبحت زالقة بواسطة آلاف الايدى ومؤخرات السراويل والتى كان يلعب عليها چاك وبيير والآخرون وكأنها جواد القفز ، حيث كانوا يدورون على عجيزتهم إلى أن ترميهم سقطة لا يمكن مقاومتها فى الحوض القليل العمق الذى تفوح منه رائحة البول والشمس .

ثم يطيرون ، جريا دائما ، فى الحرارة والتراب الذى كان يغطى أقدامهم ونعالهم بطبقة رمادية ، إلى الحقل الأخضر . كان نوعا من الأرض البور تقع وراء ورشة براميل حيث تنمو باقات من العشب المصاب بالأنيميا ، بين حلقات الحديد الصدىء وبقايا البراميل التالفة وبين صفائح الصخور الطباشيرية . وهنا ، كانوا يرسمون دائرة مطلقين صرخات مدوية . ويقف أحدهم ، داخل الدائرة ، ممسكا بالمضرب فى يده ، ويرمى الآخرون ، كل فى دوره ، السيجارة الخشبية نحو الدائرة . وإذا هبطت السيجارة فى الدائرة ، يأخذ الرامى المضرب ويدافع بدوره عن الدائرة . الأكثر مهارة كانوا يمسكون بالسيجارة فى الهواء ويقذفونها بعيداً جدا . وفى هذه الحالة ، يكون من حقهم التوجه إلى مكان سقوط السيجارة ، ويضربون بحرف المضرب على طرفها لترتفع عندئذ فى الهواء ، ويمسكون بها مرة أخرى ويرمونها إلى مسافة أبعد ، وهكذا إلى أن يخفقوا فى ضربتهم أو يمسك الآخرون بالسيجارة فى الهواء ، وعندئذ يعودون مسرعين إلى الوراء للدفاع من جديد عن الدائرة ضد السيجارة التى يرسلها العدو بسرعة ومهارة . كان تنس الفقراء هذا ، مع بعض القواعد الأكثر تعقيدا ، يشغل كل فترة بعد الظهر .

كان بيير هو الأمهر ، كان أنحف من چاك ، وأصغر حجما أيضا ، يكاد يكون هزيلا ، أشقر بقدر ما لچاك من شعر أسود ، حتى رموشه كانت شقراء والتى كانت نظرته الزرقاء المستقيمة تعرض نفسها من خلالها بدون دفاع ، نظرة مندهشة ، ومتأثرة بعض الشيء، ورغم أن هيئته تبدو مرتبكة فى الظاهر فإنه يتمتع فى حركته ببراعة متميزة ومستمرة . أما چاك فانه ينجح فى تجنب الضربات المستحيلة ويخطىء ضربات معكوسة جاهزة . وبسبب تفوقه في تجنب الضربات ونجاحاته التى تثير إعجاب رفاقه، كان يعتقد أنه الأفضل ويجعجع كثيرا . فى الحقيقة ، كان بيير يهزمه دوما ولا يتكلم عن ذلك قط . لكن ، بعد اللعب ينهض ، دون ان يفقد سنتيمترا واحدا من قامته ، ويبتسم فى صمت وهو يستمع إلى الآخرين.

وعندما لا يكون الجو ، أو المزاج ، ملائما، يجتمعون فى ممر بيت چاك ، بدلا من قطع الشوارع والأراضى البور جريا ، ومن هناك يمرون من باب خلفى ، إلى فناء صغير فى مستوى منخفض عما حوله تحيط به جدران ثلاثة منازل . وعلى الجانب الرابع ، جدار حديقة تبرز منه فروع شجرة برتقال كبيرة ، كانت عندما تزهر يرتفع عطرها على امتداد المنازل البائسة ، آتيا من الممر أو ينزل فى الفناء عبر سلم حجرى صغير، وعلى جانب ونصف الجانب الآخر ، كان هناك بناء صغير على شكل زاوية قائمة يسكن فيه الحلاق الاسبانى الذى يقع محله فى الشارع وعائلة عربية كانت ربتها تحمص البن فى الفناء فى بعض الامسيات . وعلى الجانب الثالث ، كان المستأجرون يربون دجاجا فى أقفاص خشبية كبيرة ، وعلى الجانب الرابع ، وعلى جانبى السلم، توجد أقبية البناية فاغرة أشداقا واسعة فى الظلام، كهوف بدون مخرج أو ضوء ، منحوتة فى الأرض ذاتها ، بدون أى فواصل،

تنضح رطوبة، ويتم النزول إلى هذه الأقبية بأربع درجات مغطاة برمال مخضرة ، ويكدس المستأجرون فيها فائض أمتعتهم بلا نظام، أى لاشىء تقريبا : أكياس قديمة تتلف هنا ، أجزاء من صناديق ، وأحواض صدئة مثقوبة ، باختصار ما يوجد مبعثرا فى كل الأراضى البور وما لايجد له حتى البائس استخداما . فى أحد هذه الأقبية يجتمع الاطفال . وكان من عادة چان وجوزيف، ابنى الحلاق الاسبانى ، أن يلعبا فى القبو. على أبواب كوخهما، كان هو حديقتهم الخاصة . جوزيف ، قصير وبدين وماكر ، دائم الضحك ويعطى كل ما لديه . أما جان فنحيف وصغير الحجم يجمع دون توقف أى مسمار ، وكل برغى يقابله ، ويبدو ضنينًا بوجه خاص بما لديه من بلى أو نوى المشمش الذى لا غنى عنها لأحد ألعابهم المفضلة . ولايمكن تخيل شخصين أكثر تناقضا من هذين الأخين اللذين لا يفترقان . ومع بيير وچاك وماكس ، آخر الشركاء ، كانوا يدلفون إلى القبو المبتل . وعلى دعامات من الحديد الصدىء يفردون الأكياس الممزقة بعد تخليصها من حشرات بنت وردان الرمادية ذات الدرقة المفصلية التى يسمونها خنازير الهند. وتحت هذه الخيمة البشعة ، كانوا يشعلون نيراناً صغيرة تحتضر ، نظرا لحبسها فى هذا الهواء الرطب المحصور ، مخلفة دخانا يطردهم من وكرهم إلى أن يعودوا لتغطية النيران بالتربة الرطبة، المكشوطة مباشرة من الفناء . وعندئذ يتقاسمون حلوى السكر المطبوخ المعطرة بالنعناع ، أو الفول السودانى أو الحمص المجفف والمملح، أو الترمس أو الحلوى ذات الألوان الصارخة التى يقدمها العرب عند ابواب السينما القريبة ، فى أطباق العرض المحاصرة بالذباب والتى تتكون من صندوق بسيط من الخشب مثبت على مدرجة كريات . وفى أيام المطر ، كانت أرض الفناء الرطبة المشبعة بالماء تترك فائض الأمطار ينساب إلى داخل الأقبية المغمورة بانتظام ، وعندئذ كانوا يصعدون على صناديق قديمة ، ويلعبون

«روبنسون كروزو» بعيدا عن السماء الصافية ورياح البحر، منتصرين فى مملكة البؤس التى يحكمونها.

لكن أجمل الأيام هى نهاية الربيع والصيف ، عندما يمكنهم قطع نوم القيلولة بكذبة مناسبة . فى هذه الحالة يستطيعون السير طويلا حتى يصلوا إلى حديقة التجارب، لأنه لايكون معهم أبدا نقود الترام ، ويقطعون شوارع الضاحية الصفراء والرمادية، عابرين حى الاصطبلات ، حيث المستودعات الكبيرة المملوكة للشركات أو الاشخاص الذين يؤمنون مواصلات الأراضى الداخلية بواسطة شاحنات تجرها الخيول، ومحاذين الأبواب الزلاقة الكبيرة التى يسمع من ورائها أقدام الخيول وهى تراوح، وتنفسها العنيف الذى يجعل جحفلاتها تفرقع ، وصوت السلسلة الحديدية، التى تقوم مقام الزمام ، على خشب المعلف ، بينما يستنشقون بتلذذ رائحة روث الخيول ، والقش والعرق الآتية من هذه الأماكن المحظور دخولها، والتى كان جاك يحلم بها قبل أن يخلد إلى النوم كانوا يتلكأون أمام اصطبل مفتوح حيث انشغل الجميع فى تنظيف الخيول بالفرشاة ، وهى خيول ضخمة غليظة الساقين جاءت من فرنسا وتنظر إليهم بعيون المنفيين ، منهكة من الحرارة والذباب . وبعد دفع سائقى الشاحنات لهم، يركضون نحو الحديقة التى يزرع فيها أكثر الأنواع ندرة. وفى الممر الكبير المفضى إلى البحر جادة كبيرة من الأحواض والزهور ، وتحت نظرات الحراس المرتابة ، يتخذون مظهر المتنزهين اللامبالين والمتحضرين . لكن عند أول ممر يركضون نحو الجزء الشرقى من الحديقة، عبر صفوف من شجر الشَوْرى الضخم ، المتراص لدرجة ان الظلام يكاد يكون تاما فى ظلها، ويتجهون إلى أشجار المطاط الكبيرة التى يصعب تمييز فروعها الساقطة من جذورها المتعددة التى تنزل من الفروع الأولى نحو الأرض، وأبعد

قليلا نحو الهدف الحقيقى لرحلتهم، نخيل النارجيل الكبير الذى يحمل فى قمته عناقيد الثمار الصغيرة ذات اللون البرتقالى التى يسمونها ثمار النارجيل . هنا ، كان يتعين ، اولا ، الاستطلاع فى جميع الاتجاهات للتأكد من عدم وجود أى حارس .. ثم يبدأ السعى للعثور على الذخيرة، أى الحصى . وعندما يعود الجميع وجيوبهم مليئة، يقذف كل فى دوره على العناقيد التى تتأرجح ببطء فى السماء أعلى من كل الأشجار الأخرى. ومع كل رمية تصيب هدفها، تتساقط بعض الثمار، التى تكون من حق الرامى السعيد وحده . وكان يتعين على الآخرين الانتظار حتى يجمع غنيمته قبل ان يقذفوا بدورهم . فى هذه اللعبة، كان جاك ، البارع فى الرمى ، يكافىء بيير ، ولكن كليهما كان يقتسمان غنيمتيهما مع الآخرين الأقل حظاً . وكان أقلهم براعة هو ماكس ، الذى كان نظره ضعيفا ويضع نظارات طبية وكان قصيراً ومتيناً ، لكنه كان يحظى باحترام الآخرين منذ يوم أن رأوه يتشاجر . فبينما اعتادوا ، فى مشاجرات الشارع الكثيرة التى شاركوا فيها، ان يرتموا على الغريم ليحدثوا به أكبر ألم وبأسرع ما يمكن ، خاصة جاك الذى لايستطيع السيطرة على غضبه وعنفه، مع احتمال التعرض لمقاومة شديدة، أما ماكس ، الذى يحمل اسما ذا نغمة المانية، ووصفه ذات يوم «ابن الجزار» البدين ، وكنايته «فخد خروف» ، بانه ، «المانى قذر» فقد خلع نظارته بهدوء ، واعطاها لجوزيف ، ثم وقف فى وضع استعداد كما يفعل الملاكمون الذين يراهم فى الصحف ، وطلب من الآخر ان يأتى ويكرر سبابه. ثم دون ان تبدو عليه الثورة تفادى كل هجوم لـ «فخدالخروف» وضربه عدة مرات دون ان يدعه يلمسه ، كان موفقا فى توجيه ضربة أصابت عينه بسواد، وكان ذلك بمثابة المجد الاسمى .. منذ ذلك اليوم ، ترسخت شعبية ماكس فى المجموعة

الصغيرة، والذين يسرعون خارج الحديقة نحو البحر ، وجيوبهم وأيديهم لزجة من الثمار، وبمجرد خروجهم خارج الأسوار ، مكدسين الثمار على مناديلهم القذرة ، كانوا يمضغون بتلذذ الثمرات الليفية المسكرة والدسمة لدرجة التقزز ، لكنها خفيفة ولذيذة مثل الانتصار . وبعد ذلك ، يسرعون نحو الشاطىء .

ومن أجل الوصول للشاطىء يتعين عبور درب يسمى طريق الأغنام لأن قطعان الخراف كانت تقطعه قادمة من سوق «المنزل المربع» ، شرقى الجزائر العاصمة، أو متجهة اليها. وهو فى الحقيقة طريق عرضى يفصل بين البحر وقوس الدائرة التى تكونها المدينة المقامة على تلال على شكل مدرج . وبين الطريق والبحر ، توجد مصانع متنوعة ، تفصل بينها مساحات من الرمل تغطيها صفائح من الصلصال أو تراب الجير ، حيث تتعرض بقايا الحديد والخشب لتأثير الجير . بعد اجتياز هذه الأرض البور القاحلة يتم النفاذ إلى شاطىء السابليت. الرمل على هذا الشاطىء اسود بعض الشىء ، والأمواج الأولى لم تكن دائما شفافة . وعلى اليمين ، مبنى للحمامات يؤجر كبائنه، وفى أيام العيد يؤجر قاعته للرقص ، وهى عبارة عن صندوق كبير من الخشب يستند على مجموعة أوتاد . وفى جميع أيام الموسم، كان بائع بطاطس مقلية يسعر نار فرنه . فى اغلب الأحيان، لم يكن لدى المجموعة حتى ثمن قرطاس واحد من البطاطس المقلية . وإذا كان لدى أحدهم بالصدفة الثمن اللازم، كان يشترى قرطاسه ، ويتقدم نحو الشاطىء ، يتبعه موكب رفاقه المهيب وأمام البحر ، وفى ظل قارب قديم مفكك ، يترك نفسه يسقط على إليتيه ، زارعاً قدميه فى الرمال ، ويحمل باحدى يديه قرطاسه ويغطيه بيده الأخرى حتى لا يفقد أيا من رقائق البطاطس المحمصة . فى العادة كان يعطى شريحة بطاطس مقلية لكل واحد من رفاقه، الذى كان يتنوق البطاطس الساخنة

المعطرة بالزيت التى يتركها لهم . ثم ينظرون إلى المحظوظ ، الذى يتذوق بوقار باقى البطاطس الواحدة تلو الأخرى . وفى قاع القرطاس ، تتبقى دائما فتات بطاطس . ويتوسلون للشبعان ان يتقاسم معهم هذه البقايا . فى أغلب الأحيان ، كان يفرد الورقة ، ويعرض فتات البطاطس المقلية ويسمح لكل واحد بالدور ، أن يأكل واحدة منها . كان يتعين ببساطة إجراء قرعة لتحديد من الذى سيهجم أولا ويستطيع بالتالى أن يأخذ أكبر قطعة من الفتات . وبعد انتهاء المأدبة، سرعان ما تنسى اللذة والاحباط ، ويبدأ الجرى نحو الطرف الغربى للشاطىء ، تحت الشمس القاسية ، إلى بناية نصف مهدمة يبدو انها كانت اساسا لخيمة بحرية اختفت ، ووراء هذا البناء يخلعون ملابسهم ، وفى ثوانٍ يصبحون عراة ، وفى لحظة يكونون فى المياه يسبحون بقوة، وبشكل تنقصه المهارة ، يصيحون فرحا، ويسيل لعابهم ويبصقون ويتحدون بعضهم للقيام بغطسات حول من يبقى مدة أطول تحت الماء. كان البحر منعشا دافئا ، والشمس خفيفة فوق الرؤوس المبللة، تملأ هالة الضوء الأجساد الشابة بفرحة تجعلهم يصرخون دون توقف. انهم يسيطرون على الحياة وعلى البحر ، وكل ما يستطيع العالم أن يعطيه من ابهة وبذخ، كانوا يحصلون عليه ويستخدمونه باسراف، مثل الاسياد الواثقين من ثرواتهم الفريدة.

كانوا ينسون الوقت، ويجرون من الشاطىء إلى البحر ، ويجففون اجسادهم من المياه المالحة التى كانت تجعلهم لزجين، ثم يغسلون فى البحر الرمل الذى كان يغطيهم برداء رمادى يركضون وراء طيور السمامة التى تحلق على مستوى أكثر انخفاضا فوق المصانع والشاطىء وهى تطلق صرخات سريعة . أصبحت السماء أكثر صفاء، وقد تخلصت من جو النهار الخانق ، ثم بدأت فى الاخضرار، وخف الضوء ، ومن الناحية الأخرى من الخليج ، أصبح منحنى البيوت والمدينة، الذى كان غارقا حتى الآن فى نوع من الضبابة، أكثر وضوحا . كان الوقت لايزال

نهارا، إلا ان بعض المصابيح قد أضيئت تحسبا للغروب الافريقى السريع. بشكل عام ، كان بيير هو أول من يعطى الاشارة: «الوقت تأخر» ، وعلى الفور كان التفرق والتوديع السريع . كان جاك ومعه جوزيف وجان يجرون نحو بيوتهم دون اكتراث بالآخرين . كانوا يركضون لاهثين بلا توقف فى الماء الذى يهبط بسرعة كبيرة ، مذعورين من رؤية أول مصابيح الغاز وعربات الترام المضاءة تفر من أمامهم، مسارعة عدوهم ، مذهولين من رؤية الليل وقد حل بالفعل، وكانوا يفترقون على عتبة الباب دون ان يحيى بعضهم البعض . فى تلك الامسيات ، كان جاك يتوقف على السلم المظلم الكريه الرائحة، ويستند فى الظلام على الحائط ينتظر حتى يهدأ قلبه الواثب. لكنه لم يستطع الانتظار ، وكان ادراكه لذلك يجعله أكثر لهاثا . وفى ثلاث وثبات وصل إلى قرص الدرج، ومر أمام باب مراحيض الدور وفتح باب البيت. كان هناك ضوء فى قاعة الطعام فى نهاية الممر ، وسمع وهو مثلج من الرعب، صوت الملاعق فى الأطباق . دخل حول المائدة وتحت الضوء المستدير لمصباح البترول ، كان الخال نصف الاصم مستمرا فى مص حسائه بجلبة ، وأمه، التى لازالت شابة، والشعر كث وداكن، نظرت إليه نظرتها الجميلة العذبة وبدأت تقول : «أنت تعلم جيدا ..» لكن الجدة التى لم يكن يرى منها سوى ظهرها ، مستقيمة فى ثوبها الأسود، الفم حازم ، والعيون فاتحة وصارمة، قاطعت ابنتها وقالت :

– من أين أنت قادم ؟ – بيير شرح لى واجب الحساب».

نهضت الجدة واقتربت منه . شمت شعره ثم مررت يدها أعلى القدمين الملوثين بالرمل، نطق الخال: «أنت قادم من الشاطىء . إذن ، أنت كاذب» ، لكن الجدة مرت خلفه ، وأخذت من وراء باب قاعة الطعام الكرباج الخشن ، المسمى درة، حيث كان معلقا، وجلدت ساقيه وإليتيه بثلاث أو أربع ضربات كانت تحرقه

لدرجة الصياح . وبعد قليل ، وأمام طبق حساء قدمه له خاله الذى رق له قلبه، كان يشد كل نفسه لكى يمنع الدموع التى تملأ فمه وحلقه من أن تسيل .. وبعد نظرة سريعة إلى الجدة، أدارت أمه نحوه الوجه الذى كان يحبه كثيرا، وقالت : «إشرب حساءك، انتهى الأمر ، انتهى» .

فاجهش بالبكاء .

استيقظ چاك كورمرى . لم تعد الشمس تنعكس على نحاس نافذة السفينة، لكنها هبطت فى الأفق وتضىء الآن الحاجز المواجة له . ارتدى ملابسه وصعد على سطح السفينة . أخيرا سيجد الجزائر العاصمة فى آخر الليل.

— ٥ —

الحرب . محاولة الاغتيال

ضمها بين ذراعيه ، على عتبة الباب، وهو لايزال يلهث من صعود السلم وثبا كل اربع درجات دفعة واحدة ، وبدون أن يخطىء درجة ، كما لو كان جسمه قد احتفظ دائما بالذاكرة الصحيحة لارتفاع الدرجات . عندما نزل من التاكسى ، فى الشارع الشديد الازدحام ، والذى مازالت بعض أماكن فيه تلمع من عمليات رش الماء الصباحية (*) والتى بدأت الحرارة الوليدة تبددها إلى بخار ، لمحها ، فى المكان نفسه كما فى السابق، فى الشرفة الضيقة والوحيدة للشقة بين الغرفتين ، فوق مظلة باب الحلاق التى يحتفظ دائما غطاؤها المصنوع من الحديد المموج بحمولته من ثمار أشجار التين، والأوراق الصغيرة المفروكة ، واعقاب السجائر . لكن الحلاق لم يعد هو والد جان وجوزيف فقد مات بالسل، وكانت زوجته تقول ، إنها المهنة ، نتيجة شم رائحة الشعر بشكل مستمر. كانت هناك، بشعرها الغزير دائما لكنه أصبح اشيب منذ سنوات، مازالت منتصبة القامة بالرغم من سنواتها الاثنتين والسبعين ، كانت توحى بأنها أصغر بعشر سنوات عن سنها الحقيقية نظرا لنحافتها المتناهية ونشاطها الذى لايزال واضحا، وهو ما ينطبق على كل العائلة، قبيلة من النحاف ذوى هيئة لامبالية ويتمتعون بنشاط لايكل ، لاتأثير للشيخوخة عليهم ، على ما يبدو . الخال اميل (**) ، شبه الأصم، كان يبدو شابا

(*) يوم الأحد .

(**) سيصبح أرنست بعد ذلك .

وهو فى الخمسين من عمره. الجدة ماتت دون أن تنحنى . أما بالنسبة لأمه، التى كان يجرى نحوها الآن، فيبدو أن لاشىء يقلل من صلابتها العذبة، طالما ان عشرات السنين من العمل المنهك راعت فيها المرأة الشابة التى كان وهو طفل يعجب بها بكل عينيه.

عندما وصل أمام الباب ، فتحته امه وارتمت بين ذراعيه. وعندئذ ، وكما فى كل مرة يلتقيان ، قبلته مرتين أو ثلاث مرات ، وضمته بكل قواها ، وكان يشعر تحت ذراعيه بالضلوع والعظام الصلبة والبارزة للأكتاف المرتعشة قليلا، بينما كان يتنفس رائحة جلدها العذبة التى تذكره بهذا المكان ، تحت تفاحة آدم، بين الوترين الحلقيين ، والذى لم يعد يجرؤ على تقبيله عندها، ولكنه كان يحب شمه ومداعبته عندما كان طفلا، وفى المرات النادرة التى كانت تجلسه على ركبتيها كان يتظاهر بالنوم، وانفه فى هذا التجويف الصغير الذى كانت له رائحة الحنان، النادر جدا فى حياته كطفل . كانت تقبله ثم، بعد أن تتركه ، تنظر إليه وتسترجعه لكى تقبله مرة أخرى ، كما لو كانت قدرت فى داخلها كل الحب الذى يمكنها أن تحمله له أو تعبر له عنه، ورأت أن مقدارا من هذا الحب لايزال ناقصا . كانت تقول : «يابنى ، لقد كنت بعيدا» . وفور ذلك ، تستدير ، وتعود إلى الشقة وتذهب لتجلس فى قاعة الطعام المطلة على الشارع، وكأنها لم تعد تفكر فيه ولا فى أى شىء ، بل تنظر إليه أحيانا بتعبير غريب، غير مرغوب فيه وانه يزعج العالم الضيق الذى تتحرك فيه وحيدة ، أو على الأقل هذا هو انطباعه . فى ذلك اليوم، بعد أن جلس إلى جوارها ، كانت تبدو مسكونة بنوع من القلق وتنظر ، خلسة ، من وقت لآخر إلى الشارع، نظرتها الجميلة الداكنة القلقة التى تهدأ بعد ذلك عندما تعود إلى چاك .

لقد أصبح الشارع أكثر ضوضاء ، والمارة أكثر عددا ، وقعقعة عربات الترام الأحمر الثقيلة تبعث على الصمم . كان كورمرى ينظر إلى أمه ، وهى مرتدية بلوزة رمادية صغيرة مزينة بياقة بيضاء ، وتجلس أمام النافذة على المقعد غير المريح الذى كانت تجلس عليه دائما، وقد اعطته جانبا واحدا فقط من وجهها ، الظهر محنى بعض الشيء بفعل السن ، ولكنه لايسعى إلى الاستناد إلى ظهر المقعد ، واليدان معقودتان حول منديل صغير تكوره من آن لآخر بأصابعها المنحدرة ، ثم تتركه فى قعر الثوب بين يديها الساكنتين، بينما تدير رأسها قليلا نحو الشارع ، انها هى نفسها من ثلاثين عاما مضت، واسترجع ، من وراء التجاعيد ، ذات الوجه الذى احتفظ بشبابه بمعجزة ، قوسا الحاجبين أملسان ومصقولان ، وكأنهما ذائبان فى الجبهة ، والأنف المستقيم الصغير، والفم الذى لايزال مرسوما بشكل جيد بالرغم من انقباض اركان الشفتين حول طقم الاسنان. حتى العنق نفسه، الذى سرعان ما يتلف، احتفظ بشكله بالرغم من الأوتار التى أصبحت كثيرة العقد ، والذقن المتراخى قليلا . قال چاك : «لقد ذهبت إلى الحلاق» . ابتسمت ابتسامة الفتاة الصغيرة التى ضبطت متلبسة بخطأ ما : «نعم ، انت تعرف كنت ستصل» . كانت دائما متأنقة على طريقتها شبه الخفية . فمهما كانت ملابسها بسيطة وفقيرة ، لا يتذكر چاك انه رآها ترتدى شيئا قبيحا. وحتى الآن ، فان الملابس ذات اللونين الرمادى والأسود التى ترتديها، كانت مختارة بعناية . كان ذلك هو ذوق القبيلة ، دائما بائسة أو فقيرة ، أو احيانا ، فى بحبوحة من العيش نسبيا ، فيما يتعلق ببعض الأقارب . لكن الجميع ، وخاصة الرجال ، كانوا يتمسكون ، كما كل البحرأوسطيين ، بالقمصان البيضاء وكسرة البنطلون ، ويجدون من الطبيعى أن تضاف مهمة العناية المستمرة هذه ، نظرا

لندرة الملابس، إلى عمل النساء ، امهات أو زوجات . أما بالنسبة لأمه ، فقد اعتبرت دائما انه لا يكفى العمل فى بيوت الآخرين وغسيل ملابسهم ، فمنذ أن وعى چاك واستطاع التذكر ، رآها دائما تكوى البنطلون الوحيد لأخيه وبنطلونه ، إلى أن رحل هو وابتعد فى عالم السيدات اللواتى لا يغسلن أو يكوين . قالت أمه: «انه الحلاق الايطالى ، انه يجيد عمله - نعم» اجاب چاك . كان على وشك أن يقول : «انك جميلة جدا» لكنه توقف . لقد اعتقد دائما ان أمه جميلة ، لكنه لم يجرؤ قط ان يقول لها ذلك ، ليس لأنه كان يخشى صدها أو يشك فى أن مثل هذا الثناء سيسعدها ، لكن ذلك كان يعنى اجتياز الحاجز الخفى الذى رآها طوال حياتها تحتمى وراءه - عذبة ، مهذبة ومتسامحة ، بل وسلبية ، وإن كان لم يقهرها أحد أو شىء ، معزولة فى نصف صممها وعسرها اللغوى ، جميلة بالطبع لكنها تكاد تكون منيعة ، خصوصا وانها كانت اكثر بشاشة وكان قلبه يثب اكثر نحوها - ، نعم ، لقد احتفظت طوال حياتها بذات المظهر الوجل ، وإن كان متحفظا ، وبذات النظرة التى كانت ، منذ ثلاثين سنة مضت ، ترى أمها تضرب چاك بالسوط دون ان تتدخل ، هى التى لم تلمس أبدا أو حتى توبخ فعليا أطفالها، هى التى لا يمكن التشكك فى ان هذه الضربات كانت تؤلمها أيضا ، لكن التعب وصعوبة التغيير واحترامها لأمها كان يمنعها من التدخل ، فلا تبدى أية مقاومة ، وتتحمل على امتداد الأيام والسنين ، تتحمل أن يضرب أطفالها ، كما تتحمل يوم العمل القاسى فى خدمة الآخرين ، الأرضيات التى تغسلها وهى جاثية على ركبتيها ، والحياة بدون رجل وبدون أى عزاء أو سلوى وسط تضاريس ملطخة بالشحم وغسيل الآخرين المتسخ ، واضيفت أيام العناء الطويلة إلى بعضها البعض لتكون حياة ، وأصبحت ، من فرط حرمانها من الأمل ، حياة بدون ضغينة من أى نوع ، جاهلة ، وعنيدة ومستسلمة أخيرا لكل العذابات ،

عذاباتها وعذابات الآخرين ، لم يسمعها أبدا تشكو ، سوى أن تقول إنها متعبة أو تشعر بألم فى الكلى بعد غسيل كبير . ولم يسمعها قط تذكر أحدا بسوء ، سوى أن تقول إن أختا أو خالة أو عمة لم تكن لطيفة معها ، أو كانت «متكبرة» لكن ، فى الجانب المقابل ، نادرا ما سمعها تضحك من قلبها . انها تضحك أكثر بعض الشيء الآن بعد أن أصبحت لا تعمل منذ أن تكفل ولداها بكل احتياجاتها . نظر چاك إلى الغرفة التى لم تتغير هى أيضا . رفضت أن تغادر هذه الشقة حيث اكتسبت عاداتها ، وهذا الحى حيث كل شيء ميسر بالنسبة لها ، لتنتقل إلى شقة أخرى أكثر رفاهية ، لكن حيث كل شيء سيصبح أكثر صعوبة . نعم كانت الغرفة نفسها . لقد تغير الآثاث ، الذى أصبح لائقا وأقل بؤسا . لكن ظلت قطع الآثاث عارية ، ملتصقة بالجدران .

قالت له أمه : «انك تفتش دائما كما فى السابق» . نعم ، انه لا يستطيع منع نفسه من فتح صوان السفرة الذى كان عريه يفتنه ، والذى مازال لا يحتوى سوى الضرورى تماما ، رغم كل تعنيفه وإلحاحه . وكان يفتح أيضا ادراج الطبقية التى كانت تأوى نوعين من الأدوية أو ثلاثة أنواع كان يكتفى بها فى هذا البيت ، مختلطة بجريدتين قديمتين أو ثلاث جرائد ، وقطع خيط ، وصندوق كرتون صغير مملوء بأزرار غير متجانسة ، وصورة قديمة خاصة ببطاقة الهوية . هنا ، حتى الفائض كان فقيرا لأن الفائض لا يستخدم قط . كان چاك يعلم جيدا ، ان أمه لو اقامت فى منزل طبيعى حيث تكثر الأشياء ، كما فى بيته ، فانها لن تستخدم سوى الضرورى تماما فقط . كان يعرف أن فى حجرة أمه ، المجاورة ، بنافذتها الوحيدة المزينة بستارة من الكروشيه ، والتى لا تضم من الأثاث سوى صوان صغير ، وسرير ضيق ، ومنضدة زينة خشبية ومقعد من القش ، لن يجد أى شيء ، سوى ، أحياناً ، المنديل الصغير المكور الذى كانت تتركه على خشب منضدة الزينة العارى .

ان الذى أدهشه بحق ، عندما اكتشف بيوتا أخرى ، سواء بيوت رفاقه فى المدرسة أو بيوت الوسط الأكثر ثراء بعد ذلك ، كان عدد الزهريات والكؤوس والتماثيل الصغيرة واللوحات التى تزحم الغرف . فى بيته ، كان يقال «الزهرية التى على المدفأة» ، أما الإناء والاطباق العميقة ، والأشياء القليلة التى كان من الممكن وجودها فلم يكن لها اسم . على نقيض ذلك ، كان صلصال الفوج الرملى المحروق محل إعجاب لدى عمه ، حيث كانوا يأكلون فى أطباق كيمبر . لقد كبر ونما بين الأسماء النكرة ، وسط فقر عار كالموت ، وعند عمه اكتشف اسماء الأعلام . والآن أيضا ، فى الغرفة ذات البلاط المغسول حديثا ، وعلى قطع الآثاث البسيطة اللامعة ، لا يوجد شىء ، سوى منفضة سجائر عربية من النحاس المطروق ، توقعا لمجيئه ، وعلى الحائط روزنامة هيئة البريد والهاتف . لا يوجد شىء هنا يشاهد ، والقليل ليقال ، لذلك كان يجهل كل شىء ، عن أمه ، إلا ما عرفه عنها بنفسه . وعن ابيه .

«بابا؟» نظرت اليه وأصبحت مصغية .

نعم .

– كان اسمه هنرى ثم ماذا؟

– لا أعرف

– ألم تكن له أسماء أخرى؟

– اعتقد ، ولكنى لا أتذكر» .

فجأة شرد ذهنها ، ونظرت إلى الشارع حيث كانت الشمس تضرب بكل قوتها .

«أكان يشبهنى؟

– نعم ، كان نسخة منك ، كانت عيونه فاتحة . والجبهة مثلك .

– فى أى عام ولد؟

– لا أعرف . أنا كنت أكبر منه بأربع سنوات .

– وانت فى أى عام ولدت ؟

– لا أعرف . انظر فى سجل العائلة .»

ذهب چاك إلى الغرفة ، وفتح الصوان . وبين الفوط على الرف الأعلى ، كان يوجد سجل العائلة ، وبطاقة المعاش وبعض الأوراق القديمة المكتوبة بالإسبانية . وعاد بالمستندات .

«ولد فى عام ١٨٨٥ وأنت فى عام ١٨٨٢ . أنت أكبر منه بثلاث سنوات .

– ياه ! كنت أعتقد انهم اربعة اعوام . كان ذلك منذ وقت طويل .

– لقد قلت لى انه فقد أباه وأمه مبكرا وان اخوانه وضعوه فى دار للأيتام .

– نعم . واخته أيضا .

– كان لأهله مزرعة ؟

– نعم . كانوا من الألزاس .

– فى ولد – فايت .

– نعم . ونحن فى شراجا . على مقربة منها جدا .

– فى أى سن فقد والديه ؟

– لا أعرف . اوه ! كان صغيرا . اخته تركته . انه أمر سيىء . كانْ لا يريد أن يراهم قط .

– كم كان عمر اخته حينئذ؟

- لا أعرف .

- واخوانه ؟ هل كان أصغرهم؟

- لا ، الثانى .

- اذن ، كان اخوانه أصغر من أن يهتموا به .

- نعم ، انه كذلك .

- اذن ، لم يكن ذنبهم .

- نعم، كان مستاء منهم . وبعد دار الأيتام ، عمل فى مزرعة أخته ، وكان عمره ١٦ عاما ، كانوا يجهدونه فى العمل . وأصبح الأمر غير محتمل .

- ذهب إلى شراجا .

- نعم . عندنا .

- وهناك تعرفت عليه ؟

- نعم .»

وادارت رأسها من جديد نحو الشارع . وشعر انه غير قادر على الاستمرار فى هذا الطريق . لكنها أخذت من تلقاء نفسها اتجاها آخر .

«لم يكن يعرف القراءة ، لا يوجد تعليم فى دار الأيتام .

- لكنك ، اطلعتنى على بطاقات ارسلها لك من الميدان اثناء الحرب .

- نعم ، لقد تعلم مع السيد كلاسيو .

- عند ريكوم .

- نعم . السيد كلاسيو كان الرئيس . علمه القراءة والكتابة .

- فى أى سن ؟

– اعتقد فى سن العشرين . لا أعرف . كل ذلك قديم . لكن عندما تزوجنا ، كان قد تعلم جيدا أنواع النبيذ ويستطيع العمل فى كل مكان . كان ذكياً» .

ونظرت اليه .

«مثلك .

– ثم بعد ؟

– بعد ؟ جاء اخوك . كان أبوك يعمل لدى ريكوم ، وارسله ريكوم إلى مزرعته فى سان – لا بوتر .

– سان – ابوتر ؟

– نعم ، ثم وقعت الحرب . ومات . وارسلوا لى شظية القنبلة ».

شظية القنبلة التى فتحت رأس ابيه كانت فى صندوق بسكويت صغير وراء الفوط نفسها فى الصوان نفسه ، مع البطاقات المكتوبة من الجبهة والتى كان يمكنه ترديدها عن ظهر قلب بجفافها وايجازها . «عزيزتى لوسى . أنا بخير . سنغير معسكرنا غدا . انتبهى للأطفال جيدا . قبلاتى . زوجك» .

نعم ، فى قلب الليلة نفسها اثناء الانتقال إلى مقر عمل الأب الجديد ، مهاجر وابن مهاجرين ، كانت اوروبا قد ضبطت مدافعها التى ستنطلق كلها معا بعد شهور قليلة ، طاردة اسرة كورمرى من سان – ابوتر ، هو نحو فيلقه فى الجزائر العاصمة ، وهى نحو شقة امها الصغيرة فى الضاحية البائسة ، حاملة بين ذراعيها الطفل . «لا تنزعجى يا أمى . سوف نرحل عندما يعود هنرى» . والجدة منتصبة القامة ، وشعرها الأبيض مشدود إلى الوراء ، وعيونها فاتحة وقاسية :

«ابنتى ، سيتعين عليك ان تعملى» .

«كان فى القوات الفرنسية التى تحارب فى المغرب .

– نعم لقد حارب في المغرب» .

حقا . لقد نسي . ففي عام ١٩٠٥ كان ابوه في العشرين من عمره . وأدى الخدمة العسكرية ، في المغرب . تذكر چاك ما قاله له مدير مدرسته عندما قابله منذ بضع سنوات في شوارع الجزائر العاصمة . كان السيد لڤيسك قد استدعى في الوقت نفسه الذي استدعى فيه ابوه . لكنه لم يبق سوى شهر واحد في الوحدة نفسها . لم يعرف كورمري جيدا ، حسب قوله ، لأن الأخير كان قليل الكلام . يتحمل المشقة ، وصموت ، لكنه سهل المعاشرة وعادل . مرة واحدة فقط، استشاط كورمري غضبا . كان الوقت ليلا ، بعد يوم شديد الحرارة ، في هذا الركن من جبال الأطلس حيث كانت المفرزة تعسكر على قمة ربوة صغيرة يحميها مضيق صخري . كان على كورمري ولفيسك ان يناوبا الحراسة أسفل المضيق . لم يجب أحد على نداءاتهما . وعند سياج من شجيرات الصبار ، وجدا زميلهما ورأسه مائل ، ومستدير نحو القمر بطريقة غريبة . لم يتعرفا في البداية على رأسه غريب الشكل . لكن الأمر كان بسيطا تماما . فقد ذبح ، وفي فمه ، هذا الانتفاخ الذى يشبه عضو التذكير تماما ، هنا رأيا الجسم ذا الساقين المتباعدتين، وسروال الزى الرسمي مشقوقا ، وفي منتصف الشق ، في ضوء القمر غير المباشر هذه المرة ، تلك البركة من الدماء . وعلى بعد مائة متر ، وخلف صخرة كبيرة ، كان الحارس الثاني في نفس الوضع . اطلقت صفارة الإنذار وتمت مضاعفة المراكز العسكرية . وفي الفجر ، عندما صعدا إلى المعسكر ، قال كورمري إن الآخرين ليسوا رجالا .

اجاب لفيسك، الذى كان يفكر بانه يجب ان يتصرف الرجال هكذا ، فنحن نحتل بلادهم ، وهم يستخدمون كل الوسائل . واتخذ كورمري هيئته العنيدة قائلا: «ربما ، ولكنهم على خطأ ، الرجل لا يفعل ذلك» . اجاب لفيسك أنه بالنسبة لهم ،

يسمح الرجل لنفسه بكل شيء ، في بعض الظروف . ولكن كورمري صاح وكأنما انتابته نوبة جنون غاضب : «لا ، الرجل يمتنع ، هذا هو الرجل ، أما ..» ثم هدأ . وقال بصوت مخنوق : «أنا فقير وخارج من دار للأيتام ، ويضعون لي هذا الزي ويسحبوني إلى الحرب ، ولكنني امتنع . – هناك فرنسيون لا يمتنعون ، اجاب لفيسك. اذن ، هم ايضا ليسوا رجالا» .

صاح فجأة : «جنس قذر ! أي جنس ! كل الأجناس ، كلها ...»

ودخل خيمته ، شاحبا .

كان چاك يدرك ، عندما يمعن التفكير ، انه عرف أكثر الأشياء عن أبيه من هذا المدرس العجوز الذي أصبح منسيا الآن . لكن لا شيء أكثر ، إلا في التفاصيل ، مما استطاع ان يخمنه من صمت امه . رجل صلب ، مر ، عمل طوال حياته ، وقتل بالأمر ، وقبل كل ما لا يمكن تفاديه ، لكن ، في مكان ما من نفسه ، كان يرفض ان يتلوث . رجل فقير في النهاية . لأن الفقر لا يتم اختياره ، ولكن يمكن الاحتفاظ به . ومع القليل الذي عرفه من أمه ، حاول أن يتخيل الرجل نفسه ، بعد ذلك بتسع سنوات ، متزوجا ، وأبا لطفلين ، وقد فاز بوضع أفضل قليلا واستدعي إلى الجزائر العاصمة من أجل التعبئة ، والسفر الطويل ليلا مع الزوجة الصبور والأطفال الشياطين ، والافتراق في محطة القطار ، ثم بعد ذلك بثلاثة أيام ، في شقة بلكور الصغيرة ، ووصوله المفاجيء مرتديا الزي الأحمر والأزرق ذا السراويل المنفوخة الخاص بالفيلق الزواوي ، يتصبب عرقا تحت الصوف السميك ، في حرارة يوليو ، وفي يده قبعة من القش ، لأنه كان لا يوجد زي اهل المغرب المعروف باسم شاشية ولاخوذة ، بعد أن غادر المستودع خلسة تحت بواكي ساحة المحطة ، وركض لكي يأتي يقبل أطفاله وزوجته ، قبل الابحار مساء إلى فرنسا التي لم يرها قط ، على البحر الذي لم يركبه قط ،

وقبلهم ، بقوة وايجاز ، ورحل مرة اخرى بنفس الخطوة السريعة ، بينما المرأة فى الشرفة الصغيرة تلوح له ويرد لها التحية وهو يركض، مستديرا ليلوح بالقبعة المصنوعة من القش ، قبل ان يعاود الركض فى الشارع الرمادى من التراب والحرارة ويختفى ، على بعد ، أمام السينما فى ضوء النهار الساطع لكى لا يعود أبدا . وكان يتعين تخيل الباقى، ليس من خلال ما يمكن ان تقوله له أمه التى كانت عاجزة حتى عن ان يكون لديها فكرة عن التاريخ والجغرافيا، كانت تعرف فقط انها تعيش على أرض قرب البحر ، وان فرنسا تقع بالجانب الآخر من هذا البحر الذى لم تقطعه أبدا ، وعلى أية حال ، كانت فرنسا بالنسبة لها مكانا غامضا ضائعا فى ليل مبهم يتم الوصول اليها عن طريق ميناء يسمى مارسيليا كانت تتخيله مثل ميناء الجزائر العاصمة ، وحيث تتألق مدينة يقال عنها انها جميلة جدا تسمى باريس ، وأخيرا ، حيث توجد منطقة اسمها الالزاس قدم منها أهل زوجها الذين فروا ، منذ زمن طويل ، أمام أعداء اسمهم الألمان لكى يستقروا فى الجزائر ، منطقة كان يتعين استردادها من نفس الأعداء ، الذين كانوا دائما اشرارا وقساة ، خاصة مع الفرنسيين ، وبدون أى مبرر . قلد اضطر الفرنسيون دائما إلى الدفاع عن انفسهم ضد هؤلاء الرجال الشرسين المحبين للمشاجرات . وهكذا مع اسبانيا ، التى كانت لا تستطيع تحديد موقعها ، ولكنها على أية حال لم تكن بعيدة ، والتى رحل عنها اهلها الماهونيون منذ وقت طويل ، لكى يأتوا إلى الجزائر ، لانهم كانوا يتضورون جوعا فى ماهون التى كانت تجهل حتى انها جزيرة ، فهى لا تعرف على أية حال ما هى الجزيرة لأنها لم تر جزيرة قط . أما بالنسبة لباقى البلدان ، فكان اسم أحدها يسترعى انتباهها ، فى بعض الأحيان، دون أن تستطيع نطقه دائما بشكل صحيح .

وفى جميع الأحوال ، هى لم تسمع قط عن النمسا والمجر ولا صربيا ، وكانت روسيا مثل انجلترا اسما صعباً ، كانت تجهل من هو الارشيدوق ولا يمكنها

اطلاقا تكوين المقاطع الأربعة لكلمة سراييفو . وقامت الحرب ، مثل سحابة قبيحة، محملة بتهديدات غامضة ، ولكن لا يمكن منعها من اجتياح السماء ، مثلما لا يمكن منع وصول الجراد أو العواصف المكتسحة التى تنقض على الهضاب الجزائرية . ومرة أخرى ، أرغم الألمان فرنسا على خوض الحرب ، انها لا تعرف تاريخ فرنسا ولا ما هو التاريخ . إنها تعرف تاريخها هى بعض الشيء ، وبالكاد تاريخ من تحبهم ، وسيتعين على من تحبهم أن يعانوا مثلها . فى ليل العالم الذى كانت لا تستطيع تخيله والتاريخ الذى كانت تجهله ، بدأ فقط يستقر، ليل اكثر سوادا وغموضا ، وصلت أوامر غامضة ، حملها إلى قلب «البلد» شرطى منهك ويتصبب عرقا ، وقد تعين مغادرة المزرعة حيث كان يتم التحضير لقطف الكروم – كان راعى الكنيسة فى محطة بوون من أجل رحيل المجندين : قال لا : «يجب ان تصلى من أجلهم» ، واجابت : «نعم ، ياسيدى الراعى» ، لكنها فى الحقيقة لم تسمعه ، لأنه لم يكلمها بصوت عال بما فيه الكفاية ، ومن جهة أخرى ، فان فكرة الصلاة لم تكن لتعن لها ، انها لم ترغب قط فى ازعاج أحد – ، وزوجها رحل الآن فى زيه الملون الجميل ، وسوف يعود قريبا ، الجميع يقول ذلك ، سيلقن الألمان درسا ، لكن يجب العثور على عمل حتى يعود ، لحسن الحظ ، قال جار للجدة انهم فى حاجة إلى سيدات فى مصنع ذخيرة بالترسانة العسكرية وانهم يعطون الأولوية لزوجات المجندين ، خاصة إذا كن مسئولات عن اسرة ، وستتاح لها فرصة العمل لمدة عشر ساعات فى ترتيب انابيب صغيرة من الكرتون تبعا لسمكها ولونها ، ويمكنها جلب نقود إلى الجدة ، وسيكون لدى الأطفال الطعام اللازم إلى أن يتم تأديب الألمان ويعود هنرى . بالطبع ، لم تكن تعلم أن هناك جبهة روسية ، ولا ما هى الجبهة ، ولا أن الحرب يمكن أن تمتد إلى البلقان، والشرق الأوسط ، وكل اقطاب الكرة الأرضية ، كان كل شىء يدور فى فرنسا ،

حيث دخل الألمان دون تنبيه ويهاجمون الأطفال . كل شيء يدور هناك ، في الواقع، حيث قوات افريقيا ومن بينها هنرى كورمرى، والتى نقلت باسرع ما يمكن، وتم اقتيادها إلى منطقة غامضة يجرى الحديث عنها، المارن، لم يتسع الوقت للعثور على خوذات لهم ، ولم تكن الشمس قوية لتقتل الألوان مثل شمس الجزائر ، بحيث كانت موجات من الجزائريين العرب والفرنسيين ، الذين يرتدون ألوانا ساطعة وانيقة ، وعلى رأسهم قبعات من القش ، تمثل أهدافا حمراء وزرقاء يسهل رصدها على بعد مئات الامتار، كانوا يصعدون للقتال فى مجموعات، ويتم تدميرها بالكامل، وبدأوا يسمدون أرضا ضيقة سيتشبث بها مترا مترا رجال قادمون من كل أنحاء العالم لمدة أربع سنوات، لا بدين فى خنادق من الطين تحت سماء محفوفة بالقذائف المضيئة، وقذائف تموء بينما ترعد الحواجز الكبيرة التى تعلن عن هجمات فاشلة لكن فى الوقت الراهن ليست هناك خنادق، قوات افريقيا فقط تذوب تحت النيران المعادية مثل دمى الشمع الملونة، وفى كل يوم يولد مئات الأيتام فى كل أنحاء الجزائر، عربا وفرنسيين، أبناء وبنات بدون أب، عليهم ان يتعلموا ، فيما بعد العيش بدون درس أو ميراث . مرت بضعة أسابيع، ثم ذات صباح يوم أحد، وعلى البسطة الداخلية الصغيرة للطابق الوحيد، بين السلم والمرحاضين الخاليين من الاضاءة، وهما عبارة عن حفرتين سوداوين اعدتا فى البناء على الطريقة التركية، وتفوح منهما دائما رائحة كريهة رغم تنظيفهما باستمرار ، جلست لوسى كورمرى وأمها على مقعدين منخفضين، تنقيان عدسا تحت النور المنبعث من جهة الباب أعلى السلم، وكان المولود فى سلة غسيل صغيرة يمص جزرة مليئة بلعابه، وفجأة ظهر على السلم، رجل وقور انيق يحمل الرسالة داخل ظرف . فوجئت المرأتان فوضعت كل منهما طبق العدس الذى تأخذه من قدر موضوع بينهما ومسحتا ايديهن عندما رجاهما السيد، الذى

توقف على الدرجة قبل الاخيرة، الا تتحركا، وسأل عن السيدة كورمرى، قالت الجدة: «ها هى أنا امها»، قال السيد انه العمدة وانه يحمل نبأ أليما، فقد مات زوجها في ساحة الشرف وان فرنسا تبكيه وانها في الوقت نفسه فخورة به . لم تسمعه لوسى كورمرى، لكنها وقفت ومدت له يدها باحترام كبير، انتصبت الجدة ويدها على فمها، وراحت تكرر «ياربى» بالإسبانية . احتفظ السيد بيد لوسى فى يده، ثم ضمها بين يديه، وتمتم بكلمات مواساة واعطاها ظرفا، واستدار ونزل السلم بخطوة ثقيلة . سألت لوسى: «ماذا قال؟» .. هنرى مات، لقد قتل» نظرت لوسى إلى الظرف الذى لم تفتحه، انها لا تعرف القراءة وكذلك أمها، قلبته، دون ان تنطق كلمة، دون ان تسقط دمعة، عاجزة عن تخيل هذه الوفاة البعيدة، فى قلب ليل مجهول. ثم وضعت الظرف في جيب مريلة المطبخ التى ترتديها، ومرت قرب الطفل دون ان تنظر إليه وذهبت إلى الحجرة التى تتقاسمها مع طفليها، واغلقت الباب ومصراع النافذة المطلة على الفناء وتمددت على السرير، حيث ظلت صامتة ولا تبكى لساعات طويلة تضم فى جيبها الظرف الذى لا تستطيع قراءته وتنظر فى الظلام إلى المصيبة التى لا تفهمها.

هتف جاك: «ماما»

كانت تنظر دائما إلى الشارع، بالشكل نفسه، وكانت لا تسمعه .

لمس ذراعها النحيف المجعد، واستدارت نحوه مبتسمة.

«بطاقات بابا، تعرفين، بطاقات المستشفى .

- نعم.

- تلقيتها بعد العمدة ؟

- نعم.»

شجت شظية قنبلة رأسه، ونقل فى احد هذه القطارات الصحية التى يقطر منها الدم ، والقش والضمادات والتى كانت تقوم برحلات مكوكية بين مكان المذبحة ومستشفيات الاخلاء فى سان ـ بريوك.

وهناك استطاع ان يكتب على عجل بطاقتين بالتخمين لانه كان قد فقد البصر «لقد جرحت، انه شىء بسيط، زوجك» . ثم مات بعد بضعة ايام. وكتبت الممرضة: «هكذا أفضل . كان سيبقى أعمى او مجنونا . كان شجاعا جدا». ثم شظية القنبلة.

مرت دورية من ثلاثة من جنود المظلات المسلحين فى الشارع، فى طابور، تبحث فى جميع الاتجاهات . كان احدهم اسود، طويلا ورشيقا، مثل حيوان ضخم فى جلده المرقط.

قالت: «ذلك بسبب قطاع الطرق.. ثم اننى مسرورة لانك ذهبت الى قبره . انا، عجوز جدا ثم المكان بعيد.. هل هو جميل ؟

ـ ماذا ، القبر؟

ـ نعم.

ـ انه جميل. وهناك ورود.

ـ نعم.. الفرنسيون بواسل »

كانت تقول ذلك وتعتقده، لكن دون ان تفكر قط فى زوجها.

لقد نسى الآن، ومعه شقاء الماضى.. ثم لم يتبق شىء، فى نفسها ولا فى هذا المنزل، من هذا الرجل الذى التهمته نار كونية ولم تتبق منه سوى ذكرى غير ملموسة مثل رماد جناح فراشة احترقت فى حريق غابة.

«انتظر.. اليخنة ستحترق».

قامت للذهاب الى المطبخ واتخذ مكانها، ناظرا بدوره للشارع الذى لم يتغير منذ سنوات طويلة، المحلات نفسها ذات الألوان الباهتة والمقشرة بفعل الشمس. بائع التبغ المقابل هو فقط الذى استبدل بقطع مستطيلة من البلاستيك الملون ستارته المصنوعة من البوص الصغير المفرغ والتى لا يزال جاك يسمع صوتها الخاص، عندما كان يعبرها للدخول فى رائحة المطبوعات والتبغ اللذيذة وشراء «الانتربيد» حيث كان يتحمس لقراءة قصص الشرف والشجاعة يعرف الشارع فى هذا الوقت حركة نشاط صباح الأحد . كان العمال بقمصانهم البيضاء المغسولة والمكوية حديثا، يتجهون وهم يثرثرون نحو المقاهى الثلاثة أو الأربعة التى تنبعث منها رائحة الظل الندى واليانسون.

وكان يمر عرب، فقراء هم أيضا لكنهم يرتدون ملابس نظيفة وملائمة، ومعهم زوجاتهم المحجبات دائما ولكنهن يلبسن فى اقدامهن احذية لويس الخامس عشر. احيانا كانت تمر اسر عربية كاملة ترتدى ثياب الأحد، احدى هذه الاسر كانت تجر ثلاثة أطفال، يتنكر احدهم فى زى جندى مظلات ، مرت دورية جنود المظلات مرة أخرى، مسترخين وغير مبالين فى الظاهر، فى نفس اللحظة التى دخلت فيها لوسى كورمرى الغرفة دوى الانفجار.

بدا الانفجار قريبا جدا وهائلا ولا ينتهى من امتداده فى ذبذبات. ويبدو انه لم يعد يسمع منذ وقت طويل، وكان مصباح قاعة الطعام لايزال يهتز فى قلب صدفة من الزجاج تقوم مقام الثريا، تراجعت امه إلى مؤخرة الغرفة، شاحبة، عيونها السوداء مليئة برعب لا تستطيع السيطرة عليه، ومترنحة قليلا، قالت: «انه هنا، انه هنا .. » اجاب جاك «لا» وجرى نحو النافذة . كان الناس يركضون، لا يعرفون إلى اين ، دخلت اسرة عربية عند تاجر الخردوات المقابل مستحثة . الأطفال أن يدخلوا واستقبلهم صاحب المتجر ، واغلق الباب وسحب القفل وظل مزروعا وراء

الزجاج، يراقب الشارع، في هذه اللحظة، عادت دورية جنود المظلات، تركض بلا توقف في الاتجاه الآخر. اصطفت السيارات على عجل على امتداد الأرصفة وتوقفت، وخلال ثوان معدودة، أصبح الشارع خاليا، ولكن جاك، كان يستطيع رؤية حركة جماهير غفيرة على بعد بين سينما «موسيه» ومحطة الترام، قال: «سأذهب لأرى».

في ركن شارع بريفو ـ بارادول، اطلقت مجموعة من الناس الصراخات.. وقال عامل صغير يرتدي زيا بسيطا من التريكو في اتجاه عربي ملتصق بباب عربة قرب المقهى: «جنس قذر» واتجه نحوه.

«لم افعل شيئا، قال العربي: كلكم ضالعون، وعصابة من اللوطيين»، وارتمى عليه. منعه الآخرون.. قال جاك للعربي: «تعال معي»، ودخل معه المقهى الذي أصبح يديره جاك، صديق طفولته، ابن الحلاق . كان جاك هناك، هو نفسه لم يتغير، لكن متغضن، صغير ونحيف، وجهه مراوغ وحذر، قال جاك: «انه لم يفعل شيئا.. ادخله عندك» نظر جاك الى العربي وهو يمسح مائدة البار.. وقال: «تعال»، واختفيا في المؤخرة.

وعندما خرجا من المقهى، نظر العامل إلى جاك شذرا، قال جاك: «انه لم يفعل شيئا ـ يجب قتلهم جميعا ـ هذا ما يقال عند الغضب.. فكر» هز الآخر كتفيه: «اذهب إلى هناك وستتكلم عندما ترى المجزرة» .. ارتفعت اجراس عربات الاسعاف سريعة وملحة.. ركض جاك حتى محطة الترام، لقد انفجرت القنبلة في العمود الكهربائي الموجود قرب المحطة . كان هناك خلق كثير ينتظرون الترام، يرتدون جميعا ملابس الأحد.. وكان المقهى الذي يقع هناك يضج بالصياح الذي لا يعرف إن كان صياح غضب أم ألم.

استدار نحو أمه. وقفت الآن منتصبة وباهتة تماما. «اجلسى»، وقادها نحو المقعد الذى كان قريبا تماما من المائدة. وجلس إلى جوارها، ممسكا بيديها . قالت: «مرتان هذا الاسبوع، اخاف ان اخرج » .

اجاب جاك: « انه لا شيء سيتوقف» . ونظرت اليه نظرة غريبة متحيرة، وكأنها موزعة بين ثقتها وإيمانها بذكاء ابنها ويقينها بأن «الحياة كلها» مصنوعة من الشقاء الذى لا نستطيع شيئا حياله وكل ما نستطيعه هو ان نتحمله .. قالت: أنت تدرك اننى عجوز، لم اعد استطيع الركض».. وبدأ الدم يعود الى وجنتيها. وعلى بعد، كان صوت اجراس عربات الاسعاف مسموعا، ملحة وسريعة. ولكنها لم تسمعها. تنفست بعمق، هدأت قليلا وابتسمت لابنها ابتسامتها الجميلة الشجاعة . لقد كبرت ، مثل كل أبناء جيلها ، فى ظل الخطر، وكان الخطر يستطيع ان يقبض قلبها، انها تتحمله مثل الباقى.. كان هو من لا يستطيع تحمل وجه المحتضرة الجاف الذى اكتسبته فجأة .. قال لها: «تعالى معى إلى فرنسا»، لكنها هزت رأسها بحزن حازم: «اوه ! لا، الجو بارد هناك، أنا عجوز واريد أن ابقى فى بيتنا».

ـ ٦ ـ

الأســـرة

قالت له أمه: «اوه! أنا مسرورة، وانت هنا لكن عندما يأتى المساء، يكون مللى أقل . انه المساء بشكل خاص، وفى الشتاء يهبط الليل مبكراً . اه او كنت اعرف القراءة .. لا استطيع أن اقوم بأعمال التريكو فى النور، عيناى تؤلمانى. وبالتالى عندما لا يكون اتيين هنا، ارقد وانتظر ساعة الطعام، الوقت طويل، ساعتان هكذا، لو كانت الصغيرات معى لتكلمت معهن، لكنهن يأتين ويرحلن .. اننى عجوز. ولعل رائحتى غير مستحبة هكذا انا وحيدة تماما» .

تتكلم دفعة واحدة، فى جمل صغيرة وبسيطة متوالية وكأنها تفرغ افكارها التى ظلت حتى ذلك الوقت صامتة.. ثم تسكت من جديد عندما تنضب الافكار، ومن خلال شيش قاعة الطعام المغلق، تنظر، وفمها مزموم، الى الضوء الخانق الصاعد من الشارع نظرة عطوفة مكتئبة، دائما فى نفس المكان فوق نفس المقعد غير المريح اياه، وابنها يلف كعادته حول المائدة المركزية.

نظرت إليه من جديد وهو يلف حول المائدة.

«جميلة، سولفرينو.

ـ نعم، انها نظيفة . لكنها تغيرت بالضرورة منذ ان رأيتها.

ـ نعم ، كل شيء يتغير.

- الطبيب يرسل لك تحيته. اتتذكرينه؟

- لا، كل ذلك قديم.

- لا احد يتذكر بابا.

- لم نمكث طويلا. ثم انه لم يكن يتكلم كثيرا.

- ماما؟ »

نظرت إليه نظرتها الشاردة العطوفة دون ان تبتسم .

«كنت اعتقد انك انت وابى لم تقيما معا ابدا فى الجزائر العاصمة.

- لا ، لا..

- افهمت ما أعنى؟»

لم تفهم ، خمن ذلك من هيئتها الخائفة بعض الشيء وكأنها تعتذر..

وكرر سؤاله موضحا ومؤكدا على ألفاظه:

« لم تسكنا معا فى الجزائر العاصمة؟

- لا

- لكن متى ذهب أبى اذن لرؤية ذبح بيرت ؟ »

كان يضرب على عنقه بسيف يده لكى تفهم ما يريد قوله..

لكنها اجابت على الفور:

«نعم استيقظ فى الساعة الثالثة لكى يذهب الى بار بروما .

- إذن كنتما فى الجزائر العاصمة؟

- نعم..

ـ لكن متى كان ذلك ؟

ـ لا اعرف ، كان يعمل عند ريكوم.

ـ قبل ان تذهبا الى سولفرينو ؟

ـ نعم »

كانت تقول: «نعم» وربما «لا»، كان يتعين العودة بالزمن من خلال ذاكرة مغرقة فى الظلام، لا شىء كان اكيدا.. ذاكرة الفقراء اقل ثراء من ذاكرة الاغنياء، لانها تمتلك نقاط استدلال اقل فى المكان، فهم نادراً ما يغادرون المكان الذى يعيشون فيه، وكذلك نقاط استدلال أقل فى الزمن لحياة رتيبة ورمادية.. بالطبع.. هناك ذاكرة القلب التى يقال إنها الأسلم والاضمن، لكن القلب يرهقه ويبليه الهم والعمل، فهو ينسى أسرع تحت وطأة العناء والتعب. الزمن الضائع لا يسترجع إلا عند الاغنياء.. أما بالنسبة للفقراء ، فان الزمن يحدد الآثار المبهمة لطريق الموت.. ولكى نتحمل جيدا يجب ألا نتذكر كثيرا، يتعين البقاء على مقربة تامة من الأيام، ساعة بعد ساعة، كما كانت تفعل امه، مضطرة بعض الشىء طالما ان المرض الذى اصابها فى صباها (كان تيفوئيد، طبقا للجدة.. لكن التيفوئيد لا يترك آثارا مماثلة، ربما تيفوس أو شىء من هذا القبيل؟ هنا أيضا كان الظلام، طالما ان هذا المرض الذى أصابها فى صباها تركها صماء تعانى من مشاكل فى النطق، ثم منعها حتى من تعلم ما يدرسه اكثر الخلق بؤسا، ومن ثم اضطرت الى الاستسلام الأخرس، كانت تلك هى الطريقة الوحيدة التى وجدتها لمواجهة حياتها، وما الذى كان يمكنها ان تفعله غير ذلك، من كان سيجد شيئا آخر لو فى مكانها ؟ كان يود ان تتحمس لكى تصف له رجلا مات منذ أربعين عاما وتقاسمت معه الحياة لمدة خمس سنوات . (هل تقاسمتها فعلا؟) انها لا تستطيع ذلك، لم يكن متأكدا انها احبت هذا الرجل بشغف،

وعلى أية حال فانه لا يستطيع ان يسألها عن ذلك ، هو أيضا كان امامها اخرس ومعاقا على طريقته، وفي الحقيقة لم يكن يريد ان يعرف ما كان بينهما، وكان يتعين العدول عن معرفة اى شىء منها ، حتى هذه التفصيلة التى اثرت فيه جدا وهو طفل، وتعقبته طوال حياته حتى فى أحلامه، يستيقظ ابوه فى الثالثة صباحا ليذهب لمشاهدة اعدام مجرم مشهور، عرف ذلك من جدته . كان «بيرت» عاملا زراعيا فى احدى قرى الساحل القريبة من الجزائر العاصمة. كان قد قتل اسياده وأطفال البيت الثلاثة بضربات مطرقة.. سأل جاك وهو طفل «ألكى يسرق ؟ » اجاب الخال اتيين «نعم» .. وقالت الجدة «لا» ، ولكن دون أى تفسيرات أخرى، وعثر على الجثث مشوهة والبيت مخضبا بالدماء حتى السقف، وتحت احد الاسرة، كان اصغر الاطفال لايزال يتنفس ، وإن كان قد مات أيضا ولكنه وجد القوة ليكتب على الحائط المطلى بالجير بأصبعه المبلل بالدماء: «انه بيرت». وتم تعقب القاتل وعثروا عليه فى الريف وقد أصابته لوثة وطالب الرأى العام ، الذى أصابه الرعب، بعقوبة الاعدام ولم يساومه احد، وجرت عملية الاعدام فى العاصمة امام سجن برباروسا، فى حضور جمع كبير.. استيقظ والد جاك فى الليل وسافر لمشاهدة العقاب المثالى لجريمة اثارت سخطه وغضبه، على حد قول الجدة.. لم يعرف احد قط ما دار هناك.. على ما يبدو تم الاعدام بدون حوادث. لكن والد جاك عاد شاحب اللون، ونام، ثم استيقظ ليتقيأ عدة مرات، ليعاود النوم مرة اخرى، ولم يتكلم بعد ذلك عما رآه وفى المساء الذى سمع فيه جاك هذه الحكاية، كان هو نفسه يبتلع غثيان الرعب، وهو ممدد على حافة الفراش لكى يتفادى لمس اخيه الذى يرقد معه على السرير، متجمعا على نفسه، مجترا التفاصيل التى قيلت له وتفاصيل اخرى كان يتخيلها. لاحقته هذه الصور خلال حياته، حتى فى لياليه حيث كان يعاوده بشكل

منتظم ، وعلى فترات متباعدة ، كابوس مفضل ، متعدد فى اشكاله ولكن موضوعه كان واحداً.. يأتون للبحث عنه، هو جاك ، لاعدامه . ولفترة طويلة. كان عندما يستيقظ ، ينفض خوفه وقلقه ويسترد الحقيقة الطيبة بارتياح حيث لا يوجد قط اى احتمال لاعدامه . الى ان بلغ سن الرجال ، وعلى النقيض اصبحت عملية الاعدام من بين الاحداث التى يمكن تصورها دون ان تبدو مستبعدة الحدوث، ولم تعد الحقيقة تريح من الاحلام، بل انها على العكس قد تغذت خلال سنوات (محددة) جدا ، بالقلق والكرب الذى بلبل اباه واورثه اياه. لكن كان رباطا غامضا ذلك الذى يربطه بميت سان - بريوك المجهول (الذى هو ايضا لم يفكر ، انه سيموت ميتة عنيفة) متجاوزا أمه التى عرفت هذه الحكاية، ورأت القيء ونسيت ذلك الصباح ولم تدر ان الزمن تغير، بالنسبة لها، كان الزمن واحدا على الدوام، حيث يمكن ان تأتى منه التعاسة فى كل لحظة بلا تحذير..

وعلى النقيض من ذلك، كان لدى الجدة فكرة اصح عن الاشياء ، كانت تردد كثيرا لجاك: «سوف ينتهى امرك الى المشنقة» . لم لا، لم يعد ذلك شيئا استثنائيا . لم تكن تعرفه، ولكنها بطبيعتها ، لا يدهشها اى شيء . منتصبة ، فى ثوبها الطويل الأسود الجدير بقديسة جاهلة وعنيدة، هى على الاقل لم تعرف الاستسلام ابدا. واكثر من أى شخص آخر، سيطرت على طفولة جاك.. تربت بين والديها الماهونيين، فى قرية صغيرة من قرى الساحل، وتزوجت وهى صغيرة جدا من ماهونى آخر، رشيق وهش، كان اخوانه قد استقروا فى الجزائر منذ عام ١٨٤٨ بعد وفاة الجد الابوى الفاجعة، الذى كان شاعرا فى زمانه وينظم اشعاره وهو يمتطى جوادا رديئا ويتنقل فى الجزيرة بين الجدران

الصغيرة المصنوعة من الأحجار وبغير طين، التى تحد بساتين الفاكهة واثناء إحدى هذه النزهات اختلط الامر على زوج مخدوع فى الهيئة والقبعة السوداء ذات الحواف العريضة، معتقدا انه يعاقب العشيق، اطلق النار على ظهر الشعر ونموذج الفضائل العائلية الذى، لم يترك شيئا لأطفاله رغما عنها. وكانت النتيجة البعيدة لسوء التفاهم الفاجع هذا، حيث لقى شاعر الموت، هى استقرار فريق من الصبية الصغار الأميين على الشاطىء الجزائرى، يتوالدون بعيدا عن المدارس ، مربوطين فقط إلى عمل مضن تحت شمس موحشة لكن زوج الجدة ، احتفظ بشىء من الجد الملهم ، إذا حكمنا من الصور ، ولم يكن وجهه النحيف، المرسوم بشكل جيد ، ذو النظرة الحالمة التى تعلوها جبهة عريضة ، يرشحه بالطبع لمقاومة الزوجة الشابة الجميلة النشيطة . انجبت له تسعة أطفال، مات اثنان فى سن الطفولة، فى حين لم يتم انقاذ اخرى إلا بثمن الاعاقة ، أما الاخير فقد ولد أصم وشبه اخرس.. فى القرية الصغيرة الكئيبة، كانت تربى ابناءها ، دون ان تكف عن القيام بنصيبها من العمل المشترك القاسى ، عندما كانت تجلس فى طرف المائدة كانت تضع عصا طويلة إلى جوارها ، مما يعفيها من أية ملحوظة غير مجدية، كان المذنب يتلقى على الفور ضربة على رأسه . كانت تسيطر ، موجبة الاحترام لها ولزوجها ، حيث يناديها الأطفال بـ« حضرتك » ، طبقا للعادة الاسبانية .. لم ينعم زوجها طويلاً بهذا الاحترام: مات مبكراً، انهكته الشمس والعمل، وربما الزواج أيضا ، دون أن يتمكن چاك من معرفة المرض الذى أدى إلى وفاته وبعد أن أصبحت الجدة وحيدة، صفت المزرعة الصغيرة وجاءت لتستقر فى الجزائر العاصمة مع الأطفال الأصغر سنا، أما الآخرون فقد التحقوا بالعمل منذ سن التدريب.

عندما كبر چاك، استطاع أن يلحظ ان لا الفقر ولا المحنة قد نالا منها. لم يبق معها سوى ثلاثة أبناء : كاترين كورمرى، التى كانت تخدم فى بيوت الآخرين، والابن الأصغر، المعاق، أصبح صانع براميل قويا، وچوزيف ، الابن الأكبر، الذى لم يتزوج وكان يعمل فى السكك الحديدية كانت اجور ثلاثتهم زهيدة ويجب أن تعول مجتمعة اسرة من خمسة افراد . كانت الجدة تدير نقود الأسرة، ولذلك كان أول شئ صدم چاك هو خشونتها، انها لم تكن بخيلة، أو على الأقل كانت بخيلة كما يكون الانسان بخيلا بالهواء الذى يتنفسه ويجعله يعيش.

إنها التى تشترى ملابس الأطفال. كانت والدة چاك تعود من العمل متأخرة فى المساء وتكتفى بأن تنظر وتسمع ما يقال، كانت حيوية الجدة تطغى عليها فتركت لها كل شئ . وهكذا كان يتعين على چاك، طوال حياته كطفل، أن يرتدى معاطف مطر طويلة جدا لأن الجدة كانت تشتريها لكى تبقى طويلا وتعتمد على الطبيعة حتى تلحق قامة الطفل بمقاس الملابس . لكن چاك كان ينمو ببطء ولم يقرر أن يكبر فعلا إلا عندما بلغ الخامسة عشرة، وكانت الملابس تبلى قبل أن ينضبط مقاسها ويتم شراء ملابس أخرى طبقا لمبادئ الاقتصاد نفسها، ولم يكن أمام چاك، الذى كان زملاؤه يسخرون من زيه المضحك، سوى حيلة أنه ينفخ معاطفه عند الحزام ليحول المضحك إلى شئ مبتكر ومع ذلك، كانت لحظات الخجل القصيرة سرعان ماتنسى فى الفصل، حيث يسترد چاك تفوقه، وفى فناء المدرسة أثناء الاستراحة، حيث كرة القدم هى مملكته لكن هذه المملكة كانت محظورة عليه لأن الفناء مبلط بالاسمنت والنعال تبلى فيه بسرعة كبيرة حتى أن الجدة منعت چاك من لعب كرة القدم فى المدرسة أثناء الاستراحة انها تشترى بنفسها لأحفادها احذية مرتفعة سميكة ومتينة وتأمل أن تكون ابدية ولزيادة عمرها فى كل الاحوال، كانت تسمر النعال بمسامير مخروطية ضخمة تمثل ميزة مزدوجة: إذ

يتعين استهلاكها قبل استهلاك النعل كما كانت تسمح بالتحقق من خرق الحظر على لعب كرة القدم . كان الجرى على الأرض الاسمنتية يستهلك بالفعل المسامير بسرعة ويكسبها لمعانا تكشف حداثته عن المذنب. كل مساء، عند عودته إلى البيت، كان على چاك أن يذهب إلى المطبخ، حيث كانت كساندر تقيم قداسا فوق قدور سوداء، ليعرض نعليه، فيثنى ركبتيه، ويرفع نعله فى الهواء، فى وضع الحصان الذى توضع له حدوة . بالطبع فهو لايستطيع مقاومة نداء رفاقه وجاذبية لعبته المفضلة، وانصب كل اجتهاده ليس على ممارسة فضيلة مستحيلة وإنما على تمويه الخطأ . ومن ثم كان يقضى لحظات طويلة عند الخروج من المدرسة فى حك نعليه فى أرض مبتلة وكانت تنجح الحيلة أحيانا، ولكن كان يأتى وقت يصبح فيه بلى المسامير فاضحا، وأحيانا يصاب النعل نفسه، أو حتى، كارثة أخيرة، ينفصل النعل عن وجه الحذاء، إثر ركلة قدم خرقاء على الأرض أو فى السياج الذى يحمى الأشجار، وفى هذه الحالة كان چاك يصل إلى البيت والحذاء محاط بقطعة من الدوبار لكى يظل شدقه مقفولا انها امسيات الكرباج ولچاك الباكى، كان كل ما تقوله أمه لتواسيه: «حقيقى أنها مكلفة لماذا لاتنتبه؟» لكنها لم تكن تلمس أطفالها قط . وفى اليوم التالى راح چاك يلبس حذاء قماشيا ويتم ارسال الحذاء للاسكافى وبعد يومين أو ثلاثة أيام، يجد چاك حذاءه مرة أخرى مزينا بمسامير جديدة، وكان عليه أن يتعلم من جديد أن يحتفظ بتوازنه على نعاله الزلقة وغير المستقرة كانت الجدة قادرة على الذهاب إلى أبعد من ذلك، ولا يستطيع چاك، بعد كل تلك السنين، تذكر هذه الحكاية دون تململ الخزى والاشمئزاز . كان هو وأخوه لايحصلان على أى مصروف جيب، إلا عندما يوافقان على زيارة عم تاجر وعمة متزوجة زيجة طيبة. بالنسبة للعم، فالأمر سهل لأنهما كانا يحبانه جدا . ولكن العمة كانت تتفنن فى الطنطنة بثرائها النسبى، وكان الطفلان يفضلان البقاء

بلانقود وبدون المتع التى تمنحها النقود على أن يشعرا انهما أهينا.. فى كل الاحوال، بالرغم من ان البحر، والشمس، وألعاب الحى هى متع مجانية، فان البطاطس المحمرة، وحلوى السكر المطبوخ المعطرة، والحلوى العربية وبشكل خاص بالنسبة لچاك، بعض مباريات كرة القدم تتطلب قليلا من النقود، بضعة ملاليم على الأقل. ذات مساء، كان چاك عائدا بعد ان قام بشراء احتياجات البيت، وتوجه إلى فران الحى ليأخذ صينية التفاح المطهى فى الفرن والتى كان ممسكا بها على امتداد ذراعيه (لايوجد فى البيت غاز أو موقد للطهى، وكان الطعام يطهى على موقد يعمل بالكحول . وبالتالى لايوجد فرن، وعندما يكون هناك طعام يتطلب استخدام الفرن فانه يتم حمله وهو مجهز تماما إلى فران الحى، مقابل بضعة ملاليم)، وكانت الصينية تدخن أمامه عبر المسحة التى تحميها من اتربة الشارع وتسمح بالإمساك بها من اطرافها. وعلى مقصد ذراعه اليمنى كانت الشبكة المملوءة بالتموين الذى اشتراه بكميات صغيرة جدا (نصف ليبرة سكر، ثمن زبد ، وبخمسة ملاليم جبن مبشور، الخ...) لاتزن كثيرا، وكان چاك يشم الرائحة الطيبة المنبعثة من الصينية ، ويسير بخطوة حذرة متفاديا زحام العامة الذين يذهبون ويجيئون فى هذه الساعة على أرصفة الحى وفى هذه اللحظة، افلتت، من جيبه المثقوب، قطعة نقود فئة فرنكين محدثة رنينا على الرصيف التقطها چاك، وتحقق من نقوده، التى كانت كاملة، ووضعها فى الجيب الآخر وفكر فجأة، «كان يمكن أن افقدها» . وعادت إلى ذهنه مباراة الغد التى طردها حتى الآن من تفكيره.

فى الحقيقة، لم يعلم أحد الطفل ما هو خير وما هو شر . كانت بعض الأشياء ممنوعة وتعاقب المخالفات بشدة . والبعض الآخر لا . فقط كان مدرسوه يكلمونهم أحيانا عن الأخلاق، عندما كان البرنامج الدراسى يتيح لذلك، ولكن هنا أيضا

كانت النواهى أكثر دقة وتحديدا من التفسيرات . الشئ الوحيد الذى استطاع جاك أن يراه ويختبره فى مجال الأخلاق هو الحياة اليومية لاسرة عمالية حيث لم يفكر أحد ان هناك طرقا أخرى غير العمل الأكثر قسوة للحصول على المال الازم للحياة غير ان الدرس هنا كان فى الشجاعة وليس فى الأخلاق . لكن جاك يعرف انه من الخطأ اخفاء هذين الفرنكين. لايريد أن يفعل ذلك ولن يفعله، ربما استطاع، مثل المرة السابقة، التسلل بين لوحين من ألواح استاد ساحة المناورة القديم ومشاهدة المباراة دون أن يدفع شيئا . لذلك لم يفهم هو ذاته لماذا لم يرد النقود التى تبقت معه ولماذا، بعد ذلك بلحظة، عاد من المراحيض معلنا ان قطعة نقود معدنية من فئة الفرنكين وقعت فى الحفرة عندما كان يضع سرواله. المراحيض كانت كلمة نبيلة جدا بالنسبة للحيز الضيق الذى تم اعداده فى بناء بسطة الطابق الوحيد. مراحيض محرومة من الهواء والنور الكهربى ومن صنبور فعلى قاعدة فى منتصف الارتفاع محشورة بين الباب والجدار الخلفى تم عمل حفرة على الطريقة التركية وكان يتعين سكب صفائح الماء فى هذه الحفرة بعد الاستخدام ولكن لاشئ يستطيع منع نتانة هذه الاماكن من أن تطفح حتى السلم. كان تفسير جاك معقولا وهذا التفسير يجنبه أن يرسل مرة أخرى ليبحث عن النقود المفقودة فى الشارع كما يقطع الطريق أمام أى تطور. ببساطة شعر جاك بانقباض فى قلبه وهو يعلن النبأ السيئ كانت جدته فى المطبخ منهمكة فى فرى الثوم والبقدونس على اللوح القديم الذى أصبح أخضر ومحفورا من كثرة الاستخدام. توقفت ونظرت إلى جاك الذى كان ينتظر الانفجار، لكنها صمتت وتفحصته بعينيها الباردتين ثم قالت أخيراً: «أنت متأكد؟ – نعم، شعرت بها تقع» ظلت تنظر اليه وقالت: «حسن جدا، سوف نرى» رأها جاك، وهو مرعوب، تشمر كم ذراعها اليمنى، وتحرر ذراعها البيضاء كثيرة العقد وتخرج إلى البسطة.

ارتمى فى قاعة الطعام، على شفا الغثيان . وعندما نادت عليه، وجدها أمام حوض المطبخ، ذراعها مغطاة بصابون رمادى وتشطفها بمياه كثيرة قالت: «لايوجد شئ، انت كاذب» تمتم: «لكن ربما تكون قد جرفت» ترددت «ربما . لكن اذا كنت كاذبا، فلن يمر الأمر بسلام بالنسبة لك» لا، لم يمر الأمر بسلام، لأنه فهم فى اللحظة نفسها أن مادفع جدته إلى النبش فى النفايات لم يكن البخل، ولكنه الاحتياج الرهيب الذى جعل من فرنكين مبلغا فى هذه الدار . فهم ذلك وادرك بوضوح، بارتباك الخزى، انه سرق الفرنكين من عمل اهله وحتى الآن، چاك، وهو ينظر إلى أمه أمام النافذة، لم يمكنه أن يفسر لنفسه كيف استطاع بالرغم من ذلك ألا يرد الفرنكين وأن يجد مع ذلك متعة فى مشاهدة مباراة اليوم التالى.

كانت ذكرى الجدة مرتبطة أيضا بحالات خزى أقل تبريرا، لقد تمسكت بإعطاء هنرى، الأخ الأكبر لچاك، دروسا فى الكمان . تفادى چاك ذلك نظرا لنجاحه المدرسى الذى يدعى انه يستحيل الحفاظ عليه مع هذا العمل الاضافى . وبالتالى تعلم اخوه أن يعزف اصواتا مرعبة على كمان بارد وكان يستطيع على ايه حال ان يعزف الأغانى الشائعة مع بعض الأخطاء فى العلامات الموسيقية . ولكى يتسلى چاك، الذى كان له صوت مضبوط، تعلم الأغنيات نفسها، دون أن يتخيل العواقب الفاجعة لهذا الاهتمام البرئ . فى أيام الأحد، عندما كانت الجدة تستقبل زيارة بناتها المتزوجات، اثنتين من أرامل الحرب، أو اختها التى كانت تسكن دائما احدى مزارع الساحل وتتكلم عن طيب خاطر اللهجة الاقليمية الماهونية أكثر من الاسبانية، وبعد تقديم أقداح القهوة السادة الكبيرة على المائدة المغطاة بقماش مشمع، كانت تدعو احفادها لحفلة موسيقية مرتجلة ويحضران، وهما واجمان، حامل النوت الموسيقية المعدنى، ويفتحان أقسام القطع الموسيقية

على صفحتين للأدوار الشهيرة . كان يتعين عليهما تنفيذ المطلوب منهما . كان جاك يتابع قدر المستطاع كمان هنرى المتعرج ويغنى «رامونا»، «حلمت حلما رائعا رامونا، لقد رحلنا معا نحن الاثنين» أو «ارقصى، هذا المساء اريد أن احبك» أو أيضا، لكى نظل فى الشرق، «ليالى الصين ليال ناعمة، ليل حب، ليل نشوة، وحنان» وفى أحيان أخرى، كان يتم طلب الأغنية الواقعية خصيصا من أجل الجدة . راح جاك يغنى «هل أنت رجلى فعلا، انت الذى طالما احببته، انت الذى اقسمت لى، الله يعلم كيف، الاتجعلنى ابكى ابداً». انها الأغنية الوحيدة التى يستطيع جاك أن يغنيها بإحساس حقيقى، لأن بطلة الاغنية تردد دورها المثير للشجن وسط الجمهور الذى يشاهد اعدام عشيقها صعب المراس . لكن الجدة كانت تفضل اغنية أخرى حيث كانت تحب بلا شك الحزن والحنان المفتقدين فى طبيعتها . كانت «سريناد» لتوشيللى هى هذه الأغنية . وكان هنرى وجاك يسهبان فيها بقدر كبير من البراعة رغم أن اللهجة الجزائرية لاتناسب تماما تلك الساعة الساحرة التى تستدعيها الأغنية فى العصر المشمس، كانت أربع أو خمس سيدات يرتدين السواد، قد تخلين كلهن، فيما عدا الجدة، عن الوشاح الأسود المميز للإسبانيات، واصطففن حول الغرفة ذات الأثاث الفقير والجدران المطلية باللون الأبيض يعبرن عن استحسانهن بتدفق الموسيقى والنص بهزات رأس خفيفة، إلى أن تقاطع الجدة هذا التأثير الساحر بقرار موجز: «ارتكبت خطأ» مما يخرس الفنانين، وهى التى لم تستطع قط التمييز بين الدو والسى فضلا عن انها تجهل اسماء العلامات فى السلم الموسيقى. راح الأخوان يستأنفان العزف والغناء وعندما يتم تجاوز الفقرة الشائكة بشكل يرضى هواها، كان الجمهور لايزال يحرك رأسه، وللانتهاء يصفق الجميع للأخوين الماهرين، اللذين يفكان معداتهما على جناح السرعة للحاق برفاقهما فى الشارع. فقط كاترين كورمرى تظل فى

ركن دون أن تقول شيئا . مازال چاك يتذكر عصر أحد أيام الأحد، عندما كان على وشك الخروج ومعه نوتته الموسيقية، وسمع احدى خالاته تهنئ أمه عليه، فأجابت «نعم، كان العرض جيداً، انه ذكى»، وكأن هناك علاقة بين الملحوظتين لكن عندما استدار فهم العلاقة . كانت نظرة أمه المرتجفة، الحانية، القلقة، قد استقرت عليه محملة. بتعبير جعل الطفل يتراجع ويتردد ويهرب . وظل يقول لنفسه على الدرج «انها تحبنى، انها تحبنى اذن»، وادْرك فى اللحظة نفسها انه يحبها بوله، وانه تمنى بكل قواه أن يكون محبوبا منها، وانه ظل دائما يشك فى ذلك حتى تلك اللحظة.

كانت حفلات السينما تدخر متعاً أخرى للطفل... كان الاحتفال يحدث أيضا عصر يوم الأحد واحيانا الخميس. كانت سينما الحى على بعد خطوات من البيت وتحمل هى والشارع الذى تقع فيه اسم شاعر رومانسى. وكان يتعين قبل دخولها اجتياز ممر متعرج من واجهات المحلات، يعرض فيها تجار عرب خليطا من الفول السودانى والحمص المجفف والمملح والترمس وسكاكر بألوان زاهية، بينما يبيع تجار آخرون حلوى صارخة، من بينها نوع من الأهرامات مجدولة بالكريمة ومغطاة بسكر وردى، وفطائر عربية تقطر زيتا وعسلا. وحول أوانى العرض تطن وتصيح سحابة من الذباب والأطفال، الذين جذبهم نفس السكر، ويتلاحقون تحت لعناة التجار الذين يخشون على توازن أوانيهم ويطردون الذباب والأطفال بالحركة نفسها . بعض الباعة تمكنوا من الاحتماء تحت قبة السينما الزجاجية التى تمتد على أحد الجوانب. أما الآخرون فوضعوا ثرواتهم اللزجة تحت الشمس القوية والتراب. الذى يثيره لعب الأطفال. كان چاك يرافق جدته التى ملست شعرها الأبيض، لهذه المناسبة وقفلت ثوبها الأسود الأزلى بمشبك من الفضة كانت تزيح بوقار البسطاء المتصايحين الذين يسدون المدخل وتتقدم إلى نافذة التذاكر الوحيدة لتأخذ تذاكر «محجوزة» . وفى الحقيقة، لم يكن هناك اختيار إلا بين هذه

التذاكر «المحجوزة»، التى كانت عبارة عن مقاعد خشبية رديئة تحدث قاعدتها صوتا عندما تنخفض، وبين الدكك حيث يتدافع الأطفال ويتنازعون الأماكن، ولايفتح لهم الباب الجانبى إلا فى آخر لحظة. وعلى جانبى الدكك، كان هناك حارس مزود بكرباج ومسئول عن حفظ النظام فى قطاعه، ولم يكن من النادر رؤيته يطرد طفلا أو راشدا كثير الحركة. كانت السينما فى ذلك الحين تعرض افلاما صامتة . فى البداية أحداث الساعة، ثم فيلما كوميديا قصيرا، ثم الفيلم الطويل وأخيرا فيلم على حلقات، بمعدل حلقة قصيرة كل اسبوع كانت الجدة تحب بشكل خاص هذه الافلام التى كانت تنتهى كل حلقة منها نهاية معلقة ومشوقة فعلى سبيل المثال يحمل البطل المفتول العضلات بين ذراعيه الفتاة الشقراء الجريحة ويعبر جسرا من المعرشات معلقا فوق مفرج بين جبلين به شلالات. وكانت اخر لقطة للحلقة الاسبوعية تبين يدا عليها وشم، ملحة بسكين بدائى، تقطع حبال هذا الجسر المعلق . ويستمر البطل فى السير بشكل رائع بالرغم من التحذيرات الصارخة للمشاهدين الجالسين على «الدكك» وبالتالى لم يكن السؤال هل سينجو البطل والبطلة، فلم يكن مسموحا بالشك فى ذلك، ولكن فقط معرفة كيف سينجون، وهو ما كان يفسر ان عددا كبيرا من المشاهدين، عربا وفرنسيين، كانوا يعودون فى الأسبوع التالى ليروا العاشقين وقد انقذتهما شجرة العناية الالهة من السقوط المميت . وكان يصاحب العرض عزف على البيانو تقوم به آنسة عجوزة تواجه بالهدوء الساكن لظهر نحيف على شكل زجاجة مياه معدنية تعلوها ياقة من الدانتيلا المزاج الماجن لمشاهدى «الدكك» كان چاك يعتبر احتفاظ هذه الآنسة المدهشة بقفازات بلا أصابع فى ظل الحرارة الملتهبة علامة تميز. من ناحية أخرى لم يكن دورها سهلا كما قد يظن. ان التعليق الموسيقى على أحداث الساعة بشكل خاص يضطرها إلى تغيير اللحن تبعا لطابع الحدث المعروض. فكانت تنتقل بالتالى دون جسر من رقصة سريعة مرحة لمصاحبة عرض ازياء الربيع إلى

«المارش الجنائزى» لشوبان بمناسبة فيضان فى الصين أو جنازة شخصية مهمة فى الحياة القومية أو الدولية . ايا كانت القطعة، كان العزف رصينا فى كل الحالات، كما لو كان هناك عشرة آلات صغيرة ضامرة تؤدى على أصابع البيانو القديمة المائلة للاصفرار عملية تشغيل محكومة دائما بتروس الدقة . وفى القاعة العارية الجدران، ذات الأرضية المغطاة بقشر السودانى كانت تختلط روائح الكرزيل المطهر برائحة آدمية قوية. وكانت هى، على آيه حال، التى توقف بضربة واحدة تلك الضوضاء التى تبعث على الصمم، فتبدأ بكل قوة المقدمة الموسيقية التى من المفترض أن تخلق جو الحفلة الصباحية. كان ازيز ضخم يعلن ان آلة العرض تبدأ عملها وتبدأ معها محنة چاك.

كانت الأفلام، بما انها صامتة، تتضمن العديد من النصوص المكتوبة التى تهدف إلى توضيح الأحداث. وبما أن الجدة لاتعرف القراءة فقد كان دور چاك هو أن يقرأ لها تلك النصوص. بالرغم من سنها لم تكن الجدة صماء بالمرة ولكن كان يجب التغلب أولا على صوت البيانو وصوت القاعة حيث كانت ردود أفعال الجمهور سخية. بالاضافة إلى ذلك، فان كلمات كثيرة كانت غير مألوفة للجدة، بالرغم من بساطة النصوص، بل ان بعض الكلمات كانت غريبة عليها. ومن جانبه، كان چاك لايود ازعاج جيرانه من ناحية، وحريصا بشكل خاص ألا يعلن للقاعة كلها ان الجدة لاتعرف القراءة (كانت فى بعض الاحيان تقول له بصوت عال عند بداية الحفلة، وقد انتابها حياء: «سوف تقرأ لى ، لقد نسيت نظارتى»)، وهكذا لم يكن چاك يقرأ النصوص بصوت مرتفع والنتيجة أن الجدة لاتفهم إلا نصف المعلومات، وتطالبه بتكرار، النص بصوت أعلى كان يحاول أن يتكلم بصوت أعلى، لكن زجر من حوله كان يرمى به فى خجل بشع، فيتلعثم، بينما جدته تنهره وسرعان ما يصل النص التالى، أكثر غموضا بالنسبة للعجوز المسكينة التى لم تفهم النص السابق ويتزايد الارتباك حتى يسترد چاك بعض سرعة بديهته لكى

يلخص فى كلمتين اللحظة الحاسمة فى فيلم «علامة زورو» مثلا، تمثيل دوجلاس فيربانكس الأب. ونطق جاك بوضوح، مستفيدا من وقفته للبيانو أو القاعة «الشرير يريد أن يخطف منه الفتاة». وكان كل شىء يتضح، ويستمر الفيلم ويتنفس الطفل، بشكل عام، كانت المتاعب تقف عند هذا الحد، لكن بعض الأفلام من نوع «اليتيمتان» كان بالفعل شديد التعقيد، وكان جاك، المضغوط بين متطلبات الحيرة وتوبيخ المحيطين به الذين يتزايد استياؤهم، ينتهى به الحال إلى السكوت. ومازال يتذكر إحدى هذه الحفلات حيث انتهى الأمر بالجدة، أن خرجت من السينما، ساخطة، بينما يتبعها جاك باكيا، مرتبكا من فكرة انه اضاع على هذه التعيسة احدى متعها النادرة والنقود القليلة التى تعين دفعها لذلك .

أما والدته، فلم تكن تذهب قط إلى هذه الحفلات. لم تكن تعرف القراءة هى أيضا، وبالاضافة إلى ذلك كانت نصف صماء، واخيرا كانت مفرداتها محدودة أكثر من مفردات أمها، وظلت حياتها خالية من الترفيه، حتى الآن. لقد ذهبت إلى السينما مرتين أو ثلاث مرات، طوال أربعين عاما، ولم تفهم شيئا، وقالت ، فقط لكى لا تكدر الاشخاص الذين دعوها، أن الأثواب كانت جميلة كما يبدو على الرجل ذى الشارب أنه شرير جدا. ولم يكن بإمكانها أيضا سماع المذياع . أما بالنسبة للصحف ، فكانت تتصفح أحيانا الصحف المزينة بالصور، وتجعل ولديها أو حفيداتها يشرحون لها الصور، وتقرر أن ملكة انجلترا حزينة وتطوى المجلة لتنظر من جديد من النافذة نفسها إلى حركة الشارع نفسه الذى تأملته طوال نصف حياتها .

اتيين

كانت ، بمعنى ما ، أقل اختلاطا بالحياة من أخيها ارنست (*) الذى يعيش معهم، إنه اصم تماما، ويعبر عن طريق محاكاة صوت الشىء الذى يعنيه وبالاشارات بقدر تعبيره بالكلمات المائة التى كان يمتلكها ، لكن ارنست الذى كان من المتعذر تشغيله وهو صغير، تردد بشكل ما على المدرسة وتعلم فك طلاسم الحروف .

كان يذهب أحيانا إلى السينما ، ويرجع منها بروايات مدهشة بالنسبة للذين رأوا الفيلم من قبل، لأن ثراء خياله كان يعوض جهله. فضلا عن أنه كان ذكيا وماكرا، نوع من الذكاء الفطرى كان يسمح له أن يتوجه فى عالم وخلال اناس بالرغم من أنهم كانوا بالنسبة له صامتين بإصرار . هذا الذكاء نفسه كان يسمح له أن يستغرق كل يوم فى الجريدة، التى كان يقرأ عناوينها الكبيرة ، وهو ماكان يمنحه معرفة ولو سطحية بقضايا العالم. كان مثلا يقول لجاك عندما بلغ الأخير سن الرجال : «هتلر، ليس جيدا، هه». لا ، ليس جيدا. ويضيف الخال: «انهم الألمان، انهم هكذا دائما. » لا ليس كذلك « . نعم ، هناك ألمان طيبون ، يقر الخال. لكن هتلر ليس طيباً» . وعلى الفور كان يغلب عليه بعد ذلك ميله إلى التهريج: «ليفى (تاجر الخردوات المقابل للمنزل)، يشعر بالخوف» . ويقهقه ضاحكا. وكان جاك يحاول شرح الأمور. وكان الخال يعود إلى جده: «نعم. لماذا يريد ايذاء اليهود؟

(*) يلقب أحيانا آرنست وأحيانا اتيين ، الأمر يتعلق دائما بنفس الشخصية : خال جاك .

إنهم مثلهم مثل الآخرين» .

لقد أحب جاك دائما على طريقته . كان معجبا بنجاحه فى الدراسة . وكان يدعك رأس الطفل بيده الصلبة ، التى غطاها العمل اليدوى الشاق والأدوات بطبقة قرنية. «هنا، رأس جيد، هذه صلبة (وكان يضرب رأسه هو بقبضته السميكة) ، لكنها طيبة». وكان أحيانا يضيف : «مثل أبيه» . وذات يوم استغل جاك الفرصة وسأله هل كان أبوه ذكيا . «ابوك رأسه صلب ، كان يفعل ما يريد دائما، امك نعم، نعم دائما» .

ولم يتمكن جاك من استخلاص المزيد منه. على أية حال، كان ارنست يصطحب الطفل كثيرا معه. وكانت قوته وحيويته ، التى لا تستطيع التعبير عن نفسها فى شكل احاديث ولا من خلال العلاقات المعقدة للحياة الاجتماعية، تتفجر فى حياته البدنية وفى احساسه . عند الاستيقاظ، عندما كانوا يهزونه لا نتزاعه من نوم الأصم المحكم، فيهب واقفا تائها ويزأر :

«هان، هان» مثل وحش ما قبل التاريخ الذى يستيقظ كل يوم فى عالم مجهول وعدائى . ولكن على النقيض ، بمجرد أن يستيقظ فان جسده وعمل هذا الجسد كانا يثبتانه على الارض. وعلى الرغم من مهنته القاسية كصانع براميل فانه كان يحب السباحة والصيد. كان يصطحب جاك وهو طفل فى التاسعة إلى شاطىء السابليت، ويجعله يتسلق ظهره وينطلق على الفور إلى عرض البحر، سابحا بضربات بدائية ولكنها قوية ، مطلقا صرخات غير واضحة الالفاظ تعبر أولا عن مفاجأة المياه الباردة، ثم عن لذة الوجود فيها أو عن السخط ضد موجة سيئة . وكان يقول لجاك ، على فترات متباعدة : «أنت لست خائفا» . بلى إنه خائف لكنه لا يقول ذلك، مسحور بهذه الوحدة التى يوجدان فيها، بين السماء والبحر الشاسعين، وعندما يستدير كان الشاطىء يبدو له كخط غير مرئى، وينتابه خوف

حمضى فى معدته ويتخيل مع بداية هلع ، الأعماق السحيقة والمظلمة تحته حيث سيغرق مثل حجر لو فقط افلته خاله، عندئذ كان الطفل يضم بقوة أكبر عنق السباح ذا العضلات . وكان الآخر يقول على الفور : «أنت خائف – لا، ارجع» . فكان الخال ينعطف مطيعا، ويتنفس قليلا وهو فى مكانه ، ثم ينطلق بذات الثقة التى يتمتع بها على الأرض الصلبة. وعلى الشاطىء ، لاهثا بالكاد، كان يفرك جاك بقوة، ويضحك مقهقها ، ثم يستدير ليتبول بعظمة ، ضاحكا دائما ومهنئا نفسه بعد ذلك على حسن اداء مثانته، بينما يضرب على بطنه قائلا:

«جيد، جيد» وهو قول يصاحب عنده كل الاحاسيس الطيبة، والتى كان لا يفرق بينها ، سواء أكانت اخراجا او تغذية ، ويؤكد ايضا وبقدر البراءة نفسه على المتعة التى يستمدها منها، ويرغب أن يجعل القريبين منه يشاركونه هذه المتعة ، وهو ما يثير على المائدة احتجاجات الجدة، التى تقبل الحديث عن هذه الاشياء وتتكلم عنها بنفسها، لكن ليس على المائدة ، كما كانت تقول، مع أنها كانت تسمح بمشهد البطيخ، وهو فاكهة تتمتع بسمعة طيبة، فى مجال ادرار البول، وكان ارنست من ناحية اخرى، يعشقه ويبدأ تناوله اولا بضحكات وغمزات ماكرة من عينه تجاه الجدة، وأصوات متنوعة للمص والضعضعة اللينة ، والتجشؤ، ثم بعد أول قضمات يقضمها حتى جلد شريحة البطيخ فان اشارات باليد كانت توضح عدة مرات المسار الذى من المفترض ان تتخذه الفاكهة الوردية والبيضاء الجميلة من الفم إلى عضو التبول، بينما كان وجهه يبتهج بشكل مذهل بتقطيبات وبارتداد للعيون مصحوبة بكلمات «جيد ، جيد . انه يغسل جيد، جيد» ويصبح المشهد لا يقاوم وينفجر الجميع بالضحك . وكانت ذات البراءة الآدمية تجعله يولى اهتماما غير متناسب بكمية من الالام العابرة التى يشكو منها ، يقطب حاجبيه ، ونظرته متجهة الى الداخل كأنه يفحص ليل اعضائه الغامض. يعلن أنه يعانى من «نقطة»

موقعها شديد التنوع ، ومن «كرة» تتمشى قليلا فى كل مكان. وبعد ذلك عندما التحق جاك بالمدرسة الثانوية، مدركا أن العلم واحد بالنسبة للجميع يسأله مشيرا الى تجويف كليتيه ويقول : «هنا، يشد . هل هنا شيء سيىء ؟» لا إنه لا شيء. وكان ينطلق مرتاحا ، وينزل الدرج بخطوة صغيرة مسرعة ويذهب للحاق برفاق فى مقاهى الحى ذات الأثاث الخشبى وطاولة الشراب المغطاة بالزنك ، وتفوح منها رائحة الانيسون ونشارة الخشب وحيث كان على جاك أن يذهب يبحث عنه أحيانا فى ساعة العشاء ، ولم يكن الطفل يشعر بأدنى دهشة عندما يجد هذا الاصم - الاخرس ، عند طاولة الشراب ، تحيط به دائرة من الرفاق وهو يثرثر بلا توقف وسط ضحك عام، ليس ضحك سخرية ، لأن ارنست كان معبودا من رفاقه لبشاشته وكرمه ..

كان جاك يشعر بذلك جيدا عندما يصطحبه خاله الى الصيد مع رفاقه ، جميعهم عمال فى صناعة البراميل أو فى الميناء أو السكك الحديدية. كان الاستيقاظ عند الفجر . وكان جاك مسئولا عن ايقاظ خاله الذى ينام فى قاعة الطعام، ولا يمكن لأى ساعة تنبيه ان تشده من نومه. اما جاك، فكان يطيع رنين ساعة التنبيه، بينما يستدير اخوه فى السرير مبرطما، وأمه، فى السرير الآخر تتحرك بهدوء دون أن تستيقظ . كان يقوم متحسسا ويحك عود ثقاب ليشعل مصباح البترول الصغير الموضوع على الخوان المشترك للسريرين (آه ! أثاث هذه الغرفة : سريران من الحديد ، احدهما يتسع لشخص واحد، حيث تنام الام، والآخر لشخصين ، حيث ينام الطفلان، وخوان بين السريرين وفى مواجهة الخوان، صوان بمرآة . وللغرفة نافذة تطل على الفناء عند موقع سرير الأم. وأسفل هذه النافذة ، كانت هناك حقيبة من الألياف مغطاة بغطاء من الشباك . وكان جاك يضطر : طوال الفترة التي ظلت فيها قامته قصيرة ، أن يجثو على

الحقيبة لكى يغلق شيش النافذة . أخيرا لم يكن فى الغرفة مقعد. ثم يتوجه الى قاعة الطعام ، يهز خاله الذى كان يزأر ، وينظر بفزع الى المصباح أعلى عينيه ثم يعود أخيرا الى نفسه. ويرتديان ملابسهما . وكان جاك يسخن المتبقى من القهوة فى المطبخ على موقد الكحول الصغير، بينما الخال يجهز الاكياس الممتلئة بالمؤن ، جبن ولحم السويرساد وطماطم بالملح والفلفل وخبز مشقوق دس فيه قرص بيض كبير اعدته الجدة . ثم يفحص الخال للمرة الأخيرة البندقية ذات الماسورتين والخرطوش ، وكان قد دار حولهم احتفال كبير عشية ذلك اليوم . بعد العشاء تم اخلاء المائدة وتنظيف المشمع بعناية. وجلس الخال عند أحد جوانب المائدة وتحت الضوء المتدلى من مصباح البترول الكبير وضع أمامه الأجزاء المفكوكة من البندقية التى قام بتشحيمها بعناية. وعلى الجانب الآخر من المائدة ، كان جاك ينتظر دوره ، وكذلك الكلب بريان . فلقد كان هناك كلب صيد هجين ، يتميز بطيبة غير محدودة يعجز عن ايذاء ذبابة بدليل أنه عندما كان يمسك بواحدة اثناء طيرانها ، فانه يسرع بلفظها مبديا تقززه مصحوبا بعدد كبير من اخراج اللسان وتمطق البراطيل . كان ارنست وكلبه لايفترقان ، وكان تفاهمهما تاما . كان يصعب الامتناع عن التفكير فيهما كزوج (واعتبار ذلك موضع سخرية يعنى عدم معرفة الكلاب وعدم حبهم) . كان الكلب يدين بالطاعة والحنان للرجل ، بينما يقبل الرجل الا يكون له إلا اهتمام واحد. كانا يعيشان معا ولا يفترقان قط، ينامان معا(الرجل على اريكة قاعة الطعام والكلب على سجادة صغيرة رديئة مستهلكة حتى اللحمة) ، ويذهبان معا إلى العمل (الكلب ينام فى سرير من النشارة اعد خصيصا من أجله تحت منضدة العمل فى الورشة) ، ويترددان على المقاهى معا، ينتظر الكلب بصبر بين ساقى سيده الى ان ينتهى من احاديثه . وكانا يتحدثان بالمحاكاة الصوتية وتروق لكل منهما رائحة الآخر. وكان يجب الا يقال لأرنست ان

كلبه، الذى نادرا ما يستحم نفاذ الرائحة خاصة بعد المطر. كان يقول : «انه بلا رائحة»، ويستنشق بحب الجزء الداخلى من اذنى الكلب الكبيرتين المرتجفتين . كان الصيد حفلهما هما الاثنين، ونزهة علية القوم الخاصة بهما . وكان يكفى أن يخرج ارنست الكيس لكى يستسلم الكلب لنوبات جرى مجنونة عبر قاعة الطعام الصغيرة، مما يجعل المقاعد تتراقص تحت ضربات مؤخرة جسمه بينما يرن بذيله على جوانب صوان السفرة . راح ارنست يضحك « لقد فهم لقد فهم » ثم يهدىء الحيوان ، الذى يأتى ليضع رأسه على المائدة متأملا الاستعدادات الدقيقة متثائبا خفية من وقت لآخر دون ان يغادر هذا المشهد اللذيذ قبل أن ينتهى .

وعندما تم تجميع البندقية مرة أخرى راح الخال يعطيها لجاك، الذى يتلقاها باحترام، ويبدأ فى تلميع ماسورتى البندقية بقطعة صوف قديمة . وفى تلك الأثناء كان الخال يعد خرطوشه .

كان يضع أمامه أنابيب من الكرتون صارخة الألوان وقعرها من النحاس ، ويخرج من الكيس ، الذى يضم هذه الأنابيب ، نوعا من القوارير المعدنية تحتوى على البودرة والرصاص ونسيج زغبى من اللبد البنى . وكان يملأ الأنابيب بالبودرة واللبدة بعناية. ثم يخرج آلة صغيرة تشبك بها الأنابيب ذات مقبض يحرك كبسولة تلف حتى مستوى الحشو عند قمة انابيب الكرتون . وبمجرد أن يصبح الخرطوش جاهزا، كان ارنست يمررها واحدة واحدة الى جاك، الذى يضعها بإجلال فى جعبة الخرطوش التى امامه . وفى الصباح كانت اشارة الرحيل عندما يلف أرنست جعبة الخرطوش الثقيلة حول بطنه الذى زاد محيطه نتيجة إرتدائه لصديريتين من الصوف كان جاك يزررهما له وراء ظهره أما بريان الذى ظل منذ الاستيقاظ يتحرك ذهابا وجيئة فى صمت فانه مدرب على التحكم فى فرصته حتى لايوقظ احدا ، وإن كان ينفس اضطرابه وهياجه على كل الأشياء

التى فى متناوله ، كان ينتصب على سيده واضعا قائمتيه على صدره ويحاول مرتفعا بعنقه واسفل ظهره أن يلعق بقوة وكثرة الوجه الحبيب .

وفى الليل الذى أصبح اخف وحيث تموج الرائحة الجديدة لشجر التين كانا يسرعان نحو محطة انما للقطار يتبعهما الكلب بكل سرعته فى سباق كبير متعرج كان ينتهى احيانا بانزلاق على الارصفة المبتلة برطوبة الليل، ثم يعود بالسرعة نفسها ويفزع واضح من أن يكون قد فقدهما وكان اتيين يحمل البندقية مقلوبة فى غلافها المصنوع من الكتان الغليظ وكيس المؤن وكيس الصيد ، بينما يحمل جاك كيسا كبيرا فى كتفه ويضع يديه فى جيوب سرواله القصير . فى المحطة، كان الرفاق هناك ، بصحبة كلابهم التى كانت لا تبتعد عن اسيادها إلا لكى تذهب لاجراء عمليات تفتيش سريعة تحت ذيل الكلاب الاخرى . كان هناك دانيال وبيير، اخان، ورفاق أرنست فى الورشة ، دانيال ضاحك دائما ومفعم بالتفاؤل، بيير اكثر صرامة ومنهجية ومفعم دائما بوجهات النظر والفطنة فيما يتعلق بالناس والأشياء. وكان هناك ايضا جورج الذى يعمل فى مصنع الغاز، وإن كان من وقت لآخر يلعب مباريات ملاكمة يحقق منها بعض الدخل الاضافى . وغالبا ما يكون هناك ايضا اثنان او ثلاثة اخرون، كلهم اناس طيبون ، على الأقل فى هذه المناسبة، سعداء بالهروب لمدة يوم من الورشة ومن الشقة الضيقة المكتظة ، ومن الزوجة احيانا مفعمون بهذه العفوية وبهذا التساهل اللاهى الخاص بالرجال عندما يوجدون مع بعضهم البعض لمتعة قصيرة وعنيفة . كان يتم الصعود بمرح الى احدى عربات القطار التى تفتح كل مقصورة فيها على السلم الصغير، يتناقلون الاكياس فيما بينهم ، ويساعدون الكلاب على الصعود ثم يجلسون ، أخيرا سعداء بالاحساس بانهم جنب الى جنب بعضهم ، ويتقاسمون نفس الدفء . تعلم جاك من هذه الرحلات ان صحبة الرجال جيدة ويمكنها ان تغذى القلب. وكان القطار

يتحرك ، ثم يأخذ سرعته مع لهاث قصير متكرر، وينطلق على فترات متباعدة صوت صفارة قصير كسول ، كان يتم عبور جزء من الساحل وعند ظهور اول الحقول ، كان هؤلاء الرجال الاقوياء الصاخبون يصمتون بشكل مثير للفضول وينظرون الى النهار وهو يشرق على الارض المحروثة بعناية حيث يزحف ضباب الصباح جانبيا على سياج البوص الكبير الجاف الذى يفصل بين الحقول. ومن وقت لآخر كانت باقات شجر تنزلق فى الزجاج مع المزرعة المطلية بالجير التي تحميها وحيث كل شيء نائم . وارتفع فجأة طائر خرج من مكمنه فى الحفرة التى تحد الردم إلى أن بلغ مستواهم ، ثم طار فى اتجاه القطار نفسه وكأنه يحاول ان يسابقه الى أن أخذ ، فجأة ، الاتجاه العمودى على خط سير القطار، وعندئذ بدا وكأنه يقلع فجأة من الزجاج وان ريح السباق قذفت به إلى مؤخرة القطار . كان الافق الاخضر يكتسب لونا ورديا ، ثم تحول فجأة الى الاحمر وظهرت الشمس وارتفعت جليا فى السماء. وكانت تمتص الضباب على كل امتداد الحقول وتواصل ارتفاعها ، وفجأة اصبح الجو حارا فى المقصورة وخلع الرجال صدرية صوفية ثم الاخرى ، وارقدوا الكلاب التى اهتاجت هى ايضا وتبادلوا المزاح ، وبدأ ارنست يروى بطريقته قصصا عن الطعام والمرض وأيضا عن مشاجرات كان يخرج منها فائزا على الدوام . ومن وقت لآخر ، كان أحد الرفاق يسأل جاك عن مدرسته ثم كان ينتقل الحديث إلى شيء آخر أو يشهدونه على ايماءة قام بها ارنست «خالك بطل» ..

تغير المنظر وأصبح صخريا بدرجة اكبر وحلت اشجار البلوط محل اشجار البرتقال ، وكان القطار الصغير ينفث بضيق متزايد مطلقا دفعات كبيرة من البخار . برد الجو فجأة لأن الجبل وقف حائلا بين الشمس والمسافرين، وعندئذ ادرك ان الساعة لا تزال السابعة، واخيرا صفر القطار مرة أخيرة ، وهدأ من

سرعته ، وانعطف ببطء فى منحنى ضيق وافضى الى محطة وحيدة فى الوادى هادئة وخالية ، لأنها لا تخدم سوى مناجم بعيدة، ومزروعة بأشجار الاوكالبتوس الكبيرة التى كانت اوراقها المنجلية الشكل ترتجف فى هواء الصباح، وكان النزول يتم بالضوضاء نفسها وتنزل الكلاب بسرعة من المقصورة مفوتة درجتى سلم عربة القطار المنحدرتين ، ويصطف الرجال من جديد لتناقل الاكياس والبنادق . ولكن عند الخروج من المحطة التى تطل مباشرة على أول المنحدرات ، أغرق صمت الطبيعة البرية اصوات التعجب والصياح شيئا فشيئا ، وانتهى الأمر بالمجموعة الصغيرة ان تتسلق المرتفع فى صمت بينما ترسم الكلاب فى كل جهة حركات متعرجة لا تكل ، كان جاك لا يترك رفاقه الاقوياء . يسبقونه . دانيل ، المفضل لديه، اخذ منه كيسه رغم احتجاجاته ، ومع ذلك كان عليه مضاعفة خطواته ليظل فى مستوى المجموعة ، كان هواء الصباح القاطع يحرق رئتيه . أخيرا وبعد ساعة ، نفذوا إلى حافة هضبة ضخمة مغطاة بأشجار البلوط القزم وأشجار العرعر ، وذات تموجات قليلة الوضوح ، تمد سماء شاسعة ندية ومشمسة بعض الشىء فضاءها أعلى هذه الهضبة . انها ارض الصيد . وكأن الكلاب عرفت ذلك ، فعادت لتتجمع حول الرجال . تم الاتفاق على الالتقاء الساعة الثانية لتناول الغداء ، عند غابة صنوبر صغيرة حيث توجد فى موقع جيد على حافة الهضبة عين ماء صغيرة ، ومن هذا المكان تمتد الرؤية على الوادى وعلى السهل البعيد . ضبطت الساعات . وتجمع الصيادون مثنى مثنى ، وصفروا لكلابهم وانطلقوا فى اتجاهات مختلفة . كون أرنست ودانيل فريقا . وتلقى جاك كيس الصيد الذى تقلده على كتفه بعناية . ومن بعيد أعلن أرنست للآخرين انه سيعود بأرانب وأفراخ حجل أكثر من كل الآخرين . راحوا يضحكون ويحيون باليد ويختفون .

عندئذ تتملك جاك ، نشوة لايزال يحتفظ فى قلبه بحسرتها المذهولة . كان الرجلان يبعدان عن بعضهما مسافة مترين ولكنهما على نفس الارتفاع ، وأمامهما الكلب، أما هو فيبقى فى الخلف ، وكان الخال بنظرته التى تصبح فجأة برية وماكرة يتأكد بدون توقف ان جاك يحافظ على مسافته ، والمسيرة الصامتة التى لاتنتهى ، خلال الأدغال التى ينطلق منها أحيانا بصرخة ثاقبة طائر محتقر ، والنزول فى وهاد صغيرة مفعمة بالروائح كانوا يحازون قاعها ، ثم الصعود مرة أخرى نحو السماء ، المشرقة المتزايدة السخونة ، وجفف ارتفاع الحرارة بسرعة كبيرة الأرض التى كانت مبتلة عند انطلاقهم . أصوات مرتفعة من الناحية الأخرى من الوهد ، والاصطفاق الجاف لسرب من أفراخ الحجل ترابية اللون أخرجها الكلب من مكمنها ، ثم الفرقعة المزدوجة ، المتكررة على الفور تقريبا ، واندفاع الكلب إلى الأمام الذى يعود وعيناه مفعمتان بالجنون ، وفمه ملىء بالدم وبكمية كبيرة من الريش ينزعها منه دانيل وأرنست ، وفى اللحظة التالية ، يتلقاها جاك بخليط من الاثارة والرعب ، ثم البحث عن ضحايا آخرين ، عندما تتم رؤيتهم يسقطون ، ونباح أرنست الذى يصعب تمييزه أحيانا عن نباح بريان ، والسير إلى الأمام من جديد، ويرزح جاك هذه المرة تحت وطأة الشمس رغم قبعته الصغيرة المصنعة من القش، بينما بدأت الهضبة حولهم تهتز بلا رنين مثل سندان تحت مطرقة الشمس، وأحيانا تدوى من جديد فى فرقعة أو اثنتين، لكن ليس أكثر أبدا، لأن أحد الصيادين رأى أرنبا يسارع فى الهرب ، لكنه محكوم عليه بالاعدام مسبقا إذا وقع فى مرمى أرنست ، انه ماهر كالقرد ، عليه ان يجرى بسرعة لاتقل عن سرعة كلبه ، صارخا مثله ، لالتقاط الحيوان القتيل من قائمتيه الخلفيتين ويعرضه من بعد لدانيل وجاك ، اللذين وصلا مبتهجين ولاهثين . ويفتح جاك كيس الصيد واسعا لاستقبال الغنيمة الجديدة قبل الانطلاق مرة أخرى ، مترنحا تحت

الشمس ، وهكذا لساعات غير محدودة وعلى أراض لاحدود لها ، رأسه ضائع فى الضوء الدائم وفضاء السماء الشاسع ، كان چاك يشعر بأنه أغنى الاطفال . وعند العودة لتناول الغداء ، كان الصيادون لايزالون يرقبون الفرصة ، لكن بدون حماس. يجرون سيقانهم ويمسحون جباههم ، إنهم جائعون يصل الواحد تلو الآخر ، ويبرزون الغنائم من بعد لبعضهم البعض ، يسخرون من العائدين بخفى حنين ، مؤكدين انهم دائما نفس الأشخاص ، ويروى الجميع فى وقت واحد حكاية غنائمهم ، ولدى كل منهم تفصيلة خاصة يضيفها . لكن الشاعر المنشد الكبير كان أرنست ، الذى يستحوذ فى النهاية على الحديث ويقلد بحركات دقيقة رحيل سرب أفراخ الحجل ، والأرنب مسرعا بالهرب مكونا قوسين معقوفين ، كان چاك ودانيل خير حكم على مايرويه أرنست . فى تلك الأثناء ، كان بيير، وهو ذو طابع منهجى منظم ، يصب شراب الأنيسون فى أقداح معدنية أخذها من كل منهم وذهب ليملأها بالماء البارد من النبع الذى يسيل بضعف عند أقدام أشجار الصنوبر . أقيمت مائدة غير واضحة المعالم من المسحات ، واخرج كل واحد طعامه . ولكن آرنست الذى يتمتع بمواهب فى الطهى (كانت رحلات صيد السمك فى الصيف تبدأ دائما بحساء السمك الذى يعده فى الهواء الطلق ويضيف له كميات كبيرة من التوابل تكفى لحرق لسان سلحفاء) ، كان يجهز عصيا صغيرة ورفعية ويجعلها مدببة ، ويدخلها فى (قطع لحم السوبر ساد) التى احضرها ، ويشويها على النار حتى تنضج ويسيل منها عصير أحمر يطقطق ويشتعل فى الجمر . وكان يقدم (السوبر ساد) الملتهبة المعطرة بين قطعتى خبز ، والتى يستقبلها الجميع بصيحات اعجاب ويلتهمونها بعد رشها بالنبيذ الوردى الذى وضعوه فى النبع ليبرد . وبعد ذلك ، تتعالى الضحكات ، وحكايات العمل ، والمزاح التى يكاد چاك يسمعها ، وفمه ويداه لزجة ، متسخ ، حيث بعض النعاس يغلبه فى الحقيقة ، فان

النعاس يغلب الجميع ، كانوا يغفون لبعض الوقت ، ناظرين إلى السهل البعيد المغطى ببخار الحرارة ، أو ، مثل أرنست ، ينامون فعلا ، والوجه مغطى بمنديل . غير انه كان يتعين النزول الساعة الرابعة لأخذ القطار الذى يمر فى الخامسة والنصف . هم الآن فى المقصورة ، متكومون من التعب ، بينما تنام الكلاب منهوكة تحت الدكك وبين سيقانهم نوما ثقيلا تتخلله أحلام دموية . بدأ النهار يميل عند ضواحى السهل ، ثم كان الغروب الأفريقى السريع ، وبدون تمهيد بدأ الليل ، المثير دائما للقلق فى هذه المشاهد الكبيرة . وبعد ذلك ، يتعجلون العودة إلى منازلهم وتناول طعام العشاء لكى يناموا مبكرين من أجل العمل فى الغد ، يفترقون سريعا ، وقد هبط الظلام ، بدون كلام تقريبا ولكن بتبادل ضربات كف ودية قوية . كان چاك يسمعهم يبتعدون ، ويستمع إلى أصواتهم الخشنة الدافئة ، كان يحبهم ثم كان يتبع خطوة أرنست ، النشط دائما ، بينما يجر ساقيه. وقرب البيت ، فى الشارع المظلم يستدير الخال نحوه : «هل انت مسرور؟» لم يكن چاك يرد . بينما يضحك أرنست ويصفر لكلبه ، لكن بعد بضع خطوات ، يدس الطفل يده الصغيرة فى يد خاله القوية الخشنة الذى يضمها بقوة . وهكذا يعودان إلى المنزل فى صمت .

غير أن أرنست كان قادرا على نوبات غضب مباشرة وكاملة مثل نوبات استمتاعه ، ان استحالة جعله يستمع الى صوت العقل أو ببساطة مناقشته تجعل نوبات غضبه مشابهة تماما للظاهرة الطبيعية . عاصفة ، يشاهد تكوينها ، ويتم انتظار هبوبها .

لاشىء آخر يمكن القيام به . كانت حاسة الشم عند أرنست مرهفة جدا ، مثل كثيرين من المصابين بالصمم . وكان هذا التميز يحقق له الكثير من أسباب السرور ، عندما كان يستنشق حساء البازلاء أو الأطباق التى يحبها أكثر ،

السبيط ، قرص البيض بالمقانق أو يخنة قلب ورئتى وطحال البقرة ، واللحم المتبل الذى تعده الجدة ، والذى نظرا لقلة تكلفته ، كانت الجدة تقدمه كثيرا على المائدة، وعندما كان يرش الكولونيا الرخيصة يوم الأحد ، فان عطره الليمونى المنعش يظل عالقا دائما بقاعة الطعام ويشعر أرنست ، وكان يستنشق الزجاجة بعمق ونشوة... لكن حساسيته فى هذه النقطة كانت تسبب له متاعب أيضا . كان غير متسامح بالنسبة لبعض الروائح غير المحسوسة للأنف الطبيعية . على سبيل المثال، اعتاد أن يشم طبقه قبل تناول طعامه ، يستشيط غضبا إذا ما اكتشف فى الطبق مايدعى انها رائحة بيض . كانت الجدة تأخذ بدورها الطبق المشكوك فيه ، وتشمه وتعلن انه لاتوجد به أية رائحة ، ثم تمرره إلى ابنتها كى تحصل على شهادتها . كانت كاترين كورمرى تمرر انفها الرقيق على الطبق ، وبدون أن تشم ، تعلن بصوت لطيف انه لاتوجد رائحة بيض . وكان يتم شم الأطباق الأخرى لتدعيم الحكم النهائى بشكل أفضل ، فيما عدا أطباق الطفلين اللذين كانا يأكلان فى قصعات حديدية . (لأسباب غامضة على أية حال ، ربما لقلة آنية المائدة ، أو كما ادعت الجدة ذات يوم ، لتفادى الكسر ، فى حين ان يديه هو وشقيقه لم تكن عديمة المهارة . لكن غالبا ماتفتقد العادات الأسرية أى اساس صلب ، ويثير العلماء الذين يبحثون فى أصل السلالات ضحكى لأنهم يبحثون عن أسباب هذا الكم الهائل من العادات الغامضة . والسر الحقيقى ، فى الكثير من الحالات ، أنه لايوجد سبب اطلاقا .) ثم تصدر الجدة الحكم : لايشتم من الطبق رائحة البيض . لم تكن ، فى الحقيقة ، لتحكم بشكل مختلف أبدا ، خاصة إذا كانت هى التى غسلت الأطباق فى العشية ، انها لاتستسلم قط فيما يتعلق بشرفها كربة بيت . وعندئذ كان ينفجر الغضب الحقيقى لأرنست ، لاسيما انه كان لايجد الكلمات التى تعبر عن اقتناعه . وكان يتعين ترك العاصفة تمر ، سواء بأن ينتهى بمقاطعة

العشاء ، أو ان يلتقط الطعام من الطبق بتقزز رغم أن الجدة غيرته ، أو أن يترك المائدة ويندفع خارجا معلنا انه ذاهب إلى المطعم ، وهو نوع من المؤسسات التى لم تطأها قدماه قط ، ولا أحد من أهل البيت ، وإن كانت الجدة تنطق بهذه الجملة الحتمية : « اذهب الى المطعم» ، فى كل مرة يرتفع فيها السخط على المائدة . وهكذا يبدو المطعم للجميع كأحد الأماكن التى تتسم بالاغراء الخادع ، حيث يبدو كل شىء سهلا بمجرد ان تتوافر امكانية الدفع ، لكن المعدة تدفع غاليا ، آجلا أو عاجلا ، ثمن المتع الأولى والمذنبة التى يوفرها . فى كل الحالات ، كانت الجدة لاترد ابدا على نوبات غضب ابنها . لأنها ، من ناحية ، تعلم جيدا أن ذلك غير مجد ، ومن ناحية أخرى كان لديها دائما ضعف غريب تجاهه ، قد عزا چاك ذلك، منذ ان بدأ يقرأ قليلا ، إلى حقيقة ان أرنست معاق (بينما توجد أمثلة كثيرة على نقيض هذه الفكرة المسبقة ، حيث يتحول الأهل عن الطفل المستضعف) وبعد ذلك بوقت طويل فهم ذلك الضعف بشكل أفضل ، عندما فاجأ ذات يوم نظرة جدته الفاتحة ترق فجأة بحنان لم يره لديها قط من قبل ، وعندما استدار رأى خاله يلبس سترة بدلة يوم الأحد . كان أرنست يبدو له جميلا جدا ، وهو ما كان عليه فى الحقيقة بوجهه الشاب الدقيق المحلوق حديثا ، وشعره المصفف بعناية ، وقد جعله قماش البدلة الغامق يبدو أكثر نحافة ، ومرتديا بشكل استثنائى ياقة جديدة ورابطة عنق . وعندئذ فهم ان الجدة تحب ابنها ماديا ، وانها مغرمة ، مثل الجميع، بأناقة أرنست وقوته ، وأن ضعفها الاستثنائى امامه كان على أية حال ضعفا شائعا تماما ، ان الضعف أمام الجمال يجعلنا أقل صلابة بدرجة أو أخرى، وبشكل لذيذ ويسهم فى جعل العالم محتملا.

كان چاك يتذكر ايضا موجة غضب أخرى لخاله أرنست ، ولكنها كانت أخطر، لأنها كادت تؤدى الى مشاجرة مع الخال جوزفين ، الذى يعمل فى السكك

الحديدية . كان جوزفين لايبيت فى منزل امه . بل يسكن غرفة فى الحى (غرفة لم يدع اليها أحدا من عائلته ولم يرها چاك أبدا على سبيل المثال) ويتناول وجباته لدى امه التى يدفع لها مبلغا صغيرا كل شهر . كان جوزفين يختلف كل الاختلاف عن أخيه . فهو يكبره بعشر سنوات تقريبا ، وله شارب قصير وشعر واقف ، كان أكثر ضخامة من أرنست ، وأكثر انطواء وبشكل خاص أكثر حرصا فيما يتعلق بالنقود . كان أرنست يتهمه عادة بالبخل . فى الحقيقة ، كان يعبر بشكل أبسط قائلا : «انه زابى» . والزابيون بالنسبة له هم بقالو الحى ، القادمون بالفعل من «الزاب» (*) الذين يعيشون لسنوات عديدة على لاشىء وبدون زوجات فى خلفيات دكاكينهم التى تفوح منها رائحة الزيت والقرفة لكى يعولوا اسرهم فى مدن الزاب الخمس ، فى قلب الصحراء ، حيث رسا الخوارج منذ قرون ، الذين تعرضوا لاضطهاد السنيين ومطاردتهم ، فى مكان اختاروه لأنهم كانوا على يقين أن لا أحد سينازعهم اياه ، حيث لايوجد به سوى الزلط ، ويبعد عن عالم الساحل نصف المتمدين بعد كوكب قشرى وبدون حياة عن الأرض ، واستقروا هناك واقاموا خمس مدن ، حول نقاط ماء شحيحة ، متخيلين هذا النوع الغريب من التقشف والزهد ألا وهو ارسال الرجال الاصحاء الى مدن الساحل ليتاجروا من أجل رعاية هذا التكوين الذهنى والحفاظ عليه ، إلى أن يتم احلال آخرين محلهم ويعودوا ليستمتعوا فى مدنهم المحصنة بالتراب والطين بمملكة الايمان التى فازوا بها أخيرا . وبالتالى لايمكن الحكم على حياة هؤلاء الزابيين البسيطة وخشونة طباعهم إلا طبقا لأهدافهم العميقة . لكن سكان الحى من العمال الذين يجهلون الاسلام وخوارجه كانوا لايرون سوى المظهر . وبالنسبة لأرنست ، كما لكل الناس، فإن مقارنة أخيه بالزاوى تعنى مقارنته بأرباچون(**) فى الحقيقة ، كان

(*) سكان الزاب فى جنوب الجزائر وهم ينتمون إلى الخوارج .

(**) شخصية البخيل فى مسرحية موليير التى تحمل الاسم نفسه .

جوزفين حريصا على نقيض أرنست الذى كان «قلبه على كفه» ، على حد قول الجدة . (وعندما تكون حانقة عليه ، كانت على العكس تتهم نفس اليد بأنها «مثقوبة» .) لكن ، فضلا عن اختلاف الطبائع ، كان هناك واقع ان جوزفين يكسب أكثر قليلا من اتيين ، وان الاسراف والتبذير أسهل دائما فى الفقر . فمن النادر أن يستمر الشخص فى العطاء بعد أن يكتسب وسائله . هؤلاء هم ملوك الحياة ، ويجب تحيتهم والانحناء لهم بشدة . لم يكن جوزفين بالطبع ثريا ، لكن بالإضافة إلى راتبه الذى كان يتصرف فيه بمنهجية (كان يتبع طريقة المظاريف ، ولكنه أبخل من ان يشترى مظاريف حقيقية ، فكان يصنعها من ورق الصحف أو ورق البقالة) ، كان يحصل على دخل إضافى عن طريق تدابير صغيرة مدروسة بشكل جيد . بما انه يعمل فى السكك الحديدية ، كان من حقه أن يحصل على تصريح انتقال كل أسبوعين . وبالتالى كان يستقل القطار يوم الأحد كل أسبوعين ، كى يذهب إلى مايسمى بـ «الداخل» أى البلد (*) ، ويجوب المزارع العربية لشراء البيض والفراخ الضامرة والأرانب بسعر منخفض كان يرجع بهذه البضاعة ويبيعها بربح معتدل لجيرانه . كانت حياته منظمة على جميع الأصعدة . ولم تعرف له زوجة . ومن ناحية أخرى ، بين أسبوع العمل وأيام الآحاد المخصصة للتجارة كان ينقصه بالطبع وقت الفراغ الذى تتطلبه ممارسة الشهوة الجنسية . ولكنه يعلن دائما انه عندما سيبلغ الأربعين سيتزوج من امرأة ذات وضع اجتماعى . وحتى يحين ذلك سيبقى فى غرفته ويجمع المال ويستمر فى العيش جزئيا عند أمه . ومهما بدا ذلك غريبا ، نظرا لقلة جاذبيته ، فلقد نفذ خطته كما قالها ، وتزوج مدرسة بيانو كانت أبعد ما تكون عن الدمامة ، وجلبت له ، لبضع سنوات على الأقل ، مع قطع أثاثها ، السعادة البرجوازية . والحقيقة أن جوزفين احتفظ فى

(*) البلد : الريف

النهاية بالأثاث وليس بالزوجة . لكن تلك حكاية أخرى ، والشىء الوحيد الذى لم يتوقعه جوزفين ، هو اضطراره بعد مشاجرته مع اتيين ، ألا يتناول وجباته عند أمه وان يستخدم لذات المطعم باهظة الثمن . لا يتذكر چاك أسباب المأساة . مشاجرات غامضة كانت أحيانا تقسم أسرته ، ولم يكن بامكان أحد فى الحقيقة أن يوضح جذورها أو أصولها ، لاسيما أن الذاكرة تنقص الجميع ، كانوا لا يتذكرون الأسباب ، مكتفين بالمحافظة آليا على النتيجة بعد قبولها واجترارها . بالنسبة لذلك اليوم ، يتذكر فقط أرنست واقفا أمام المائدة التى لايزال الطعام عليها وصارخا بسباب غير مفهوم ، فيما عدا لفظ الزابى ، فى أخيه الذى ظل جالسا يتناول طعامه . ثم لطم أرنست أخاه الذى قام وارتمى إلى الخلف قبل ان يرتد اليه . لكن الجدة تشبثت بارنست ، فى حين كانت أم چاك ، شاحبة من الانفعال ، تشد جوزفين من الخلف ، وكانت تقول : «اتركه ، اتركه» ، والطفلان شاحبان وفاغرا الأفواه ، ينظران دون حراك ويستمعان إلى فيض اللعنات الحانقة التى تتدفق فى اتجاه واحد ، إلى أن قال جوزفين بهيئة عابسة : « انه حيوان قط، لا يمكن عمل شىء له ، ولف حول المائدة بينما امسكت الجدة بأرنست الذى يريد أن يجرى وراء أخيه . وبعد صفق الباب مباشرة ظل أرنست هائجا . وراح يقول لأمه : «اتركينى ، اتركينى ، سوف أذيك » . لكنها شدته من شعره وهى تهز ، : «انت ، انت ، ستضرب امك ؟» وسقط أرنست على مقعده باكيا : «لا لا ، ليس انت ، انت مثل الرب الرحيم بالنسبة لى !» وذهبت والدة چاك لتنام دون أن تكمل طعامها ، وفى اليوم التالى كانت تعانى من الصداع . ومنذ ذلك اليوم لم يعد جوزفين قط ، إلاّ أحيانا ليزور أمه ، وعندما يتأكد أن أرنست ليس بالبيت .

(*) هناك غضب آخر لم يكن چاك يحب ان يتذكره ، لأنه يرغب ، هو أن يعرف سببه . طوال فترة من الزمن ، كان هناك سيد يسمى انطوان ، تربطه معرفة غير

(*) حياة أرنست وكاترين معا بعد وفاة الجدة .

واضحة بأرنست ، تاجر أسماك فى السوق ، من أصل ملطى ، هيئته جميلة ، نحيف وطويل ، كان يلبس دائما قبعة غريبة الشكل لونها غامق وفى الوقت نفسه منديل مربعات ملفوف يعقده حول عنقه ، داخل قميصه ، وكان يأتى بانتظام إلى البيت فى السماء ، قبل العشاء . وبالتفكير فى الأمر فيما بعد ، لاحظ چاك ما لم يلفت نظره فى البداية ، أن أمه كانت تهتم بمظهرها قليلا ، وتلبس مرايل ألوانها فاتحة ، بل كان يرى ظلا من الحمرة فى وجنتيها . كانت تلك هى الفترة أيضا التى بدأت النساء فيها قص شعورهن بينما كانت هى تحتفظ به طويلا حتى ذلك الحين.

ومن ناحية أخرى ، كان چاك يحب مشاهدة أمه أو جدته عندما تباشران حفلة تصفيف شعرهما حيث تضعان فوطة على الأكتاف ، والفم ملىء بالدبابيس ، تمشطان طويلا الشعر الأبيض أو البنى ، ثم ترفعان الشعر وتزمانه بشدة بعصابات مسطحة لتكوين كعكة صغيرة أعلى القفا ، وتثقبانها عندئذ بالدبابيس التى تنزعانها الواحد تلو الآخر من فم كل منهما ، ذى الشفتين المتباعدتين والأسنان المزمومة ، وتزرعانها واحدا تلو الآخر فى كتلة الكعكة الكثيفة . كانت الموضة الجديدة تبدو للجدة آثمة ومثيرة للسخرية ، دون أن تقدر القوة الحقيقية للموضة حق قدرها ، وكانت تؤكد دون أن تهتم بالمنطق أن النساء اللاتى «تستسلمن للملذات» هن فقط اللاتى يرضين بجعل أنفسهن مثاراً للسخرية هكذا .

وقد اعتبرت والدة چاك ان ذلك أمر متفق عليه ، غير أنها بعد عام تقريبا ، وفى فترة زيارات انطوان ، دخلت ذات مساء وشعرها مقصوص ، وقد استعادت شبابها ونضارتها ، معلنة بمرح زائف يطل القلق من ورائه ، انها أرادت ان تعمل لهم مفاجأة .

كانت بالفعل مفاجأة للجدة ، التى تفحصتها متأملة الكارثة التى لا علاج لها ، واكتفت بأن تقول لها ، أمام ابنها ، إنها تبدو الآن مثل المومس . ثم عادت إلى

مطبخها . توقفت كاترين كورمرى عن الابتسام ، وارتسم كل بؤس واعياء العالم على وجهها . ثم التقت بنظرة ابنها الثابتة ، وحاولت ان تبتسم ثانية ، لكن شفتيها ارتعشتا واندفعت باكية إلى حجرتها ، على السرير الذى ظل الملاذ الوحيد لراحتها ووحدتها وهمومها ، واقترب چاك منها ، مذهولا ، وقد خبأت وجهها فى الوسادة ، وخصلات شعرها القصيرة التى تكشف قفاها وظهرها النحيف تهتز من النحيب . قال چاك وهو يلمسها على استحياء :«ماما ، ماما ، أنت جميلة جدا هكذا» لكنها لم تسمعه وطلبت منه بإشارة من يدها أن يتركها . تراجع حتى عتبة الباب ، ثم مستندا إلى اطار الباب ، أخذ هو أيضا فى البكاء عجزا وحبا .

ولعدة أيام متوالية ، لم توجه الجدة الحديث لابنتها . وفى الوقت نفسه ، كان يتم استقبال انطوان عندما يأتى ، بمزيد من البرود .

كان وجه أرنست متجهما بالرغم من أن انطوان ذو حديث جذاب ، فانه كان يشعر بذلك تماما . ما الذى يدور إذن ؟ رأى چاك عدة مرات آثار دموعه فى عينى أمه الجميلة . كان أرنست يلتزم الصمت فى أغلب الاحيان ويدفع حتى بريان . وذات مساء صيفى ، لاحظ چاك أن خاله ، على ما يبدو ، يراقب شيئا من الشرفة. سأل الطفل : «هل سيأتى دانيال ؟» دمدم الآخر فجأة رأى چاك انطوان يصل بعد انقطاع عدة أيام .

اندفع أرنست ، وبعد بضع ثوان ، تصاعدت من السلم أصوات مبهمة . اندفع چاك ورأى الرجلين يتقاتلان فى الظلام دون أن ينبسا بكلمة وكان أرنست ، دون ان يشعر بالضربات يضرب بقبضته القوية مثل الحديد ، وفى اللحظة التالية تدحرج انطوان أسفل السلم ، ثم نهض والدم ينزف من فمه ، أخرج منديلا ليمسح دمه ، دون أن يتوقف عن النظر إلى أرنست الذى يمضى كالمجنون . وعندما دخل ، وجد چاك أمه جالسة فى قاعة الطعام ، بلا حراك وتقاطيعها

جامدة وجلس هو أيضا دون أن يقول شيئا . ثم دخل أرنست وهو يغمغم بشتائم وألقى نظرة حانقة على اخته . مر العشاء كالمعتاد ، فيما عدا ان أمه لم تأكل ، قالت فقط لأمها التى ظلت تلح عليها : «لست جائعة» . وعند انتهاء العشاء ، ذهبت إلى حجرتها . وخلال الليل ، سمعها چاك المستيقظ ، تتقلب فى سريرها ، وابتداء من اليوم التالى ، عادت إلى أثوابها السوداء أو الرمادية ، وهيئتها الصارمة الخاصة بالفقراء . كان چاك يرى انها لا تقل جمالا ، بل أكثر جمالا أيضا بسبب شرودها وغيابها المتزايد ، وقد استقرت الآن بشكل نهائى فى الفقر والوحدة والشيخوخة القادمة .

ولفترة طويلة ، ظل چاك يحقد على خاله ، دون أن يعرف بدقة ما الذى يمكن أن يلومه عليه . ولكنه فى نفس الوقت ، كان يعرف انه لا يمكن الحقد عليه ، وانه إذا كان الفقر والاعاقة والعوز الذى تعيش فيه اسرته كلها ، لا يبرر كل شىء ، فانه على أية حال يمنع إدانة أى شىء لدى ضحاياه .

انهم يؤذون بعضهم دون الرغبة فى ذلك ، فقط لانهم يمثلون بالنسبة لبعضهم البعض الحاجة الملحة القاسية على أية حال ، كان لا يستطيع أن يشك فى ارتباط خاله شبه الحيوانى بالجدة أولا ثم بأم چاك وابنائها . ولقد أحس بذلك ، يوم حادثة ورشة البراميل كان چاك يذهب كل يوم خميس إلى ورشة البراميل . وإذا كانت لديه واجبات عليه ان ينجزها بمنتهى السرعة فانه يجرى مسرعا نحو الورشة بنفس النشاط الذى يدفعه مرات أخرى للحاق بأصدقائه فى الشارع . كانت الورشة تقع قرب ساحة المناورة وهى عبارة عن فناء مزدحم بالحطام وبوائر حديدية قديمة ، ورماد الفحم الحجرى وآثار نيران مطفأة وعلى أحد جوانب هذا الفناء ، تم بناء سقف من الطوب المدعم بأعمدة من الدبش على مسافات منتظمة . كان العمال الخمسة أو الستة يعملون تحت هذا السقف . ويشغل كل منهم مبدئيا

مكانه المحدد ، أى منضدة عمل مثبتة بجوار الحائط ويوجد أمامها حيز خالٍ يتيح تركيب البراميل ، ويفصل بينه وبين المكان التالى ، دكة بدون مسند للظهر بها شق كبير يسمح بانزلاق قيعان البراميل فيه وشحذها يدويا بواسطة اداة تشبه لدرجة كبيرة سكين الفرم ، ولكن جانبها الضامر يقع من ناحية الرجل الذى يمسك بالمقبضين . كان هذا التنظيم ، للحق ، لا يتضح من النظرة الأولى . لقد تم توزيع المهام بهذا الشكل فى البداية ، لكن بالتدريج نقلت الدكك من أماكنها ، وتكدست الدوائر الحديدية بين مناضد العمل ، وكانت صناديق مسامير البرشام تنتقل من مكان لآخر ، ويتطلب الأمر مراقبة طويلة ، أو مخالطة دائمة ، والأمران سيان ، لملاحظة ان حركات كل عامل تنتشر دائما فى المساحة نفسها . وقبل أن يبلغ الورشة كى يعد طعاما خفيفا للخال ، كان چاك يتعرف على ضجيج ضربات الشاكوش فوق المقصات التى تعمل على غرز دوائر الحديد حول البراميل التى تم تجميع ضلوعها ، وكان العمال يضربون على أحد طرفى المقص بينما يمررون بخفة ومهارة الطرف الآخر حول الدائرة بالكامل - أو كان يتوقع أيضا من أصوات أقوى وأكثر تباعداً انهم يقومون بربط الدوائر الموضوعة فى ملزمة منضدة العمل . وعندما يصل إلى الورشة وسط ضوضاء الشواكيش كان يستقبل بتحية مرحة ثم يعود رقص الشواكيش مرة أخرى . يرتدى أرنست ، سروالا أزرق قديما مرتقا ، وحذاء من القماش تغطيه النشارة ، وفانلة رمادية بدون أكمام ويضع على رأسه غطاء قديما من الشاش لونه حائل لكى يحمى شعره الجميل من التراب والنشارة ، كان يقبله ويقترح عليه ان يساعده . أحيانا يمسك چاك بالدائرة مرفوعة على السندان الذى كان يضغطها على امتداد عرضه ، بينما يضرب الخال بكل قوة ذراعه ليسحق مسامير البرشام كانت الدائرة تهتز بين يدى چاك، وكل ضربة شاكوش تحفر كفيه ، أو بينما يجلس أرنست مفرشحا عند أحد طرفى

الدكة ، كان چاك يجلس بالطريقة نفسها عند الطرف الآخر وهو يمسك قاع البرميل الذى يفصل بينهما بينما يقوم أرنست بشحذه . أمّا الشيء الذى كان يفضله فهو احضار اضلاع البرميل وسط الفناء ليقوم أرنست بتجميعها بشكل تقريبى مثبتا إياها بواسطة حلقة يمررها بمنتصفها وفى وسط البرميل المفتوح من الجانبين يجمع أرنست النشارة التى على چاك أن يشعل فيها النار . وتجعل النار الحديد يتمدد أكثر من الخشب ، ويستفيد أرنست من ذلك لغرز الحلقة إلى الأمام بضربات قوية من المقص والشاكوش ، وسط الدخان الذى يجعل العيون تبكى . وعندما تنغرز الحلقة ، يحضر چاك الدلاء الخشبية الكبيرة التى ملأها بالماء من المضخة التى فى نهاية الحوش ، كان الجميع يبتعدون بينما يلقى أرنست الماء بقوة على البرميل ليبرد الحلقة ، التى تنكمش وتشد أكثر على الخشب الذى جعله الماء لينا ، وسط تصاعد كمية كبيرة من البخار .

وكانوا يتركون العمل لتناول قليلا من الطعام ، ويتجمع العمال حول نار النشارة والخشب شتاء وتحت ظل السقف صيفا .

كان هناك بدير ، العامل العربى الذى يرتدى سروالا عربيا يتدلى حجره فى كسرات وتتوقف رجلاه عند منتصف ربلة الساق ، وسترة قديمة فوق تريكورث وغطاء للرأس من الشاش ، وكان يقول لچاك بلهجة غريبة «زميلى» لأنه كان يؤدى العمل نفسه الذى يقوم به چاك عندما يساعد أرنست كان هناك أيضا صاحب العمل ، الذى كان فى الواقع عاملا قديما فى ورشة براميل وكان ينفذ مع مساعديه طلبيات لورشة براميل أكبر مجهلة الاسم وعامل ايطالى حزين دائما يعانى من الرشح . وخاصة دانيال المرح الذى يأخذ چاك دائما إلى جانبه ، ليداعبه ويلاطفه . كان چاك ينفلت ، وينتقل من مكان لآخر فى الورشة ، مريلته

السوداء مغطاة بالنشارة ، وقدماه عاريتان ، إذ كان الجو حارا ، فى حذاء ردىء بسيور ، يغطيه التراب والنشارة ، وكان چاك يتنفس باستمتاع رائحة النشارة وقطع الخشب الصغيرة الطازجة ، وكان يعود مرة أخرى إلى النار لكى يمضغ بهدوء الدخان اللذيذ الذى يخرج منها أو يجرب بحرص أداة شحذ قيعان البراميل على قطعة خشب يحشرها فى الملزمة ، وكان يستمتع عندئذ بمهارة يديه التى كان يثنى عليها كل العمال .

وخلال إحدى فترات الراحة تلك وقف بغباء على الدكة بنعال مبللة . وفجأة انزلق إلى الأمام ، بينما انقلبت الدكة إلى الخلف ، ووقع بكل ثقله وانحشرت يده اليمنى تحت الدكة شعر بألم غير حاد فى يده ، ولكنه نهق ضاحكا أمام العمال الذين هرعوا اليه . قبل أن ينتهى من الضحك ، ارتمى أرنست عليه ، وأخذه بين ذراعيه واندفع خارج الورشة ، يجرى بلا توقف متلعثماً : عند الطبيب ، عند الطبيب» عندئذ رأى الأصبع الوسطى ليده اليمنى مسحوقا تماما عند طرفه مثل عجينة غليظة قذرة لا شكل لها ويسيل منها الدم . وفجأة اغمى عليه . وبعد ذلك بخمس دقائق كان عند الطبيب العربى الذى يسكن أمام بيتهم . راح ارنست يقول وهو شاحب اللون :« لاشىء يا دكتور لا شىء ، هه» قال الطبيب :

– انتظرنى فى مكان قريب سيكون شجاعاً ، وكان الأمر يتطلب ذلك ، ويشهد على شجاعته اصبع چاك الوسطى الغريب المرتوق . ولكن بعد وضع الضمادة والمشابك ،منحه الطبيب ، مع مشروب منعش ومقوى ، شهادة شجاعته . إلا ان ذلك لم يحل دون رغبة أرنست فى ان يحمله مرة أخرى لعبور الشارع ، ولصعود سلالم منزلهم ، وأخذ يقبل الطفل وهو يئن ويضمه إليه بقوة لدرجة انه كان يولمه .

قال چاك : «امى ، هناك من يطرق الباب » .

ردت الأم : إنه أرنست ، افتح له . إننى اوصد الباب بسبب اللصوص» .

وعلى عتبة الباب، اطلق أرنست ، عندما اكتشفت چاك ، هتاف المفاجأة ، وقبله ناصبا هامته . بالرغم من الشعر الذى أصبح أبيض تماما ، احتفظ أرنست ، بطريقة مدهشة ، بوجه شاب ، منتظم ومتناسق ، لقد ازدادت استدارة ساقيه المعوجتين ، وانحنى الظهر تماما ، ومع أرنست يمشى مباعدا الذراعين والساقين. وسأله چاك :« هل تسير الأمور على ما يرام ؟» لا ، يعانى من وخز وألم ومن الروماتيزم ، الأمور سيئة ، وچاك ؟ نعم كل شىء يسير على ما يرام ، ما أقواه ، هى (ويشير بأصبعه إلى كاترين) كانت سعيدة برؤيته مرة أخرى . منذ وفاة الجدة ورحيل الأبناء ، كان الأخ والأخت يعيشان معا ولا يستطيعان أن يتخلى أحدهما عن الآخر . كان هو يحتاج إلى من يهتم به ، ومن هذا المنظور كانت هى زوجته ، التى تعد الطعام وتجهز له غسيله وتعالجه عند الضرورة . لم تعد بحاجة إلى نقود لأن ولديها يؤمنان معاشها ، ولكن إلى صحبة رجل ، وكان يسهر على راحتها بطريقته منذ سنوات عاشا خلالها كزوج وزوجة نعم ، ليس تبعا للغريزة الجنسية ولكن لقرابة الدم ، يتعاونان على الحياة بينما إعاقة كل منهما كانت تجعل الحياة صعبة للغاية ، ويتابعان حوارا أخرس تضيئه على فترات متباعدة نتف من الجمل، ولكنهما أكثر توحدا ويعرف كل منهما عن الآخر أكثر من العديد من الأزواج العاديين .

قال أرنست : نعم ، نعم ، چاك ، چاك ، دائما تتحدث

– هكذا إذن ، أجاب چاك وها هو بالفعل ، يجد نفسه مرة أخرى بينهما هما الاثنان كما فى السابق ، عاجزا عن أن يقول لهما شيئا ولا يتوقف أبدا عن حبهما، هما على الأقل ، ويحبهما أكثر لأنهما اتاحا له أن يحب فى حين انه طالما أخفق فى حب كائنات كثيرة كانت تستحق الحب .

ودانيال ؟

– بخير ، انه عجوز مثلى ، بيير أخوه فى السجن .

– لماذا ؟

– يقال النقابة . اعتقد انه مع العرب .»

وفجأة قلقا :

– قل ، اللصوص ، أهذا جيدٌ ؟

أجاب چاك : لا العرب الآخرون نعم ، اللصوص لا

– حسن ، قلت لأمك أصحاب العمل القساة جدا . كان جنونا ولكن اللصوص ليس ممكنا .

قال چاك : هكذا ، ولكن يجب عمل شيء من أجل بيير .

– حسن ، سأقول لدانيال .

– ودونات ؟ (موظف الغاز الملاكم)

– لقد مات . سرطان ، كلنا عواجيز .

نعم ، دونات مات . والخالة مارجريت ، أخت أمه ، ماتت ، التى كانت جدته تجره عندها عصر أيام الأحد حيث كان يشعر بالضجر بشكل بشع ، إلاَّ عندما كان العم ميشيل يشعر بالملل أيضا من تلك الأحاديث فى قاعة الطعام المعتمة، حول أقداح القهوة السوداء على مفرش المائدة المشمع، ويصحبه إلى ا سطبله القريب جداً، وهناك فى الغبش ، بينما شمس العصر تسخن الشوارع فى الخارج ، كان يشم أولاً رائحة الشعر الطيبة ورائحة التبن وروث الخيول، ويسمع سلاسل المقاود تحك فى المعلف الخشبى ، بينما الخيول تدير نحوها نظرتها ذات الرموش الطويلة ، وكان العم ميشيل وهو طويل وجاف بشارب طويل وتنبعث منه رائحة التبن، يرفعه على أحد الخيول ، وكان الحصان يغوص من جديد، ساكنا، فى معلفه ويطحن من جديد تبنه بينما كان العم يحضر للطفل ثمار الخروب التى

كان يمضغها ويمصها بلذة ، تملؤه صداقة لهذا العم الذى يرتبط فى ذهنه دائماً بالخيول ، وبصحبة هذا العم ، كانوا يذهبون يوم الاثنين من عيد الفصح مع كل العائلة للاحتفال فى غابة سيدى، فروش ، وكان ميشيل يؤجر عربة أشبه بالترام تجرها الخيول وتقوم بنقل الركاب من الحى الذى يسكنونه إلى وسط العاصمة، وهى أشبه ما تكون بقفص كبير ذى فتحات مزودة بدكك ظهرها فى ظهر بعضها، وكان ميشيل يختار لقيادة طابور الخيل حصاناً من اسطبله ، وفى الصباح الباكر يتم تحميل سلال الغسيل الكبيرة المليئة بنوع من «البريوش» البدائى يسمى «مونا» وبفطائر خفيفة هشة ، فى الترام ، ولمدة يومين قبل تلك النزهة ، كانت كل سيدات المنزل تشاركن فى صنع هذه الفطائر عند الخالة مارجريت ، حيث يتم فرد العجينة على مفرش المشمع المغطى بالدقيق ، بواسطة اسطوانة خاصة لذلك، حتى تكاد العجينة تغطى المفرش كله، بواسطة قطاعة خاصة يتم تقطيع الفطائر التى كان الأطفال يحملونها فى صحون ليتم قليها ، وكان يرمى بها فى مقلات ضخمة مليئة بالزيت المغلى، ليتم رصها بعد ذلك بعناية فى سلال الغسيل الكبيرة التى يتصاعد منها عندئذ رائحة الفانيليا اللذيذة التى كانت تصاحبهم طوال الطريق حتى سيدى – فروش ، تختلط بها رائحة رذاذ البحر الذى كان يصل حتى الطريق الساحلى ، الذى كانت الخيول الأربعة تلتهمه بقوة بينما ميشيل يفرقع فوقها السوط الذى يمرره من وقت لآخر إلى چاك الجالس إلى جواره ، وچاك مبهور بالأرداف الأربعة الضخمة التى تتمايل تحته فى ضجيج كبير من الجلجلة أو تنفتح بينما يرتفع الذيل ويرى الروث الشهى يتشكل ثم يسقط على الأرض ، بينما يتطاير شرر من الحديد وتسرع الجلاجل من رنينها عندما تهز الخيل رأسها . وفى الغابة، بينما يضع الآخرون سلال الغسيل والمسحات بين الأشجار ، كان چاك يساعد ميشيل فى تجفيف عرق الخيول بقبضة حشيش جاف وفى ربط

معالف من القماش فى أعناقها كانت تعمل فكوكها فيها، وهى تقفل وتفتح عيونها الأخوية الكبيرة ، أو تطرد ذبابة بقدم نافد الصبر . كانت الغابة مكتظة بالناس ، يأكلون على بعضهم البعض ويرقصون من مكان إلى آخر على صوت الأوكورديون أو الجيتار، والبحر يهدر على مقربة ، لم يحدث أبداً أن كان الجو حاراً بما فيه الكفاية للاستحمام فى البحر ولكن دافىء دائما بما يسمح بالسير فى الأمواج الأولى حافى القدمين ، ويقيل الآخرون بينما يجعل الضوء الذى يلطف بشكل غير محسوس مساحات السماء أكثر اتساعاً ، شديد الاتساع لدرجة ان الطفل كان يشعر بالدموع تتصاعد داخله وفى الوقت نفسه صرخة فرح وامتنان كبيرة نحو الحياة الرائعة . لكن الخالة مارجريت ماتت، يقال انها كانت دائما جميلة جداً وانيقة وشديدة الاهتمام بزينتها ، انها لم تخطىء طالما ان مرض السكرى اقعدها فكانت لا تتحرك من على المقعد ، حيث انتفخت فى الشقة بلا عناية حتى أصبحت ضخمة ومنتفخة لدرجة انها كانت تتنفس بصعوبة ، وأصبحت قبيحة لدرجة مخيفة، محاطة ببناتها وابنها الأعرج ، الذى كان يعمل اسكافيا ، وكان يرقب بقلب مقبوض هل ستخونها أنفاسها . وكانت تزداد سمنة، محشوة بالأنسولين ، وبالفعل خانتها أنفاسها فى النهاية .

ماتت أيضاً العمة چان ، اخت الجدة ، التى كانت تحضر حفلات الموسيقى التى كانت الجدة تقيمها عصر أيام الأحد والتى قاومت طويلا فى مزرعتها المطلية بالجير وسط بناتها الثلاث أرامل الحرب، وكانت تتكلم دائما عن زوجها المتوفى منذ أمد طويل، العم جوزيف ، الذى لا يتكلم سوى الماهونى والذى كان چاك معجبا به بسبب شعره الأبيض الذى يعلو وجها جميلا موردا وقبعته السوداء عريضة الحافة التى كان يلبسها حتى على المائدة ، بهيئة نبل فريدة ، رب عائلة ريفى حقيقى، وإن كان يحدث أحياناً أن يرفع نفسه قليلا عن مقعده أثناء الأكل

لكى يفلت فظاظة صوتية ويعتذر عنها بلطف أمام لوم زوجته المستسلم . وجيران جدته ، الماسون ، كلهم توفوا ، السيدة العجوز أولا ثم الأخت الكبرى، الكسندرا الكبيرة، والأخ ذو الأذنين غير الملتصقتين الذى كان يعمل بهلوانا ويغنى فى الحفلات الصباحية فى سينما الكازار . كلهم ، نعم، حتى أصغرهم مارت ، التى كان أخوه هنرى يغازلها بل وأكثر من مجرد الغزل .

لم يعد أحد يتكلم عنهم . لا أمه ولا خاله يتحدثان عن الأهل المتوفين . ولا عن هذا الأب الذى يبحث عن آثاره، ولا عن الآخرين . يستمران فى العيش على ماهو ضرورى، رغم انهما لم يعودا فى عوز، ولكن أصبح هناك اعتياد ، فضلا عن ريبة مستسلمة تجاه الحياة ، التى يحياها بشكل حيوانى ولكنهما يعرفان بالتجربة انها تلد الشقاء بانتظام دون حتى أن تعطى أية اشارات، انها تحمل كل هذا الشقاء . ثم كان الاثنان حوله ، كما هما ، صامتين ومتكومين على نفسهما ، فارغين من الذكريات ومخلصين فقط لبعض صور غامضة انهما يعيشان الآن على مقربة من الموت ، أى دائما فى الحاضر . لن يعرف منهما أبدا من كان أبوه ، ومع ذلك فان مجرد وجودهما يفتح فى داخله ينابيع ندية قادمة من طفولة بائسة وسعيدة، لم يكن على يقين ان هذه الذكريات الثرية للغاية والمتدفقة داخله لهذا الحد مطابقة للطفل الذى كانه. وعلى النقيض، كان عليه أن يكتفى بالصورتين أو الثلاث المفضلة التى تجمعه معهما وتذيبه وتمزجه بهما ، والتى تلغى ما حاول أن يكونه خلال سنوات طوال وتحيله أخيرا إلى الكائن المجهول والأعمى الذى عاش سنوات طويلة من خلال أسرته وصنع نبلها الحقيقى.

مثل صورة أمسيات الأيام الحارة عندما كانت الأسرة كلها تنزل بعد العشاء مقاعد على الرصيف أمام باب المنزل ، وحيث كان هواء أغبر وساخن يهبط من أشجار التين المتربة . بينما يذهب سكان الحى ويجيئون أمامهم أشجار التين

المتربة ، بينما يتحرك سكان الحى أمامهم ، وقد وضع چاك رأسه على كتف أمه النحيل ، ومقعده مائل قليلا إلى الوراء ، ينظر من خلال الفروع إلى نجوم سماء الصيف، أو مثل تلك الصورة الأخرى لمساء إحدى ليالى عيد الميلاد ، أثناء عودتهم من عند الخالة مارجريت بعد منتصف الليل وحدهم بدون أرنست ، ورأوا أمام المطعم قرب بابهم رجلا ممدداً ، وآخر يرقص حوله . الرجلان ، الثملان ، كانا يريدان تناول مزيد من الخمر . وطردهما صاحب المطعم ، وهو شاب أشقر هزيل. وركلا صاحبة المطعم التى كانت حاملا . فاطلق صاحب المطعم النار عليهما . استقرت الرصاصة فى صدغ الرجل الأيمن . وكانت الرأس ترقد الآن على الجرح. والرجل الآخر، ثمل من الكحول والرعب أخذ يرقص حوله، بينما أغلق المطعم أبوابه، وهرب الجميع قبل وصول الشرطة. وفى ذلك الركن القصى من الحى كانوا يقفون متراصين إلي بعضهم البعض، بينما تضم المرأتان الطفلين اليهما ، والضوء القليل على أرضية الشارع المبتلة بالأمطار التى توقفت توا، وتزحلقت السيارات بفعل البلل ، والجلبة التى تحدثها عربات الترام المضاءة، المكتظة بالركاب السعداء غير المبالين بهذا المشهد المنتمى لعام آخر، كل ذلك حفر فى قلب چاك المذعور صورة عاشت حتى ذلك الوقت أكثر من كل الصور الأخرى: الصورة المتكلفة اللطف والملحة لهذا الحى حيث ساد النهار بطوله فى ظل البراءة والنهم ، ولكن نهاية النهار كانت تجعل الحى فجأة غامضا ومثيرا للقلق ، عندما تبدأ الاشباح تعمر شوارعه ، أو بالأحرى، عندما يظهر فجأة غارقا فى مجد دامٍ ، فى ضوء مصباح الصيدلية الكروى الأحمر ، شبح واحد مجهول يستدل عليه بوطء أقدام مخنوق وصدى أصوات مبهم ، وكان الطفل ، وقد ملأه الجزع فجأة ، يجرى نحو المنزل البائس لكى يجد فيه أهله من جديد .

(٦) مكرر

المدرسة (*)

لم يعرف ذلك الرجل والده ، ولكنه كان يكلمه كثيرا عنه بشكل اسطورى بعض الشىء، وفى كل الحالات ، وعند لحظة بعينها ، عرف أن يحل محل هذا الأب، ولذلك لم ينسه چاك قط، ، وبالرغم من أنه لم يعان أبدا ، فى الواقع ، من غياب أب لم يعرفه ، فلقد تذكر ، بشكل لا واع، وهو طفل فى أول الأمر، ثم طوال حياته، البادرة الأبوية الوحيدة ، التى اتسمت بالتروى والحسم ، وتدخلت فى حياته فى مرحلة الطفولة . لأن الأستاذ برنارد ، استاذة فى السنة النهائية للمرحلة الابتدائية، أثر بكل ثقله كرجل، فى لحظة بعينها ، لتعديل مصير هذا الطفل الذى كان مسئولا عنه، وعدله بالفعل.

الآن ، الأستاذ برنارد كان هناك أمام چاك فى شقته الصغيرة عند منعطف روفيجو ، عند أقدام القصبة تقريبا ، الذى يشرف على المدينة والبحر، ويسكنه صغار التجار من كل جنس ودين، حيث تنبعث رائحة الفقر والتوابل من البيوت . كان هناك، شائخ، الشعر أكثر ندرة ، وبقع الشيخوخة وراء نسيج الخدود والأيدى الذى أصبح الآن مزججا، يتحرك أبطأ من ذى قبل، ويبدو عليه السرور بمجرد أن يستطيع العودة للجلوس فى مقعده المصنوع من الخيزران، قرب النافذة المطلة على الشارع التجارى ، وحيث يزقزق عصفور كنارى وجعله السن أيضاً أكثر تأثراً بحيث لا يخفى انفعاله، وهو ما لم يكن يفعله فى السابق، ولكنه لازال

(*) انتقال مع الفصل السادس .

منتصب القامة ، وصوته قوى وحازم ، كعهده عندما كان يقف جامدا أمام فصله، ويقول : «اصطفوا اثنين . اثنين كل اثنين ! لم أقل كل خمسة!» وعندئذ يكف الهرج والمرج ويصطف التلاميذ، الذين كانوا يخشون الأستاذ برنارد ويعبدونه فى الوقت نفسه ، على امتداد الجدار الخارجى للفصل، فى ممر الطابق الأول، إلى أن تغدو الصفوف منتظمة وساكنة والأطفال صامتون وتنطلق «ادخلوا الآن ، ياعصابة التراموس» (*) لتحررهم وتعطيهم اشارة لحركة ونشاط أكثر ترو، يراقبه الأستاذ برنارد ببشاشة وصرامة، كان قويا ، انيق الملبس، ويتوج وجهه الكبير المنتظم شعر خفيف بعض الشيء ولكنه ناعم تماماً تفوح منه رائحة الكولونيا.

تقع المدرسة فى جزء جديد نسبيا من هذا الحى القديم، بين منازل ذات طابق واحد أو طابقين شيدت بعد حرب عام ١٨٧٠ بقليل ومخازن أكثر حداثة انتهت بربط الشارع الرئيسى للحى حيث يقع منزل چاك وصدر مرفأ الجزائر العاصمة حيث توجد أرصفة الفحم. كان چاك اذن يذهب على قدميه ، مرتين فى اليوم ، إلي هذه المدرسة التى بدأ فى التردد عليها فى سن الرابعة بقسم الحضانة والتى لا يحتفظ بأى ذكريات عنها، فيما عدا ذكرى مغسل من الحجر الداكن كان يشغل خلفية الساحة المسقوفة حيث سقط برأسه ذات يوم ، ونهض وهو مغطى بالدماء ، وقوس الحاجب مفتوح ، وسط ذعر المدرسات ، وتعرف حينئذ على المشابك التى بمجرد أن نزعوها عنه تعين اعادتها على قوس الحاجب الآخر، بعد أن تخيل اخوه يضع على رأسه قبعة قديمة كانت تحجب عنه الرؤية وألبسه معطفا قديما كان يعرقل خطواته، بحيث وجد رأسه ثانية ترتطم بدبش منزوع من البلاط، وفى الدم من جديد . كان يذهب إلي الحضانة مع بيير، الذى يكبره بعام تقريباً، ويسكن فى شارع قريب مع أمه، وهى أيضاً أرملة حرب وأصبحت موظفة فى هيئة البريد ، واثنان من أخواله كانا يعملان فى السكك الحديدية . كانت أسرتهما أصدقاء

(*) نوع من السيباب .

بشكل غير واضح ، أو كما تكون العلاقات فى هذه الأحياء ، بمعنى تبادل الاحترام والتقدير دون أن تتزاور الأسرتان أبدا تقريبا مع الحرص الشديد على المساعدة المتبادلة دون أن تتاح الفرصة لذلك قط ، أصبح الطفلان أصدقاء منذ اليوم الأول عندما كان چاك لايزال بعد يرتدى ثوبا وعهد به إلي بيير ، الذى كان مدركا للسروال الذى يرتديه ولواجبه كأخ أكبر ، وذهب الطفلان معا إلى الحضانة. ثم اجتازا مجموعة الصفوف حتى صف نهاية المرحلة الابتدائية حيث دخله چاك وكان عمره تسع سنوات . وطوال خمس سنوات قطعا معا الطريق نفسه أربع مرات كل يوم ، أحدهما أشقر والآخر أسود الشعر ، أحدهما هادىء والثانى مندفع ، ولكنهما شقيقان بالجذور والمصير ، كلاهما تلميذ نجيب ، وفى الوقت نفسه لاعب لا يكل . كان چاك يتفوق أكثر فى بعض المواد ، لكن سلوكه ، وطيشه، ورغبته فى الظهور أيضا التى تدفعه إلى اقتراف ألف حماقة ، كانت تعيد التفوق إلى بيير، الأكثر رزانة والأكثر كتمانا . كانا الأولين على فصلهما بالتناوب، دون التفكير فى أن يستمدا من ذلك متعة خيلاء أو زهو فى مواجهة اسرتيهما . كانت متعهما مختلفة . فى الصباح كان چاك ينتظر بيير أسفل منزله ينطلقان قبل مرور الزبالين، أو بشكل أدق قبل مرور العربة التى يجرها حصان جريح الركبة ويقودها عربى عجوز . وقتها يكون الرصيف لايزال مبتلا برطوبة الليل، والهواء القادم من البحر له طعم الملح . عبر شارع بيير المؤدى إلى السوق، الذى كان موشوما بصناديق القمامة، التى كان يفتحها عند الفجر عرب ، أو بربر يتضورون جوعا ، وأحياناً متشرد أسبانى عجوز ليجدوا شيئاً يأخذونه فيما تزدريه الأسر الفقيرة المقتصدة لدرجة أن تلقى به . غطاء هذه الصناديق يكون مغلقا بشكل عام، وفى هذه الساعة المبكرة من النهار تحل قطط الحى القوية النحيفة محل المتشردين.

وكان الأمر بالنسبة للطفلين يتلخص فى الوصول بهدوء وراء صناديق القمامة لغلق الغطاء فجأة وبخشونة على القط الموجود داخل الصندوق . هذا العمل الباهر لم يكن سهلا، لأن القطط التى ولدت وكبرت فى حى فقير تملك يقظة وخفة الحيوانات التى اعتادت الدفاع عن حقها فى الحياة. ولكن أحياناً يؤخذ القط على غرة ، مبهورا باكتشاف شيء شهى ونفيس يصعب استخراجه من كومة القمامة. وينغلق الغطاء محدثا ضجة ، ويطلق القط عواء رعب، ويحاول بتشنج مستخدما ظهره ومخالبه ، ويتمكن من رفع سقف سجنه الزنكى والخروج منه، وشعره منتصب من الرعب ويجرى مبتعدا وكأن سربا من الكلاب فى أعقابه ، وسط قهقهات جلاديه غير المدركين لقسوتهم.

الحق يقال ، كان هؤلاء الجلادون متناقضين ، بما أنهم يلاحقون بمقتهم الرجل الذى يقبض على الكلاب، والذى اطلق عليه أطفال الحى اسم «جالوفا» كان هذا الموظف التابع للمجلس البلدى يزاول عمله فى نفس الساعة ، لكن، طبقا للضرورات كان يقوم أيضا بجولات وقت العصر .

كان عربى يرتدى الملابس الأوروبية، يقف على مؤخرة عربة غريبة يجرها حصانان ، ويقودها عربى عجوز لايبدو عليه أى تأثر . يتكون جسم العربة من مكعب من الخشب ، على طول جانبيه ، صف مزدوج من الأقفاص ذات القضبان القوية. عددها ستة عشر قفصا، يسع كل منها كلبا، سيجد نفسه محشورا بين القضبان وخلفية القفص . ويقف القناص على سلم صغير فى مؤخرة العربة، بحيث يكون أنفه فى ارتفاع سقف الأقفاص وبالتالى يستطيع مراقبة ميدان صيده. كانت العربة تسير ببطء عبر الشوارع المبتلة التى بدأت تزدحم بالأطفال وهم فى طريقهم للمدرسة، وربات البيوت الذاهبات لشراء خبزهن أو حليبهن، فى مآزر من قماش البشكير مزينة بأزهار ذات ألوان قوية، وبالتجار العرب الذاهبين

إلى السوق، وطاولات العرض الصغيرة مطوية على الكتف ويمسكون باليد الأخرى قفة ضخمة من القش المضفر يحتوى على بضاعتهم . وفجأة يشد العربى العجوز اللجام إلى الخلف، بناء على صيحة من القناص، وتتوقف العربة لقد لمح القناص إحدى فرائسه البائسة ، تنقب بعصبية فى صندوق القمامة، بينما توجه بانتظام إلى الخلف نظرات مذعورة ، أو تخب سريعا على امتداد جدار بتلك الهيئة القلقة المسرعة التى تميز الكلاب سيئة التغذية . وعندئذ، كان جالوفا يتناول من على قمة العربة سوطا ينتهى بسلسلة حديدية تنزلق بواسطة حلقة على امتداد المقبض. ويتقدم بخطوة رشيقة، سريعة وخافتة ، خطوة القناص نحو الحيوان، ويلحق به ، وإذا لم يكن الكلب يضع الطوق وهو علامة أبناء العائلات ، يجرى نحوه بسرعة مباغتة ومدهشة ، ويمرر حول عنقه سلاحه الذى يعمل عندئذ مثل وهق (*) من الحديد والجلد . وكان الحيوان المختنق فجأة ، يتخبط بجنون وهو يطلق أنات غير واضحة. لكن الرجل يجره بسرعة حتى العربة، ويفتح باب أحد الأقفاص ، رافعا الكلب إلى أعلى خانقا اياه أكثر فأكثر، ويلقى به فى القفص مراعيا أن يمرر مقبض وهقه خلال القضبان . وبعد أسر الكلب ، يفلك السلسلة الحديدية ويحرر رقبة الكلب الذى صار أسيرا .

كانت الأمور تسير على هذا المنوال على الأقل ، عندما لا يتلقى الكلب حماية أطفال الحى . لأن الجميع كانوا متحالفين ضد جالوفا . كانوا يعرفون أن الكلاب الأسيرة تذهب إلى المحشر البلدى، حيث يحتفظ بها لمدة ثلاثة أيام، يتم بعدها قتلها إذا لم يأت أحد يطالب بها . وحتى لو كانوا يجهلون ذلك، فانه يكفى لإثارة سخطهم منظر عربة الموت الذى يدعو للرثاء وهى عائدة بعد جولة مثمرة، محملة بالحيوانات التعسة من كل جنس وحجم ، المذعورة وراء قضبانها والتى تترك وراء

(*) حبل ذو أنشوطة لاقتناص الخيول البرية والأبقار الوحشية .

العربة أثرا من آنين ونباح الموت . لذلك ، بمجرد أن تظهر عربة المساجين فى الحى، ينبه الأطفال بعضهم ليكونوا فى حالة تأهب وينتشرون فى شوارع الحى لمطاردة الكلاب بدورهم، وليطرودها إلى القطاعات الأخرى من المدينة، بعيدا عن الوهق الرهيب. ورغم كل الاحتياطات ، فانه إذا اكتشف القناص، كما حدث عدة مرات لجاك وبيير ، كلبا هائما فى وجودهما ، كان التكتيك واحدا على الدوام . قبل أن يقترب الصياد بدرجة كافية من فريسته، كان چاك وبيير يصرخان: «جالوفا ، جالوفا» بطريقة حادة ومفزعة لدرجة أن الكلب يهرب بكل سرعته ويصبح خارج التناول فى بضع ثوان. وفى هذه اللحظة كان ليتعين على الطفلين أن يثبتا موهبتهما فى الجرى السريع، لأن جالوفا البائس، الذى كان يحصل على مكافأة عن كل كلب يقبض عليه، كان يطاردهما رافعا سوطه وقد جن جُنونه من الغضب. وكان الكبار يساعدونهما عامة على الهرب ، سواء بعرقلة جالوفا ، أو بايقافه مباشرة ومطالبته الاهتمام بالكلاب . عمال الحى ، كلهم صيادون ، ويحبون عادة الكلاب ، ولايكنون أى احترام لهذه المهنة العجيبة.

وكما كان يقول الخال أرنست : «هو تمبل !» أما العربى العجوز الذى يقود العربة فقد كان يسود فوق كل هذا الاهتياج، صامتا وهادىء الأعصاب، أو إذا امتدت المناقشات، يقوم بهدوء بلف سيجارة. وسواء اسر الطفلان القطط أو حررا الكلاب ، فانهما يسرعان بعد ذلك إلي المدرسة والعمل . ويطير وشاحهما فى الهواء شتاء، ويفرقعان بأحذيتهما ذات السيور (التى تسمى ميفا) صيفا . ويلقيان نظرة على الفاكهة المعروضة وهما يعبران السوق، والتى لن يتذوقوا منها إلا الأرخص ثمنا وبكميات محدودة. جبال من الزعرور ، والبرتقال ، واليوسفى، والمشمش والخوخ والشمام والبطيخ تتتابع حولهما حسب الفصول وبعد قفزتين أو

(*) مكان تحشر فيه الحيوانات أو السيارات المصادرة .

ثلاث ، دون ترك الحقيبة، على حوض نافورة المياه الكبيرة اللامع، يركضان على امتداد مخازن شارع تير ، ويتلقيان فى وجهيهما رائحة البرتقال المنبعثة من المصنع حيث يتم تقشير البرتقال واستخدام القشر فى اعداد مشروبات روحية، ثم يصعدان شارعا صغيرا من الحدائق والفيلات وينفذان أخيرا إلى شارع اومرا الذى يعج بجمهرة من الأطفال، يتبادلون الأحاديث ، انتظارا لفتح الأبواب.

وبعد ذلك كان الدرس . مع الأستاذ برنارد ، كان الدرس دوما ممتعا لسبب بسيط هو انه كان يحب مهنته بشغف .

فى الخارج ، كان يمكن للشمس أن تعوى على الجدران الشقراء بينما الحرارة تطقطق فى قاعة الدرس نفسها بالرغم من أنها مغمورة فى ظل الستائر ذات الخطوط العريضة الصفراء والبيضاء . كان يمكن للمطر أن يسقط فى شلالات لاتنتهى ، كما يحدث فى الجزائر ، ويجعل من الشارع بئرا داكنا ورطبا، ورغم ذلك كان الفصل لايكاد يشرد ذهنه. الذباب فقط فى أوقات العاصفة كان يحول انتباه الأطفال فى بعض الأحيان وكان يتم اصطياده فى الحبارات المغروزة فى كوة الطاولة ، حيث يرسو ويبدأ موتا كريها، غارقا فى الطين البنفسجى الذى يملأ الحبارات الصغيرة ذات الجذع المخروطى والمصنوعة من الخزف لكن طريقة الأستاذ برنارد ، التى كانت تقضى بعدم التهاون فيما يتعلق بالسلوك وفى الجانب المقابل أن يجعل تعليمه حيا ومسليا ، كانت تنتصر حتى على الذباب.

كان يعرف دائما كيف يخرج فى اللحظة المناسبة من خزانته ذات الكنوز مجموعة المعادن، أو الأعشاب أو الفراشات والحشرات المحنطة، أو البطاقات أو.... التى كانت توقظ اهتمام التلاميذ الذى بدأ فى التراخى كان الوحيد فى المدرسة الذى حصل على فانوس سحرى ، وكان يعرض، مرتين فى الشهر ، صورا لموضوعات فى التاريخ أو الجغرافيا.

وفى الحساب ، أقام مباراة فى الحساب الذهنى الذى يجبر التلاميذ على سرعة التفكير . كان يطرح على الفصل، حيث يتعين أن يظل الجميع مكتوفى الأيدى، حدود قسمة ، أو عملية ضرب أو أحيانا عملية جمع معقدة بعض الشىء . ما ناتج ١٢٦٧ + ٦٩١ . وكان الأسبق فى ذكر النتيجة الصحيحة قبل الآخرين يحصل على درجة تؤثر على الترتيب الشهرى. فضلا عن ذلك، كان يستخدم الكتب المدرسية بكفاءة ودقة .. وكانت الكتب دائما هى تلك المستخدمة فى العاصمة الفرنسية. هؤلاء الأطفال الذين لايعرفون سوى ريح الشلُوق الجنوْبية الشرقية الحارة والتراب وزخات المطر الضخمة والمقتضبة ، ورمل الشواطىء والبحر الملتهب تحت الشمس، كانوا يقرأون باهتمام ، مشددين على الفصلات والنقاط ، حكايات اسطورية بالنسبة لهم حيث يرتدى الاطفال طاقية ولثاما من الصوف وينتعلون القبقاب، ويرجعون إلى منازلهم فى البرد المثلج وهم يجرون حزم الحطب على طرق مغطاة بالجليد، إلى أن يلمحوا سقف المنزل المغطى بالثلوج حيث تعلمهم المدخنة حين ينبعث منها الدخان أن حساء البازلاء يطهى على الموقد . بالنسبة لجاك ، كانت هذه الحكايات تمثل الاغراب ذاته . كان يحلم بها ، ويملأ موضوعات التعبير بوصف عالم لم يكن رآه قط، لايكف عن سؤال جدته عن جليد سقط لمدة ساعة على منطقة الجزائر العاصمة قبل ذلك بعشرين عاما. هذه الحكايات تمثل له جزءا من الشاعرية القوية للمدرسة، والتى كانت تغذيها أيضا رائحة ورنيش المساطر والمقالم، والطعم اللذيذ لحمالة حقيبته التى كان يضعضها طويلا وهو منكب على عمله، ورائحة الحبر البنفسجى المرة الحامزة، خاصة عندما جاء دوره ليملأ المحابر بواسطة زجاجة ضخمة داكنة غرز فى سدادتها أنبوبا زجاجيا على شكل كوع، وكان جاك يستنشق بسعادة فتحة الأنبوب ، والملمس اللطيف للصفحات الناعمة المصقولة لبعض الكتب، والتى يصعد منها أيضا رائحة

طباعة وصمغ طيبة ، وأخيرا فى أيام المطر رائحة الصوف المبتل التي تصعد من المعاطف الصوفية القصيرة فى خلفية القاعة، والتى كانت بمثابة التجسيد لهذا العالم الفردوسى حيث يركض الأطفال عبر الجليد مرتدين القباقيب والطواقى الصوفية نحو البيت الدافىء .

المدرسة فقط هي التى تمنح چاك وبيير هذه المباهج . وبلا شك إن ما كانا يحبانه بشغف فيها، هو ما يفتقدانه لديهما، حيث يجعل الفقر والجهل الحياة أكثر قسوة، وأكثر كآبة ، وكأنها منغلقة على نفسها، فالبؤس قلعة بدون جسر متحرك.

لكن لم يكن الأمر هكذا فقط، بل كان چاك يشعر أنه أكثر الاطفال بؤسا فى الاجازة الصيفية ، عندما كانت جدته ترسله ، للتخلص من هذا الصبى الذى لا يكل ، إلى مخيم الأجازات مع حوالى خمسين من الأطفال الآخرين وحفنة من المرشدين فى جبال زاكار بـ ميليانا حيث يقيمون فى مدرسة مجهزة بعنابر نوم، ويأكلون وينامون بشكل مريح ، ويلعبون أو يتنزهون على امتداد النهار ، تراقبهم ممرضات لطيفات ، ومع كل ذلك ، عندما يأتى المساء ، ويصعد الظل منحدرات الجبال مسرعا بينما يبدأ نفير الثكنة المجاورة فى اطلاق نغماته الحزينة لاطفاء الأنوار، فى الصمت الضخم للمدينة الصغيرة الضائعة وسط الجبال على بعد مائة كيلو متر من أى مكان مأهول ، كان الطفل يشعر بيأس لا حدود له يتصاعد داخله ويصرخ فى صمت وراء بيت طفولته المجرد من كل شيء.

لا ، لم تكن المدرسة تمنحهما فقط مهربا من الحياة الأسرية. إنما كانت تغذى فيهما ، على الأقل فى فصل الأستاذ برنارد، جوعا أساسيا بالنسبة للطفل عنه بالنسبة للرجل البالغ ، وهو الجوع للاكتشاف. فى الفصول الأخرى، كانوا يتعلمون أشياء كثيرة بدون شك، ولكن بطريقة أشبه ما تكون بزق الأوز . كان يقدم لهم غذاء مجهزاً مع رجاء التفضل بابتلاعه. فى فصل الأستاذ جرمان ،

كانوا يشعرون بوجودهم لأول مرة وأنهم موضع أعلى تقدير : اعتبارهم أنهم أهل لاكتشاف العالم . كما أن مدرسهم لم يكن يتفانى في تعليمهم ما كان يتقاضى أجره عليه ، بل كان يستقبلهم ببساطة في حياته الشخصية ، كان يعيشها معهم، يقص عليهم طفولته وحكاية الأطفال الذين عرفهم ، ويعرض عليهم وجهات نظره، وليس أفكاره، لأنه مثلا كان معارضا للاكليروس مثل الكثير من زملائه ولكنه لم ينبس بكلمة واحدة في الفصل ضد الدين ، ولا ضد أي شيء يمكن أن يكون محل اختيار أو اعتقاد ، في حين كان يدين بقوة ما ليس محل نقاش ، السرقة، الوشاية، القذارة والسماجة.

كان يكلمهم بشكل خاص عن الحرب التي كانت قريبة وخاضها لمدة أربع سنوات، وعن عذابات الجنود وشجاعتهم وصبرهم وسعادة الهدنة . وفي نهاية كل ثلاثة شهور وقبل بدء الاجازة ، ومن وقت لآخر، عندما كان الجدول يسمح له بذلك، تعود أن يقرأ لهم مقتطفات طويلة من رواية «صلبان من الخشب» لدورجليس . بالنسبة لچاك ، كانت هذه القراءات تفتح له أبواب الاغتراب، لكنه اغتراب يحوم فيه الخوف والشقاء ، رغم انه لم يقم أبدا بعملية تقارب، إلا على المستوى النظري، مع الأب الذي لم يعرفه . كان يستمع بكل قلبه إلى حكاية كان مدرسه يقرؤها بكل قلبه، وكانت تكلمه من جديد عن الجليد وعن شتائه العزيز، ولكن أيضا عن رجال يتسمون بالغرابة، يرتدون أقمشة ثقيلة متيبسة من الوحل، ويتكلمون لغة غريبة، ويعيشون في حفر تحت سقف من القنابل والصواريخ والرصاص . كان هو وبيير ينتظران كل قراءة بتلهف يزداد كل مرة . هذه الحرب التي مازال يتكلم عنها الجميع (وكان چاك يستمع صامتا بكل أذنيه ، إلى دانيال عندما يحكي بطريقته معركة «المارن» ، التي خاضها وما يزال لايعرف كيف عاد منها سالما، عندما وضعوهم – هم الزواوية (*) كقوات استطلاع على حد قوله، ثم في حالة هجوم ،

(*) جنود فرنسيون بلباس أهل مراكش والجزائر .

نزلوا واديا كمهاجمين ولم يكن أمامهم أحد وكانوا يسيرون ، وعندما وصلوا إلى منتصف المنحدر فاجأهم الرامون بالرشاشات وسقطوا على بعضهم البعض وامتلأ قاع الوادى بالدم، وكان هناك من يصرخون ماما، كان الأمر فظيعا) ، ولايستطيع الناجون منها نسيانها، والتى يحلق ظلها على كل ما كان يتقرر حولهم. وعلى كل المشروعات التى كانت تتم من أجل حكاية ساحرة وأكثر غرابة من الأساطير التى كان يتم قراءتها فى الفصول الأخرى وكانوا سيستمعون إليها بإحباط وملل إذا فكر الأستاذ برنارد فى تغيير المنهج . لكنه استمر وتناوبت المشاهد المسلية مع وصف المناظر الرهيبة ، وتعرف الأطفال الأفارقة بالتدريج على x و y وz الذين يكونون جزءا من مجتمعهم ويتكلمون عنهم فيما بينهم كأصدقاء قدامى، حاضرون واحياء لدرجة أن چاك على الأقل ، رغم أنهم خاضوا الحرب، لم يكن يتصور لثانية واحدة احتمال أن يكونوا من ضحاياها . فى نهاية العام الدراسى ، وفى اليوم الذى وصل فيه الأستاذ برنارد لنهاية الكتاب ، قرأ بصوت مخنوق وعندما أغلق الكتاب فى صمت، مواجها بانفعاله وذكرياته، ليرفع عينيه بعد ذلك على فصله الفارق فى ذهول وصمت، رأى چاك فى الصف الأول يحدق فيه، ووجهه مغطى بالدموع، ويرجه نحيب لاينتهى .كان يبدو انه لن يتوقف أبدا. قال الأستاذ برنارد بصوت يكاد يسمع ، «هيا يا صغيرى، هيا يا صغيرى»، وقام ليضع كتابه فى الصوان مديرا ظهره للفصل .

قال الاستاذ برنارد : «انتظر ياصغيرى» وقام بعناء ومرر ظفر سبابته على قضبان قفص عصفور الكنارى، الذى زقزق من جديد : « آه ! كازيمير ، من يجوع، يطلب من أبيه » ، و (سرى) نحو مكتبه الصغير، مكتب تلميذ ، فى خلفية الحجرة ، قرب المدفأة عبث فى درج ، وأغلقه ، وفتح آخر ، وأخذ منه شيئا . وقال : « خذ ، انه لك » . تلقى چاك كتابا مغلفا بورق

بقالة داكنا وبدون أية كتابه على الغلاف . وقبل أن يفتحه ، عرف انه كتاب « الصلبان الخشبية » ، نفس الكتاب الذى كان يقرأ منه الاستاذ برنارد فى الفصل . قال : « لا ، لا ، انه... » كان يريد أن يقول: انه جميل أكثر مما ينبغى . لم يجد الكلمات . هز الاستاذ برنارد رأسه العجوز.

«لقد بكيت أخر يوم فى الدراسة ، أتتذكر منذ ذلك اليوم، وهذا الكتاب لك».

واستدار لكى يخفى عينيه اللتين أحمرتا فجأة . ذهب مرة أخرى إلى مكتبه ، ثم عاد نحو جاك ويديه وراء ظهره ، وملوحا تحت أنف جاك بمسطرة حمراء قوية وقصيرة وقال له ضاحكا: أتتذكر عصا حلوى الشعير؟

– قال جاك : نعم ، يا أستاذ برنارد ، لقد احتفظت بها إذن !

أتعلم أن ذلك ممنوع الآن . تبا لك ، لقد كان ممنوعا فى ذلك الوقت. ومع ذلك فانك شاهد على أننى استخدمتها!

كان جاك شاهدا ، لأن الاستاذ برنارد كان من مؤيدى العقاب الجسدى . كان العقاب العادى ، فى الحقيقة، عبارة عن درجات سيئة ، يطرحها فى نهاية الشهر من الدرجات التى حصل عليها التلميذ مما يؤدى إلى تراجعه فى الترتيب العام. لكن، فى الحالات الخطيرة، كان الاستاذ برنارد لايهتم اطلاقا بارسال المخالف إلى المدير ، كما كان يفعل زملاؤه فى أغلب الأحيان كان يقوم بنفس المهمة وطبقا لطقوس لا تتغير . كان يقول بهدوء ومحتفظا بمرحه :

«روبرت المسكين ، يتعين تلقى عقاب عصا حلوى الشعير» . ولم يكن أحد في الفصل يبدى أى رد فعل (فيما عدا الضحك خفية ، طبقا للقاعدة الدائمة للقلب الآدمى التى تريد أن يستشعر البعض متعة لعقاب الآخرين). كان الطفل يقوم، شاحب اللون ، ولكنه يحاول فى أغلب الأحيان أن يظهر رباطة جأش (البعض كان

يخرج من طاولته وهو يبتلع دموعه متوجها نحو المكتب الذى يقف إلى جواره الأستاذ برنارد أمام السبورة السوداء) ودائما طبقا للطقوس ، حيث يدخل هنا إذن ظل من السادية ، كان روبرت أو جوزيف يذهب ليأخذ بنفسه المسطرة «عصا حلوى الشعير»، من على المكتب ليعطيها للكاهن مقدم القرابين.

وكانت «عصا حلوى الشعير» مسطرة سميكة وقصيرة من الخشب الأحمر، مبقعة بالحبر ، وشوهت الحزوز والشجوج شكلها ، كان الاستاذ برنارد قد صادرها من قبل ذلك بوقت طويل من تلميذ لم يعد يتذكره . وكان التلميذ المعاقب يسلمها للأستاذ برنارد الذى يتلقاها بهيئة ساخرة ويباعد عندئذ ساقيه. وكان على الطفل أن يضع رأسه بين ركبتى المدرس الذى يمسك بالرأس بقوة بضم الفخذين . وعلى الأرداف المعروضة. عندئذ كان الأستاذ برنارد يضع طبقا للمخالفة عددا متغيرا من ضربات المسطرة موزعة بالتساوى على كل ردف. وكانت ردود الأفعال لهذا العقاب تختلف تبعا للتلاميذ، كان البعض يئن حتى قبل أن يتلقى الضربات، وكان المدرس الجرىء يلاحظ عندئذ أنهم مبكرون، أما الآخرون فكانوا بسذاجة يحمون أردافهم بأيديهم، التى كان الأستاذ برنارد يبعدها عندئذ بضربة متهاونة، وكان آخرون يرفسون بعنف تحت حرقة ضربات المسطرة، كما كان هناك أيضا من يتلقون الضربات، مرتجفين، دون أن ينبسوا بكلمة، ويعودون إلى أماكنهم وهم يبتلعون دموعا كثيرة، وكان چاك ينتمى إلى هذه المجموعة ، غير أن هذا العقاب كان مقبولا إجمالا بدون مرارة، أولا لأن كل الأطفال يتعرضون للضرب فى بيوتهم ، ويبدو لهم التأديب الجسدى طريقة طبيعية للتربية ، ثم لأن عدل المدرس كان مطلقا، وكان من المعروف مسبقا أى نوع من المخالفات، ودائما هى نفسها، تجر وراءها الحفل التكفيرى، وكان كل من يتجاوزون حد الأفعال التى تنطبق عليها عقاب

الدرجات السيئة يعرفون ما سوف يتعرضون له، وكانت العقوبة تطبق على الأوائل كما على الأخير في الفصل بمساواة، أما چاك الذي كان الأستاذ برنارد يحبه كثيرا بشكل واضح، فإنه يعاقب مثل الآخرين، بل إنه عوقب غداة اليوم الذي أبدى فيه الأستاذ برنارد إيثاره له علنا، فبينما وقف چاك أمام السبورة السوداء، وأجاب إجابة جيدة، قام على أثرها الأستاذ برنارد بمداعبة خده، همس صوت في القاعة: «شوشو، وأخذها الأستاذ برنارد ضده شخصيا وقال بشيء من الوقار والرصانة: «نعم، إن كورمري أثير لدى مثل كل الذين فقدوا آباءهم في الحرب . أنا خضت الحرب مع آبائهم، لكنني حي، أحاول، أن أقوم هنا مقام زملائي الموتى، والآن، إذا كان هناك من يريد أن يقول أن هناك من أفضله، فليتكلم!» استقبلت هذه الخطبة بصمت تام، وعند خروج المدرسة، سأل چاك من الذي أطلق عليه اسم «شوشو». ففي الواقع، فإن القبول بمثل هذه السبة، بدون رد فعل، يعني فقدان الشرف، قال مينوز «أنا» إنه صبي أشقر طويل رخو بما فيه الكفاية ولا لون له، ونادرا ما يظهر ولكنه يبدي دائما كرهه لچاك، قال چاك: «حسن، إذن أمك عاهرة»، كانت تلك أيضا شتيمة طقوسية تجر وراءها مباشرة المعركة، فسب الأم والموتى كانت منذ الأزل أخطر الشتائم على ضفاف المتوسط، غير أن مينوز كان مترددا، لكن الطقوس هي الطقوس، وتكلم الآخرون بالنيابة عنه، «إذهبا إلي الحقل الأخضر»، وكان الحقل الأخضر، الذي لا يبعد كثيرا عن المدرسة، عبارة عن أرض بور ينمو فيها عشب هزيل ومزدحمة بحلقات وأطواق قديمة وعلب الأغذية المحفوظة وبراميل متعفنة، في هذا المكان كانت تدور المبارزات حيث تحل القبضة محل السيف، ولكنها تخضع، في ذهنه على الأقل، إلى طقوس مماثلة، تهدف المبارزات في الواقع إلى حسم شجار يمس شرف أحد المتصارعين، سواء سب الوالدين أو الأجداد، أو تحقير جنسيته أو جنسه، أو وشى به أو اتهم بذلك، أو سرق أو اتهم

الأطفال، عندما كان أحد التلاميذ يعتبر أنه أهين بطريقة تستدعى غسل الإهانة، أو بالأحرى يتم اعتبار ذلك نيابة عنه، فإن الصيغة الطقوسية كانت «الساعة الرابعة، فى الحقل الأخضر»، وبمجرد النطق بهذه الصيغة، تهبط الإثارة وتكف التعليقات، وينسحب كل من الخصمين يتبعه زملاؤه، وأثناء الدروس التى تلى ذلك، ينتشر النبأ من دكة إلى أخرى مع اسم البطلين اللذين يرمقهما الزملاء بطرف أعينهم واللذين يتظاهران بالهدوء والتصميم الجديرين بالرجولة، وداخليا، يكون الأمر مختلفا، فالقلق من دنو اللحظة التى يتعين فيها مواجهة العنف كان يشتت أكثر التلاميذ شجاعة عن عمله، ولكن كان يتعين ألا يسمح لرفاق المعسكر الخصم بأن يضحكوا ساخرين من البطل أو يتهمونه بـ «ضم الأرداف»، حسب التعبير الشائع.

وبعد أن قام چاك بواجبه كرجل بتحديه لمينوز، كان يزمهما بقوة على أية حال، مثل كل مرة يضع نفسه فى موقف مواجهة العنف وممارسته، لكنه اتخذ قراره ولم يعد مطروحا لثانية واحدة، فى ذهنه، إمكانية التراجع، كان ذلك هو المتبع، وكان يعرف أيضا أن الإشمئزاز الخفيف الذى يقبض قلبه قبل الفعل سيختفى لحظة المعركة، يجرفه عنفه الذاتى، الذى يضره تكتيكيا بقدر ما كان يخدمه.، والذى كلفه فى (*) .

فى أمسية المعركة مع مينوز، جرى كل شئ طبقا للطقوس، كان المتصارعان هما أول من وصل الحقل الأخضر، يتبعهما مشجعوهما الذين تحولوا إلى رعاة لصحة المتصارعين ، يحملون حقيبة البطل، وتبعهم كل من جذبتهم المشاجرة، والذين كانوا فى ساحة المعركة، وأحاط الجميع بالخصمين اللذين كانا يتخلصان من وشاحيهما وسترتيهما فى أيدى رعاتهما. هذه المرة، كان چاك أول من تقدم ، مما جعل مينوز يتقهقر ، وبينما هو يتراجع مضطربا ويتفادى برعونة

(*) المقطع يقف هنا .

لطمات خصمه المباشرة، أصاب جاك فى صدغه بلكمة أوجعته وملأته حنقا زاد من شدته صرخات وضحكات وتشجيع الجمهور، انقض على مينوز، وأمطره وابلا من اللكمات، أصابه بالحيرة والاضطراب، وكان جاك محظوظا بتوجيهه لكمة حانقة على العين اليمنى للبائس، الذى فقد توازنه تماما، ووقع بشكل مثير للشفقة على أردافه، باكيا بعين واحدة، بينما تورمت العين الأخرى. على الفور. اللكمة التى ورمت عين مينوز، وهى لكمة رائعة ومطلوبة للغاية لأنها تكرس فوز المنتصر لعدة أيام وبشكل مرئى واضح، جعلت كل الجمهور يطلق صيحات إعجاب ولم يقف مينوز على الفور، وتدخل فى الحال، بيير الصديق الحميم لجاك، ليعلن بحسم انتصار جاك، وألبسه سترته، وغطاه بوشاحه واصطحبه، تحيط به كوكبة من المعجبين، بينما قام مينوز، وهو لايزال يبكى، وارتدى ملابسه وسط دائرة صغيرة واجمة، وجاك مذهولا بسرعة انتصار لم يأمل أن يكون تاما لهذه الدرجة، كان يسمع بالكاد التهانى حوله وروايات المعركة التى تم تضخيمها على الفور، ود أن يكون مسرورا، أنه نوع من الغرور، ولكنه، لحظة خروجه من الحقل الأخضر، حين التفت إلي مينوز، قبض قلبه فجأة حزن كئيب عندما رأى وجه الذى ضربه لتوه مخذولا، ومن ثم أدرك أن الحرب سيئة، طالما أن الانتصار على رجل لا يقل مرارة عن الهزيمة على يديه.

غداة يوم المعركة، اعتقد جاك، تحت تأثير كلمات إعجاب زملائه اللاذعة، أنه مضطر أن يتعاظم ويتخذ هيئة متبجحة ومنتفخة، وفى بداية الدرس، عندما لم يرد مينوز على نداء الحضور، علق جيران جاك على هذا الغياب بضحكات ساخرة، وغمزات عين للمنتصر، وبدا ضعف جاك عندما جعل عينه نصف مقفولة ونفخ خده لزملائه، دون أن يدرك أن الأستاذ برنارد ينظر إليه، وهو يقوم بإيماءة مضحكة اختفت فى لمح البصر عندما رن صوت المدرس فى القاعة التى صمتت فجأة:

«أيها الأثير المسكين، قال ساخرا دون أن يبدو عليه ذلك، من حقك مثل الآخرين أن تحصل على عصا «حلوى الشعير»، واضطر المنتصر أن يقف، ويحضر أداة التعذيب، ودخل، فى رائحة الكولونيا المنعشة التى تحيط الأستاذ برنارد، ثم اضطر أن يتخذ فى النهاية وضع التعذيب المخزى.

لم تنته قضية مينوز بهذا الدرس العملى فى الفلسفة، فقد استمر غياب الصبى يومين، وكان چاك قلقا بشكل غامض بالرغم من هيئته المتعاظمة المتبجحة، عندما دخل تلميذ طويل الفصل فى اليوم الثالث وأخبر الأستاذ برنارد أن المدير يطلب التلميذ كورمرى، لا يتم استدعاء تلميذ عند المدير إلا فى الحالات الخطيرة، وقال المدرس رافعا حاجبيه: «أسرع، يا بعوضة، أرجو ألا تكون قد اقترفت حماقة»، تبع چاك التلميذ الطويل، وساقاه لا تحملانه، على امتداد الممر أعلى الفناء الأسمنتى المزروع بشجيرات فلفل لايحمى ظلها النحيل من الحرارة الملتهبة، حتى وصلا إلى مكتب المدير الذى يقع فى الطرف الآخر للممر، كان أول شىء رآه عندما دخل هو مينوز، أمام مكتب المدير تحيط به سيدة ورجل عابس الهيئة، بالرغم من العين المتورمة والمقفولة تماما التى تشوه زميله، فإنه شعر بالارتياح لأنه وجده حيا، غير أن الوقت لم يتسع له لكى يتذوق هذا الارتياح، سأل المدير: «هل أنت الذى ضربت زميلك؟»، رجل قصير أصلع ذو وجه متورد وصوت حازم، أجاب چاك بصوت خال من التعبير «نعم» لقد قلت لك ذلك يا سيدى، أندريه ليس متشردا، قالت السيدة: «لقد تشاجرنا»، قال چاك: «ليس لى أن أعرف»، أجاب المدير، أنت تعلم أننى أمنع أى شجار، حتى خارج المدرسة، لقد جرحت زميلك، وكان يمكنك أن تجرحه جرحا أكثر خطورة وكأول انذار لك، سوف تظل واقفا بدون حراك فى الاستراحة لمدة أسبوع، وإذا كررت ذلك مرة أخرى، سوف تطرد وسأخبر والديك بهذا العقاب، تستطيع العودة إلى فصلك»، لكن چاك، وقد أصابه

الذهول ظل بلا حراك، قال المدير: «إذهب»، وعندما دخل چاك الفصل قال له الأستاذ برنارد: «إذن، فانتوماس؟»، كان چاك يبكى، هيا، إننى أستمع لك، بداية، أعلن الطفل، بصوت متقطع، العقوبة، ثم تقدم والدا مينوز بشكوى ضده، ثم كشف بعد ذلك أمر المشاجرة»، لماذا تشاجرتما؟»، «أسمانى «شوشو»، ـ «مرة ثانية؟»، «لا، هنا فى الفصل»! آه! إنه كان هو! واعتقدت أننى لم أدافع عنك بما فيه الكفاية»، نظر چاك إلى الأستاذ برنارد من كل قلبه، «أوه بلى! أوه بلى! إنك......»، وانفجر فى نشيج حقيقى، قال الأستاذ برنارد: «إذهب إلى مقعدك، ، إن ذلك ليس عدلا»، قال الطفل بين دموعه: «بلى»، أجابه بهدوء.

فى الغد، وفى وقت الاستراحة، نفذ چاك العقوبة، ووقف عند آخر السقيفة، وظهره للفناء، ولصيحات زملائه المرحة، كان يبدل الارتكاز على ساقيه، ويتحرق رغبة للجرى هو أيضا، من وقت لآخر، يختلس نظرة إلى الخلف ويرى الأستاذ برنارد يتمشى مع زملائه فى ركن من الفناء دون أن ينظر إليه، لكن فى اليوم التالى، لم يره وهو يصل إلى ظهره ويضربه برفق على قفاه: «لا تبتئس، مينوز معاقب مثلك، ويقف بدون حراك هو أيضا، اسمح لك أن تنظر إليه»، فى الناحية الأخرى من الفناء، وقف مينوز وحيدا وكئيبا «شركاؤك يرفضون اللعب معه طول أسبوع عقابك»، وراح الأستاذ برنارد يضحك: «أرأيت، لقد عوقبتما أنتما الاثنان، إنه قانونى»، وانحنى نحو الطفل ليقول له، بضحكة حنان أطلقت فيضا من المحبة، فى قلب المذنب، «أخبرنى يا بعوضة، منظرك لا يوحى بأن لك مثل هذه اللكمة!».

هذا الرجل الذى كان يتكلم اليوم إلى طائره الكنارى، والذى يسميه «صغير» بينما هو فى الأربعين من عمره، لم يتوقف چاك يوما عن حبه، حتى عندما فرقت السنوات، والبعد، وأخيرا الحرب العالمية الثانية، بينهما جزئيا، ثم افترق عنه تماما ولم ترد منه أية أنباء، وفى عام ١٩٤٥ كان سعيدا مثل طفل عندما دق باب منزله

فى باريس جندى إقليمى مسن يرتدى معطفا عسكريا، وكان الزائر هو الأستاذ برنارد الذى تطوع مرة أخرى، «ليس من أجل الحرب ولكن ضد هتلر، على حد قوله، وأنت أيضا يا صغيرى لقد حاربت، أوه، كنت أعرف أنك من السلالة الطيبة، إنك لم تنس أمك، أرجو ذلك، هذا جيد، والدتك هل يوجد فى العالم ماهو أفضل من ذلك، والآن أنا عائد إلى الجزائر العاصمة، فلتأت لترانى» . ومنذ خمسة عشر عاما، كان چاك يذهب ليزوره كل سنة، واليوم وكما يحدث كل عام قبل الرحيل، قبل العجوز المتأثر الذى كان يمسك بيده على عتبة الباب، وكان هو الذى قذف بچاك إلى العالم، وأخذ على عاتقه وحده مسئولية انتزاعه من بيئته لكى يذهب نحو اكتشافات أكبر.(*)

كان العام الدراسى يقترب من نهايته، عندما طلب الأستاذ برنارد كلا من چاك، وبيير، وفلورى، وهو ظاهرة وينجح أيضا بشكل جيد فى جميع المواد، وكان المدرس يقول عنه «إن رأسه تناسب دراسة الهندسة والتكنولوجيا»، وسانتياجو، وهو صبى جميل كان أقل موهبة لكنه ينجح بفضل الاجتهاد، وقال لهم عندما أصبح الفصل خاليا: «هكذا، أنتم أفضل تلاميذى». وقررت أن أقدمكم إلى المنحة الدراسية الخاصة بالمدارس الثانوية والمعاهد، إذا نجحتم، ستحصلون على منحة دراسية وتستطيعون إنهاء دراستكم فى المدرسة الثانوية حتى البكالوريا، المدرسة الابتدائية هى أفضل المدارس، لكنها لا تقودكم إلى شىء، أما المدرسة الثانوية فإنها تفتح لكم كل الأبواب، إننى أفضل أن يدخل من هذه الأبواب صبية فقراء مثلكم، ولكى أقوم بذلك احتاج إلى تصريح من أهلكم، إجروا».

جروا، مذهولين بدون أن يتشاوروا، افترقوا . وجد چاك جدته وحدها فى المنزل، كانت تنقى العدس على مشمع مائدة الطعام، تردد، ثم قرر انتظار وصول

(*) المنحة الدراسية .

والدته، وصلت، متعبة بشكل واضح، وضعت مريلة المطبخ وجاءت تساعد الجدة فى تنقية العدس، عرض چاك مساعدته، فأعطى الطبق الخزفى الغليظ الأبيض الذى كان من الأسهل فرز الحجر من حبات العدس عليه، أعلن النبأ وأنفه فى الطبق. قالت الجدة: «ماهذه الحكاية؟ فى أى سن يتم الحصول على البكالوريا ؟ أجاب چاك: فى غضون ست سنوات. دفعت الجدة طبقها، وقالت موجهة كلامها إلى كاترين كورمرى: «أتسمعين؟» لم تكن قد سمعت، كرر لها چاك النبأ ببطء، قالت: «آه! ذلك لأنك ذكى، ذكى أم لا، كان يتعين إرساله إلى التدريب العام القادم، أنت تعلمين جيدا أنه ليس لدينا نقود، سيكسب أسبوعه» ، قالت كاترين: هذا صحيح.

كان اليوم والحرارة قد بدآ يخففان من ضغطهما فى الخارج، وبدا الحى خاليا وصامتا، فى هذه الساعة التى تعمل فيها الورش بكامل طاقتها، راح چاك ينظر إلي الشارع، وهو لايعرف مايريده، غير أنه يريد أن يطيع الأستاذ برنارد، ولكنه، وهو صبى فى التاسعة من عمره، لا يستطيع أن يعصى جدته، وبالرغم من ذلك، كانت الجدة مترددة بشكل واضح: «ماذا ستفعل بعد ذلك؟»، لست أدرى، ربما مدرسا، مثل الأستاذ برنارد: نعم، بعد ست سنوات!».

كانت تفرز عدسها ببطء أكثر وقالت: «أوه! ، نحن فقراء جدا، ستقول للأستاذ برنارد أننا لا نستطيع».

فى الغد، أعلن الثلاثة الآخرون لچاك أن أسرهم قد وافقت، وأنت؟، أجاب: «لا أعرف»، وقبض قلبه أن يشعر فجأة أنه أكثر فقرا من أصدقائه، بعد اليوم الدراسى، ظلوا هم الأربعة، وأعطى بيير وفلورى وسانتياجو ردهم، «وأنت، يا بعوضة؟، لا أعرف». نظر إليه الأستاذ برنارد وقال للآخرين: «حسن، ولكن يجب العمل معى كل مساء بعد الفصل، سأرتب ذلك، يمكنكم الانصراف»، وعندما خرجوا، جلس الأستاذ برنارد على مقعده وجذب چاك إلى جانبه: «إذن؟، جدتى

تقول أننا فقراء جدا، وأنه يجب علىّ أن أعمل العام القادم، «ووالدتك؟»، «إن جدتى هى التى تقود»، قال الأستاذ برنارد: «أعرف ذلك».

ظل يفكر، ثم أخذ چاك بين ذراعيه: «اسمع: يجب أن نفهمها، الحياة صعبة بالنسبة لها، لقد قاما وحدهما بتربيتكما، أنت وأخيك، وجعلا منكما ولدين طيبين، ومن ثم فإنها خائفة، وهو أمر طبيعى، إذ سيتعين مساعدتك قليلا بالرغم من المنحة الدراسية، وفى كل الأحوال لن تحضر نقودا للبيت لمدة ست سنوات، هل تفهمتها؟ » هز چاك رأسه من أسفل إلى أعلى دون أن ينظر إلى مدرسه، «حسن، ولكن ربما بالإمكان شرح ذلك لها، خذ حقيبتك، إننى ذاهب معك!، إلى البيت؟ قال چاك: نعم، سيسعدنى أن أرى والدتك مرة أخرى».

وبعد لحظة، طرق الأستاذ برنارد باب بيت چاك، تحت عينيه المذهولتين، جاءت الجدة لتفتح وهى تمسح يديها فى مريلتها التى يجعل حزامها المزموم بشدة بطنها، بطن السيدة العجوز، يبرز واضحة، وعندما رأت المدرس، رفعت يدها نحو شعرها لكى ترتبه»، إذن، الجدة، فى غمرة العمل كالعادة؟ آه! إنك صاحبة فضل: «قال الأستاذ برنارد، أدخلت الجدة الزائر الحجرة، التى يتعين اجتيازها لبلوغ قاعة الطعام، وأجلسته قرب المائدة، وأخرجت أكواب وشراب الأيسون» لا تزعجى نفسك، لقد أتيت لكى أتكلم معك قليلا»، وبدأ بسؤالها عن أبنائها، ثم عن حياتها فى المزرعة، وعن زوجها، ثم تكلم عن أبنائه هو، وفى هذه اللحظة، دخلت كاترين كورمرى، وذهلت ونادت الأستاذ برنارد «الأستاذ المدرس» ودخلت إلى غرفتها لكى تمشط شعرها وتضع مريلة نظيفة، جاءت لتجلس على طرف مقعد بعيد قليلا عن المائدة، قال الأستاذ برنارد لچاك: «اذهب لترى إذا كنت موجودا فى الشارع، ثم قال موجها حديثه إلى الجدة، تدركين إننى سأقول أشياء طيبة عنه، وقد يعتقد أنها الحقيقة...».

خرج چاك، ونزل السلالم سريعا، ووقف على عتبة باب الدخول، وظل فى المكان نفسه لمدة ساعة، وبدأ الشارع ينشط، كانت السماء من خلال شجيرات التين تميل إلي اللون الأخضر، عندما نزل الأستاذ برنارد السلالم وظهر خلفه، وحك له رأسه قائلا: «إيه! اتفقنا، جدتك سيدة شجاعة، أما والدتك .... أوه! لاتنساها قط»، فجأة قالت الجدة التى برزت من الممر: «أستاذ»، كانت تمسك مريلتها بيد وتمسح عينيها»، لقد نسيت..... قلت لى أنكم ستعطون دروسا إضافية لچاك، قال الأستاذ برنارد: «بالطبع»، ولن يتسلى صدقينى، «لكننا لن نستطيع أن ندفع لحضرتك»، نظر الأستاذ برنارد إليها بلطف، وكان يمسك چاك من كتفيه:«لا عليك»، وهز چاك، «لقد دفع لى مقدما»، ورحل الأستاذ برنارد وأخذت الجدة چاك من يده للصعود إلى الشقة، ولأول مرة ضمت يده، بقوة شديدة بنوع من الحنان البائس، وقالت: «صغيرى، صغيرى».

وطوال شهر كامل، كان الأستاذ برنارد يبقى الأطفال الأربعة كل يوم بعد الدراسة ويجعلهم يدرسون لمدة ساعتين، وكان چاك يعود إلى المنزل فى المساء متعبا ومتحمسا فى آن واحد ويقوم بعمل واجباته المدرسية، كانت الجدة تنظر إليه بمزيج من الحزن والزهو، وكان الخال أرنست يقول، مقتنعا، وهو يضرب جمجمته بقبضته: «لديه رأس جيد»، «نعم، تجيب الجدة، لكن ماذا ستصبح؟» وذات مساء، انتفضت: «ماذا عن تناوله الأول للقربان؟». للحق، لم يكن الدين يشغل أى مكان فى الأسرة (*) ، لم يكن أحد يذهب للقداس، ولا أحد يذكر أو يعلم الوصايا الربانية، كما لم يكن ... إلى الثواب والعقاب فى الحياة الآخرة، وعندما كان يقال، أمام الجدة، عن شخص ... أنه مات كانت تقول: «حسن، لن يضرط بعد الآن»، وإذا كان الأمر يتعلقُ بشخص من المفترض أنها تكن له بعض المودة، كانت تقول: «المسكين، كان لايزال شابا»، حتى لو كان المتوفى قد بلغ سن الموت من وقت

(*) فى الهامش : ثلاثة سطور غير مقروءة .

طويل، لم يكن عدم إدراك من جانبها، لقد رأت كثيرين يموتون حولها، ولديها، ثم زوجها، وزوج ابنتها وكل أبناء أخوتها فى الحرب، ولكن، بالتحديد، كان الموت شيئا معتادا بالنسبة لها مثله مثل العمل أو الفقر، لم تكن تفكر فيه وإنما تعيشه بطريقة ما، ثم كان العوز الراهن قويا جدا بالنسبة لها أكثر منه بالنسبة للجزائريين بشكل عام، المحرومين بمشغولياتهم وبمصيرهم الجماعى عن هذا الورع الجنائزى الذى يزدهر عند قمة الحضارات، بالنسبة لهم، كان الموت تجربة يتعين مواجهتها، مثل التجارب التى سبقتها، والتى لم يكن أحد يتحدث عنها قط، حيث سيحاولون إظهار هذه الشجاعة التى كانت تمثل بالنسبة لهم الفضيلة الرئيسية للإنسان، ولكن كان يتعين محاولة نسيانها وابعادها إلى أن يحين ميعادها . (ويرجع إلى ذلك المظهر المازح الذى تتخذه كل عملية دفن . ابن العم موريس!) وإذا أضيف إلى هذا الاستعداد العام مرارة الصراعات والعمل اليومى، فضلا عن استنزاف الفقر الرهيب بالنسبة لأسرة چاك، يصبح من الصعب ايجاد مكان للدين . بالنسبة للخال أرنست الذى يعيش على مستوى الحواس، كان الدين هو ما يراه، أى راعى الكنيسة والموكب، ومستخدما مواهبه الكوميدية، كان لا يفوته مناسبة كى يقلد طقوس القداس، ويزين أداءه بحاكيات صوتية (معزولة) تقلد اللاتينية، وفى النهاية كان يمثل الذين يخفضون رءوسهم لصوت الجرس ودور الكاهن، الذى يستغل هذا الوضع، ليشرب خلسة نبيذ القداس . أما بالنسبة لكاترين كورمرى، فهى الوحيدة التى يمكن أن تدعو عذوبتها للتفكير فى الايمان، ولكن عذوبتها بالتحديد هى كل إيمانها، لم تكن تنفى ولا توافق، تضحك قليلا على مزحات أخيها، ولكنها تقول لمن تقابلهم من الكهنة : «سيدى راعى الكنيسة» . لم تتكلم أبدا عن الله . هذه الكلمة، فى الحقيقة لم يسمعها چاك أبدا خلال طفولته، وهو نفسه لم يقلق بخصوص ذلك . كانت الحياة، بغموضها، تكفى لامتلائه بالكامل .

ومع كل ذلك، إذا حدث فى أسرته عملية دفن مدنى، لم يكن نادرا، وبشكل متناقض، أن تنعى الجدة أو حتى الخال غياب الكاهن ويقولان على المتوفى إنه دفن «مثل الكلب» . لأن الدين يمثل لهم، كما لأغلب الجزائريين، جزءا من الحياة الاجتماعية وجزءا منها فقط .

أن يكون الشخص كاثوليكيا مثل أن يكون فرنسيا، إن ذلك يفرض عددا من الشعائر والعادات . وفى الحقيقة، كان عدد هذه الشعائر أربع فقط : التعميد والتناول الأول وارتباط الزواج (إذا كان هناك زواج) وتناول القربان للمشرف على الموت . وبين هذه الطقوس المتباعدة جدا بالضرورة، كان يتم الاهتمام بأشياء أخرى فى مقدمتها الاستمرار على قيد الحياة .

كان من المسلم به أن على چاك أن يؤدى التناول الأول كما فعل هنرى من قبل، والذي احتفظ لذلك الحدث بأسوأ ذكرى، ليس عن الاحتفال ذاته ولكن عواقبه الاجتماعية، خاصة الزيارات التى كان مضطرا، وهو يضع الساعدة على ذراعه، أن يقوم بها بعد ذلك ولعدة أيام، للأصدقاء والأهل الذين حرصوا على أن يقدموا له هدية صغيرة من النقود، كان الطفل يتلقاها بحرج وكانت الجدة تستردها بعد ذلك كلها وتعيد منها لهنرى نصيبا صغيرا جدا، محتفظة بالباقى لأن التناول مكلف . ولكن هذا الاحتفال كان يتم عندما يبلغ الطفل الثانية عشرة تقريبا، وكان عليه أن يدرس لمدة عامين كتاب التعليم الدينى . وبالتالي لن يؤدى چاك التناول الأول إلا فى الصف الثانى أو الثالث من المدرسة الثانوية . ولكن هذه الفكرة بالتحديد هى التى جعلت الجدة تنتفض . كانت فكرتها عن المدرسة الثانوية غامضة ومخيفة بعض الشيء، فهي بالنسبة لها مكان يتعين العمل فيه أكثر من المدرسة الابتدائية عشر مرات طالما أن دراساتها تؤدي إلى مناصب أفضل، ولا يمكن، حسب اعتقادها، الحصول على أى تقدم مادي بدون زيادة في العمل . ومن

ناحية أخري، كانت تريد بكل قواها نجاح چاك بسبب التضحيات التي قبلتها لتوها مقدما، وكانت تتخيل أن وقف دروس الدين سينتقص من وقت العمل . قالت: «لا، لا تستطيع أن تكون فى المدرسة وفى دروس الدين في وقت واحد . حسن، لن أؤدى التناول الأول»، أجاب چاك الذى كان يفكر بشكل خاص فى الهروب من عذاب الزيارات والاذلال، غير المحتمل بالنسبة له، لتقبل نقود من الآخرين . نظرت الجدة اليه «لماذا ؟ يمكن ترتيب ذلك . ارتد ملابسك سنذهب لمقابلة راعى الكنيسة» . قامت، ودخلت وكلها تصميم إلى غرفتها . وعندما عادت كانت قد خلعت قميصها الفضفاض وجونلة العمل وارتدت ثوب الخروج الوحيد لديها [......] المزرر حتى الرقبة وربطت حول رأسها وشاحها الحريرى الأسود . وكانت خصلات الشعر الأبيض تحيط بالوشاح وعيناها الفاتحتان وفمها الحازم يعطونها هيئة الحزم نفسه .

وفى كنيسة سان شارل، وهى مبنى بشع نو طراز قوطى حديث، جلست الجدة ممسكة بيد چاك الواقف قربها، أمام راعى الكنيسة، وهو رجل بدين فى الستين من عمره له وجه مستدير رخو بعض الشيء وانف كبير، وفمه الغليظ له ابتسامة طيبة تحت إكليل الشعر الفضى، وكان يعقد يديه على ثوبه المشدود نتيجة تباعد ركبتيه . قالت الجدة : «أريد أن يقوم الصغير بالتناول الأول» . هذا جيد جدا ياسيدتى، سنجعل منه مسيحيا طيبا . ماهو سنه ؟، «تسع سنوات»، إنك على صواب أن تجعليه يتابع الدروس الدينية مبكرا جدا . في غضون ثلاث سنوات سيكون مستعدا تماما لهذا اليوم العظيم، قالت الجدة بجفاء : «لا يجب أن يقوم بالتناول على الفور فورا ؛ لكن الاحتفال بالتناول سيتم خلال شهر، ولا يمكنه التقدم إلى المذبح إلا بعد عامين على الأقل من الدروس الدينية» . شرحت الجدة الموقف . لكن راعى الكنيسة لم يقتنع اطلاقا باستحالة الجمع بين الدراسة الثانوية

(*) كلمة غير مقروءة .

والتعليم الديني . وبصبر وطيبة، ذكر تجربته، وأعطى العديد من الأمثلة .. قامت الجدة : «في هذه الحالة، لن يقوم بالتناول الأول، تعال ياچاك» . وسحبت الطفل نحو باب الخروج . لكن راعي الكنيسة اندفع وراءها «انتظري ياسيدتي، انتظري» واعادها بلطف إلى مكانها، وحاول أن يقنعها . لكن الجدة كانت تهز رأسها مثل بغلة عجوز عنيدة . «إما على الفور أو سيستغني عن ذلك تماما» . في النهاية، استسلم راعي الكنيسة . وتم الاتفاق علي أن يقوم چاك بالتناول الأول بعد أن يتلقى تعليما دينيا متسارعا لمدة شهر . وقادهما الكاهن وهو يهز رأسه حتى الباب حيث داعب خد الطفل وقال : «استمع جيدا لما سيقال لك» . ونظر إليه بنوع من الحزن .

جمع چاك بين الدروس الاضافية مع الأستاذ جرمان والدروس الدينية مساء كل خميس وسبت . وكانت امتحانات المنحة الدراسية والتناول الأول يقتربان في آن واحد، وأصبحت أيامه مكتظة بالعمل ولا تترك له أي مجال للعب، وحتى أيام الآحاد بصفة خاصة حيث كان بامكانه أن يترك كراريسه، كانت جدته تكلفه باعمال منزلية وبشراء الاحتياجات مشيرة الى التضحيات المقبلة التي ستتقبلها الأسرة من أجل تعليمه والسنوات الطويلة التي لن يفعل فيها شيئا من أجل المنزل. قال چاك : «قد أرسب . الامتحان صعب» . وبطريقة ما كان يحدث له أن يتمنى ذلك، إذ كان يجد عبء هذه التضحيات، التي يشار اليها باستمرار، ثقيلا جدا علي كرامته الغضة . نظرت اليه الجدة مذهولة . لم تفكر قط في هذا الاحتمال . ثم هزت اكتافها وبدون مبالاة بالاعتراض قالت : «انصحك بذلك، وعندها ستضرب على أردافك حتي تسخن» . كان يتولى دروس التعليم الديني الراعي الثاني للكنيسة، طويلا، بل لا نهائي في ثوبه الأسود الطويل، جاف، أنفه على هيئة منقار العقاب، ووجناته غائرة، كان قاسيا بقدر ما كان الراعي العجوز عذبا وطيبا .

وكانت طريقته فى التعليم هى التسميع، وبالرغم من أنها طريقة بدائية، فقد كانت الطريقة الوحيدة التى تلائم الطبقات الدنيا، الخشنة والعنيدة، تلك الطبقات التى كان مسئولا عن تكوينها روحيا . كان يتعين حفظ الأسئلة والاجابات : «من هو الله» ؟ لم تكن هذه الكلمات تعنى شيئا بالتحديد بالنسبة لهؤلاء الصبية المبتدئين فى التعليم الدينى، وكان چاك الذي يتمتع بذاكرة ممتازة يسمعها برباطة جأش دون أن يفهمها قط . وعندما كان طفل آخر يسمع، كان يشخص ببصره كالأبله، أو يتبادل مع رفاقه تكشير الوجه وتحريكه فى أشكال مضحكة . وذات يوم فاجأ الكاهن إحدى هذه الحركات واعتقد أنها موجهة اليه، وقرر أنه من المفيد فرض احترام الصفة المقدسة التى يمثلها، ونادى چاك أمام كل الأطفال، وهناك، وبدون أى تفسير صفعه بكل قوة، بيده الطويلة القوية . وكاد چاك يسقط تحت وطأة قوة الصفعة . وقال الكاهن : «إذهب الآن إلى مكانك» . نظر اليه الطفل بدون أن يدمع (طوال حياته كانت الطيبة والحب هما فقط ما يجعلانه يبكى، أما الشر والاضطهاد فكانا، على النقيض، يقويان قلبه وعزمه، ولا يبكيانه قط) . وعاد إلى دكته، وكان الجزء الأيسر من وجهه يحرقه وفى فمه طعم الدم . وبطرف اللسان، اكتشف أن الخد من الداخل شج من قوة الضربة وانه يدمى . وبلع دمه .

وخلال كل ما تبقى من دروس التعليم الدينى، كان غائبا، ينظر بهدوء، بدون لوم وكذلك بدون صداقة إلى الكاهن عندما يوجه كلامه اليه، ويسمع بدون أى خطأ الأسئلة والأجوبة التى تمس الذات الآلهية وتضحية المسيح، بينما هو على بعد مسافات كبيرة جدا عن المكان الذى يسمع فيه، حالما فى هذا الامتحان المزدوج الذي لا يشكل فى النهاية سوى امتحان واحد . غارقا في العمل كما في ذات الحلم الذى يستمر، متأثرا فقط، ولكن بطريقة غامضة، بقداسات المساء التى كان عددها يتزايد باطراد فى الكنيسة القبيحة الباردة، ولكن حيث كان الأورغن يجعله

ينصت لموسيقى يسمعها لأول مرة، فهو لم يعرف حتى ذلك الوقت إلا الغناء الرتيب الغبى، ومن ثم كان يحلم بشكل أكثر عمقا وكثافة حلما عامرا بدغدغات ذهبية في نصف ظلام الأشياء والملابس الكهنوتية، في لقاء مع السر الخفى أخيرا، لكنه سر خفى لا اسم له، لا علاقة له بالكائنات الآلهية التى يسميها كتاب الدين ويحددها بدقة، والتى كانت تطيل العالم العارى الذى يعيش فيه، السر الخفى الداخلى الدافىء والغامض، الذى يغمره انه يوسع السر اليومى لابتسامة أمه الرزينة أو لصمتها عندما كان يدخل قاعة الطعام، بعد هبوط المساء، ولأنها وحدها في البيت لم تشعل مصباح البترول، تاركة الليل يجتاح الغرفة تدريجيا، هى نفسها مثل كتلة أكثر اعتاما وكثافة تنظر بتأمل من خلال النافذة إلى الحركة النشيطة والصاحبة للشارع، ولكنها صامتة بالنسبة لها، وكان الطفل يقف عندئذ على عتبة الباب، منقبض القلب، مترع بحب يائس لأمه ولما لا ينتمى إلى أمه، أو لم يعد ينتمى، إلى العالم وسوقية الأيام . ثم جاء ميعاد التناول الأول، الذي لم يحتفظ چاك سوى بذكريات قليلة عنه فيما عدا الاعتراف عشية التناول حيث اعترف بالافعال التى قالوا أنها خاطئة، أى أشياء قليلة، وعندما سأله القسيس : «ألم تخطر لك أفكار آثمة» ؟ أجاب الطفل بلا تبصر : «بلى، ياأبى»، وإن كان يجهل كيف يمكن لفكرة أن تكون آثمة، وعاش حتى اليوم التالى فى الخوف من أن يترك فكرة آثمة تفلت دون أن يعرف، أو ما كان أكثر وضوحا، كلمة من تلك الكلمات البذيئة التى يعمر بها قاموسه كتلميذ، وامسك قدر الامكان عن تلك الكلمات على الأقل، حتى صباح الاحتفال حيث ارتدى بدلة كحلية، وساعدة، ومزودا بكتاب القداس وسبحة من كرات بيضاء صغيرة، كل ذلك قدمه الأهل الأقل فقرا (الخالة مارجريت، الخ)، رافعا شمعته في الممر الرئيسى وسط صف من الأطفال حاملى الشموع تحت النظرات النشوانة للأهل الواقفين فى صفوف المقاعد، وجعله رعد الموسيقى الذى

انفجر يتجمد، وملأه رعبا وإثارة غير عادية حيث شعر لأول مرة بقوته اللانهائية على الفوز والحياة، إثارة سكنته طوال الاحتفال مما جعله شارد الذهن عن كل ما كان يدور، بما فى ذلك لحظة التناول، وأيضا خلال العودة والطعام حيث تمت دعوة الأهل حول مائدة أكثر «ثراء» عن المعتاد والتى أثارت تدريجيا المدعوين المعتادين على الأكل والشراب القليل، إلى أن ملأ الغرفة تدريجيا مرح ضخم، مما حطم اثارة چاك بل اصابه بالاضطراب لدرجة أنه عندما حان وقت التحلية وفى قمة الهياج العام، انفجر باكيا سألت الجدة : «ما الذى أصابك» ؟ رد : «لا أعرف، لا أعرف»، صفعته الجدة نافدة الصبر . وقالت : «هكذا ستعرف لماذا تبكى» . لكنه كان يعرف، نظر إلى أمه، التى ابتسمت له، عبر المائدة، ابتسامة صغيرة حزينة . قال الاستاذ برنارد : «لقد تم الأمر بشكل جيد، حسن، إلى العمل الآن» . بقيت بضعة أيام من العمل الشاق، وكانت الدروس الأخيرة عند الاستاذ برنارد شخصيا، وذات صباح، عند محطة الترام، قرب منزل چاك، وقف التلاميذ الأربعة حول الأستاذ جرمان، ومع كل منهم مرفقة ورق ومسطرة ومقلمة، بينما كان چاك يرى فى شرفة بيته أمه وجدته مائلتين إلى الأمام وهما تلوحان لهم بحماس .

كانت المدرسة التى جرت فيها الامتحانات تقع في الطرف الآخر من قوس الدائرة التي تكونها المدينة حول الخليج، فى حى كان فيما مضي ثريا وكئيبا وأصبح بفضل الهجرة الاسبانية، أحد أكثر الأحياء شعبية وحيوية فى العاصمة الجزائرية . كانت المدرسة نفسها عبارة عن مبنى ضخم مربع يشرف على الشارع. ويتم الدخول اليها عن طريق سلمين جانبيين وسلم فى الوسط، واسع عظيم الحكم، وعلى جانبيه حدائق هزيلة مزروعة بأشجار الموز . تحميها حواجز شبكية من تخريب التلاميذ . ويفضى السلم المركزى إلى ممر يجمع السلمين الجانبيين حيث ينفتح الباب الضخم الذى يستخدم فى المناسبات الكبيرة، وإلى

جواره باب أصغر بكثير يؤدى إلى حجرة البوابة الزجاجية وهو الباب المستخدم عادة . فى هذا الممر كان الأستاذ برنارد وتلاميذه ينتظرون أمام الباب المغلق منذ الصباح الباكر الذى لايزال نديا، أمام الشارع الذى لا يزال رطبا وستغطيه الشمس بعد قليل بالتراب، ينتظرون مع أول من وصل من التلاميذ، الذي كان يخفى أغلبهم خوفه تحت هيئة طليقة، إلا بعض التلاميذ الذين تعكس محياهم الشاحبة وصمتهم توترهم . لقد جاءوا مبكرين بنصف ساعة، كانوا صامتين يحيطون عن قرب بمدرسهم الذى لم يكن لديه ما يقوله لهم، تركهم فجأة قائلا أنه سيعود . عاد بالفعل بعد لحظة، أنيقا كعادته بقبعته ذات الحافة الملفوفة وحذاء الران الذى ارتداه ذلك اليوم، ممسكا فى كل يد بلفافتين من ورق الزبدة طرفهما ملفوف على شكل حلزونى لكى يمكن إمساكهما، وعندما اقترب رأوا أن الورق به بقع دهنية . قال الأستاذ برنارد : «هاهو الكرواسون، كلوا واحدة الآن واحتفظوا بالأخرى للساعة العاشرة» . قالوا له شكرا، واكلوا، لكن العجينة المضوعة عسرة الهضم كانت تمر بصعوبة من زورهم . وظل المدرس يردد «لا ترتعبوا . اقرأوا رأس المسألة جيدا وموضوع التعبير . اقرأوها عدة مرات . لديكم وقت كاف» . نعم سيقرأون عدة مرات، سيطيعونه، هو الذي يعرف كل شيء وإلى جواره تكون الحياة بلا عراقيل، يكفى أن يترك الإنسان نفسه له لكى يقوده . وفي هذه اللحظة حدث ضجيج قرب الباب الصغير . توجه الستون تلميذا المتجمعون الآن إلى هذا الاتجاه . فتح الحاجب الباب وقرئت قائمة . تم نداء اسم چاك من بين أوائل الأسماء . وكان يمسك عندئذ بيد مدرسه، وتردد . قال الأستاذ برنارد: «إذهب يا ولدى» . وتوجه چاك وهو يرتجف نحو الباب، وفى لحظة عبوره استدار إلى مدرسه . كان يقف هناك كبيرا وصلبا، ويبتسم لچاك بهدوء ويهز رأسه تأكيدا .

وقت الظهر، كان الأستاذ برنارد ينتظرهم عند الخروج عرضوا عليه مسوداتهم . سنتياجو فقط هو الذى اخطأ فى حل المسألة . قال الأستاذ برنارد

لجاك باختصار : «موضوع تعبيرك جيد جدا» . وبحلول الساعة الواحدة ظهرا صحبهم مرة أخرى وحتى الساعة الرابعة كان لا يزال هناك يراقب عملهم . وقال: «هيا، يجب الانتظار» . وبعد ذلك بيومين، فى الساعة العاشرة صباحا كانوا هم الخمسة مرة أخرى أمام الباب الصغير . فتح الباب، وقرأ الحاجب من جديد قائمة أقصر بكثير، كانت هذه المرة قائمة المختارين . فى الضجيج، لم يسمع جاك اسمه ولكنه تلقى صفعة مرحة على قفاه وسمع الأستاذ برنارد يقول له : «برافو، يابعوضة . لقد قبلت» . فقط سنتياجو اللطيف هو الذى رسب، كانوا ينظرون اليه بنوع من الحزن الشارد قال لهم : «لا يهم، لا يهم» . ولم يعد جاك يعرف أين هو ولا ما يحدث، وعادوا هم الأربعة بالترام، قال الأستاذ برنارد : «سأذهب لرؤية أهلكم، سأمر أولا عند كورمرى طالما أنه قريب»، وفى قاعة الطعام الفقيرة الممتلئة الآن بالسيدات، وحيث تجلس جدته وأمه التى أخذت اجازة بهذه المناسبة، وقف جاك مستندا إلى خاصرة مدرسه مستنشقا للمرة الأخيرة رائحة الكولونيا، ملتصقا بالدفء الحميم لهذا الجسم الصلب، وتألقت الجدة أمام الجيران وقالت : «شكرا يا أستاذ برنارد، شكرا»، بينما راح الأستاذ برنارد يربت على رأس الطفل وقال : «لم تعد فى حاجة الىّ، سيكون لديك مدرسون أكثر علما . لكنك تعرف أين تجدنى، تعال لترانى إذا احتجت أن أساعدك» . رحل، وظل جاك وحيدا، ضائعا وسط هؤلاء النسوة، ثم اندفع نحو النافدة ونظر إلى مدرسه وهو يحييه للمرة الأخيرة ويتركه من الآن فصاعدا وحيدا، وبدلا من فرحة النجاح عصر قلبه حزن طفولى ضخم، كما لو كان يعرف مسبقا انه بهذا النجاح سينتزع من عالم الفقراء البريء الدافيء، عالم مغلق علي نفسه مثل الجزيرة في المجتمع ولكن حيث يقوم البؤس مقام الأسرة والتضامن، لكي يلقى به فى عالم مجهول، ليس عالمه وحيث لا يمكنه أن يصدق أن المدرسين أكثر علما من ذلك المدرس الذى يعلم

قلبه كل شيء، وعليه من الآن فصاعدا أن يتعلم، ويفهم بدون مساعدة، وأن يصبح رجلا بدون معونة الرجل الوحيد الذى قدم له عونا، وأن يكبر وأخيرا أن يربى نفسه وحده بأغلى ثمن .

(٧)

الاحتلال والأب

الآن، أصبح كبيرا .. وعلى الطريق من بون إلى مندوفى، قابلت السيارة التى كان يستقلها چاك كورمرى سيارات چيب مدججة بالبنادق تسير ببطء .

«السيد ڤيار ؟

- نعم» .

أجاب وهو يقف على باب مزرعته الصغيرة، كان الرجل ينظر إلى چاك كورمرى قصيرا ولكنه متين بأكتاف مستديرة . وكان يمسك الباب مفتوحا بيده اليسرى، ويتشبث بيده اليمنى باطار الباب بقوة، بحيث فى الوقت الذى يفتح فيه الطريق إلى بيته كان يمنع الدخول اليه .

كان فى الأربعين من عمره على ما يبدو، إذا حكمنا بشعره الرمادى النادر الذى يجعل له رأسا رومانية. لكنه بجلد وجهه المنتظم الملفوح بالشمس وعينيه الفاتحتين، وجسمه الغليظ بعض الشئ ، وحذائه ذى السيور وقميصه الأزرق ذى الجيوب ، كل ذلك يجعله أكثر شبابا بكثير كان يستمع، ساكنا، إلى ايضاحات چاك. ثم قال: «ادخل»، وتنحى ليسمح له بالدخول، وبينما چاك يتقدم فى الممر الصغير ذى الجدران المطلية بالجير، والذى لا يضم من الأثاث سوى صندوق بنى وحامل خشبى منثنى للمظلات، سمع المزارع يضحك فى ظهره «اجمالا، مزار! وإذن ، بصراحة، انها اللحظة المناسبة..

سأل چاك : لماذا ؟

أجاب المزارع : «ادخل قاعة الطعام، إنها أكثر الحجرات طراوة» . كان نصف قاعة الطعام عبارة عن شرفة مغلقة كل ستائرها المصنوعة من القش اللين مسدلة إلا واحدة. وفيما عدا المائدة وصوان السفرة ذو الخشب الفاتح والطراز الحديث كانت الغرفة مؤثثة بمقاعد من الخيزران وأخرى من القماش قابلة للطى. أدرك چاك، وهو يستدير، انه وحده. تقدم نحو الشرفة، ورأى من خلال الفراغ بين الستائر، فناء مزروعا بشجيرات الفلفل، ويلمع بينها جرران لونهما أحمر صارخ وخلف شجيرات الفلفل تحت شمس الساعة الحادية عشرة التى لاتزال محتملة، تبدأ صفوف الكروم. وفى اللحظة التالية دخل المزارع بصينية عليها زجاجة شراب الأنيسون وأكواب وزجاجة مياه مثلجة.

رفع المزارع كوبه المملوء بالسائل اللبنى «لو تأخرت، لكان من المحتمل ألا تجد شيئا هنا. وفى كل الأحوال ما كنت ستجد فرنسيا واحدا ليقدم لك المعلومات» .

– إنه الطبيب العجوز الذى قال لى أننى ولدت فى مزرعتك.

– نعم ، لقد كانت جزءا من دائرة سان – ابوتر، ولكن أهلى اشتروها بعد الحرب.

– «نظر چاك حوله» إنك لم تولد هنا بالطبع أهلى أعادوا بناء كل شئ.

– هل عرفوا أبى قبل الحرب؟ .

– لا أعتقد كانوا يقيمون قرب الحدود التونسية ثم أرادوا أن يقتربوا من المدينة سولفرينو، بالنسبة لهم ، كانت تعنى المدينة؟

– ألم يسمعوا أحدا يتحدث عن الوكيل القديم؟

– لا، طالما انك من أهل البلد فانك تعلم ما يحدث. هنا، لا يحتفظ أحد بشئ. يتم هدم القديم ويعاد البناء من جديد. إن التفكير يتجه إلى المسقبل ويتم نسيان الباقى.



قال چاك : حسن، لقد أزعجتك بلا جدوى.

قال الآخر:«لا انه مما يسعدنى» وابتسم له، انهى چاك كوبه «هل بقى أهلك قرب الحدود؟»

«لا، إنها المنطقة المحظورة قرب السد. واضح انك لم تعرف أبى»، وبلع أيضا باقى كوبه وكما لو كانت به حيوية اضافية انفجر ضاحكا «انه مستوطن عجوز حسب الطراز القديم. انه من الذين يشتمونهم فى باريس. فى الحقيقة، كان قاسيا دوما ستين عاما. ولكنه طويل، جاف مثل الزهاد البروتستانت برأسه (الحصانى) كبير العائلة كان يجعل عماله العرب، وابناءه أيضا يعانون بكل إنصاف وفى العام الماضى ، عندما أصبح لزاما اخلاء المكان، كان صراعا واضطرابا شديدين وأصبحت المنطقة لاتطاق. وكان يتعين النوم مع البندقية. وعندما تمت مهاجمة مزرعة راسكيل، أتتذكر؟ .

– أجاب چاك لا، – بلى، قتل الأب والابنان، وتم اغتصاب الأم والابنة طويلا حتى الموت.... باختصار .. كان من سوء حظ والى المقاطعة أن قال للمزارعين المجتمعين انه يتعين إعادة النظر فى المسائل (الاستيطانية)، وطريقة معاملة العرب وان صفحة قد طويت الآن قال له العجوز انه لن يستطيع أحد فى العالم أن ينفذ القانون لديه لكنه امتنع عن الكلام منذ ذلك الحين . وكان يحدث أن يستيقظ ويخرج فى الليل وكانت أمى تراقبه من خلال الشيش وتراه يسير فى أرضه. وعندما وصل أمر الإخلاء، لم يقل شيئا ، كان قطاف العنب قد انتهى، والنبيذ فى البراميل. فتح البراميل ثم ذهب نحو نبع ماء أجاج، كان قد حول مجراه بنفسه منذ زمن واعاده من جديد إلى الطريق المستقيم نحو أراضيه، وجهز جرار التقليب العميق للارض. وطوال ثلاثة أيام متتالية، قاد الجرار عارى الرأس، دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ونزع أشجار الكروم من الأرض كلها. تصور ذلك، العجوز، جافاً

تماما، منتقضا على جراره، دافعا رافعة التسارع عندما تفشل سكة المحراث على التغلب على كرمة أكبر من غيرها، لا يتوقف حتى ليأكل، وكانت أمي تحضر له خبزا وجبنا وقطع اللحم «سوير ساد» التي يبتلعها بهدوء ، مثلما يفعل مع كل شيء ، ويقذف بآخر قطعة خبز كبيرة ليسارع إلى العمل، كل ذلك من شروق الشمس حتى غروبها، بدون نظرة واحدة للجبال فى الأفق، ولا للعرب الذين سرعان ما بلغهم الخبر، وكانوا يقفون على مسافة ينظرون اليه وهو يعمل دون أن يقولوا هم أيضا أى شئ وعندما وصل ضابط شاب، لا يعلم أحد من أخطره، وطلب ايضاحات، أجابه الآخر: «أيها الشاب، طالما أن مافعلناه هنا جريمة، اذن يجب ازالتها» وعندما انتهى كل شئ عاد إلى المزرعة وعبر الفناء المبلل بالنبيذ الذى تسرب من البراميل وبدأ فى حزم امتعته ، وكان العمال العرب ينتظرونه فى الفناء (كانت هناك أيضا دورية أرسلها الضابط، بغير سبب واضح بصحبة ملازم لطيف ينتظر الأوامر) معلمى، ماذا نفعل ؟ أجاب العجوز «لو كنت مكانكم، لذهبت إلى رجال المقاومة انهم سيفوزون. لم يعد هناك رجال فى فرنسا»

راح المزارع يضحك قائلا: «كان الأمر مباشرا!»

– هل هم معك؟

– لا لم يعد يريد سماع أى حديث عن الجزائر انه فى مرسيليا فى شقة حديثة، أمى تكتب لى انه يدور حول نفسه فى حجرته.

– وانت؟ .

– أوه ! أنا، باقى حتى النهاية وسأبقى مهما حدث لقد أرسلت أسرتى إلى الجزائر العاصمة وسألقى حتفى هنا. انهم لايفهمون ذلك فى باريس فيما عدانا، أنت تعلم، من هم الذين يمكنهم وحدهم فهم ذلك؟ .

- العرب.

- بالضبط لقد جعلنا لكى نتفاهم. انهم لايقلون غباء وفظاظة عنا. ولكنه نفس الدم الانسانى. وسوف نستمر فى الاقتتال، وفى قطع الخصى وتعذيب بعضنا البعض قليلا. ثم ستبدأ الحياة من جديد بين البشر. انه البلد، هو الذى يريد ذلك كوب أنيسون؟

- أجاب چاك - خفيفة.

وخرجا بعد قليل سأل چاك هل بقى فى البلدة أحد قد يكون عرف أهله لا طبقا لڤيار، فيما عدا الطبيب العجوز الذى ولد على يديه والذى تقاعد فى سولفرينو، ولم يكن هناك أحد. لقد انتقلت ملكية سان - ابوتر مرتين، وكثير من العمال العرب ماتوا فى الحربين، وولد الكثيرون. وكان ڤيار يكرر: «كل شئ هنا يتغير، الأمور تسير بسرعة جدا، ويتم نسيان كل شئ» لكن ربما يكون العجوز تاميزال.. كان حارسا لأحد مزارع سان - أبوتر فى عام ١٩١٣، كان فى العشرين من عمره تقريبا.. على أية حال، سيرى چاك البلدة التى ولد فيها.

باستثناء الشمال، كانت البلدة محاطة من بعد بالجبال التى كانت حرارة الظهيرة تجعل حدودها الخارجية غير واضحة مثل كتل ضخمة من الحجارة والضبابة المضيئة، يمتد بينهما سهل سيبوز الذى كان مستنقعات فيما سبق حتى البحر فى الشمال، وتحت السماء البيضاء من الحرارة تمتد حقول الكروم المشدودة بالحبال الرفيعة، بأوراقها التى اكسبتها المعالجة باملاح الكبريت زرقة فى اللون وعناقيدها التى أسودت، تقطعها على مسافات متباعدة صفوف من أشجار السرو أو غابات صغيرة من اشجار الاوكاليبتوس التى تحتمى فى ظلها البيوت سلكا طريقا زراعيا حيث كانت كل خطوة تثير ترابا أحمر. وأمامهما، كان الفضاء حتى الجبال، يهتز والشمس تطلق. وعندما وصلا إلى بيت صغير

وراء غابة من أشجار الصبار، كان العرق يغطيهما. واستقبلهما كلب غير مرئى بنباح خانق.

كان للبيت الصغير، الخرب بعض الشئ، باب من خشب التوت مغلق بعناية طرق ڤيار على الباب وتضاعف النباح. وكان يبدو انه آت من فناء صغير مسدود، ومن الناحية الأخرى من البيت. لكن أحدا لم يتحرك ، قال المزارع: إنهم هنا ولكنهم ينتظرون ثم صاح: «تميزال! انه ڤيار».

«منذ ستة شهور جاءوا للبحث عن زوج ابنته، كانوا يريدون معرفة ما إذا كان يقوم بتموين رجال العصابات ولم يسمع عنه شئ منذ ذلك الحين ومنذ شهر قيل لتميزال انه ربما حاول الهرب فقتلوه..

- أوه! قال چاك، وهل كان يقوم بتموين رجال العصابات؟

- ربما نعم، ربما لا . إنها الحرب ، ماذا تريد؟

ذلك يفسر أن الأبواب تستغرق وقتا طويلا كى تفتح فى بلد حسن الوفادة»

وهنا انفتح الباب وابتسم تميزال، صغير يضع على رأسه قبعة من القش عريضة الحواف ويرتدى بزة عمل زرقاء مرقعة، ابتسم ڤيار ونظر إلى چاك «انه صديق لقد ولد هنا. - ادخل، قال تميزال ستشرب شايا».

لا يتذكر تميزال شيئا على الاطلاق. نعم ، ربما . لقد سمع أحد أعمامه يتكلم عن مدير بقى عدة أشهر، كان ذلك بعد الحرب . قال چاك :قبل، ممكن، لقد كان صغيرا فى ذلك الحين، وماذا أصبح أباه؟ لقد قتل فى الحرب» مكتوب، قال تميزال. لكن الحرب شئ سيئ. قال فيار : لقد كانت دائما هناك حروب، لكن سرعان ما يتم التعود على السلام. وبالتالى يعتقد أنه ذلك هو الأمر الطبيعى. لا ، إن الطبيعى هو الحرب - الرجال مجانين فى الحرب . قال تميزال وهو متجه لأخذ

صينية الشاى من يد سيدة، فى الغرفة الأخرى، كانت تدير رأسها، شربا الشاى وهو يكاد يغلى ثم عاد مرة أخرى يسلكان الطريق شديد السخونة الذى يجتاز حقول الكروم. قال چاك: «سأعود إلى سولفرينو بسيارتى لقد دعانى الطبيب على الغذاء – إننى أدعو نفسى أيضا . انتظر. سوف أخذ مؤونة».

وبعد ذلك، فى الطائرة التى كانت تعيده إلى الجزائر العاصمة حاول چاك أن يرتب المعلومات التى جمعها. وفى الحقيقة لم يكن هناك سوى حفنة منها، ولم تكن هناك معلومة تخص أبيه مباشرة. بدا الليل بشكل عجيب وكأنه يرتفع عن الأرض بسرعة يمكن تقريبا قياسها لكى يلقف فى النهاية الطائرة التى كانت تجرى فى خط مستقيم، دون أى حركة ، مثل برغى ينغرس مباشرة فى سمك الليل. لكن الظلام كان يضيف إلى ضيق چاك، الذى كان يتنفس بصعوبة ويشعر أنه حبيس مرتين، مرة بالطائرة والأخرى بالظلام. أعاد النظر فى سجل الحالة المدنية واسم الشاهدين، أسماء فرنسية تماما كما تجدها على اللافتات الباريسية، والطبيب العجوز، بعد أن روى له عن وصول أبيه وولادته هو نفسه قال له إن الأمر يتعلق بتاجرين من سولفرينو، شخصين قبلا أن يقدما لأبيه خدمة وكان اسمهما مثل أسماء سكان الضواحى الباريسية، نعم، ولكن ما المدهش فى ذلك طالما أن سولفرينو أسسها ثوار عام ١٨٤٨ . وكان ڤيار قد قال «آه نعم ، كان أجدادى من هؤلاء الثوار. ولذلك فإن العجوز هو بذرة ثورية».

حدد أن جده الكبير كان تاجرا من فوبور سان ونيز وكانت جدته تعمل فى غسيل وكى الملابس. كانت البطالة منتشرة فى باريس، وكان الموقف يتحرك والجمعية التأسيسية لعام ١٧٨٩ أقرت خمسين مليونا لاقامة مستعمرة، ووعدوا كل واحد بمحل اقامة يتراوح بين هكترين وعشرة هكتارات. «أتظن أنه كان هناك متقدمون أكثر من ألف. كانوا جميعا يحلمون بأرض الميعاد خاصة الرجال

والنساء، كن يخشين المجهول. ولكن هم! إنهم لم يقوموا بالثورة من أجل لا شئ. كانوا من النوع الذى يؤمنون بـ «بابا نويل» وكان بابا نويل بالنسبة لهم يرتدى برنسا. لقد رحلوا فى عام ١٨٤٩ وتم بناء أول بيت فى عام ١٨٥٤ وفى أثناء ذلك....»

يتنفس چاك الآن بشكل أفضل. انجلى الظلام الأول، وانحسر مثل المد تاركا وراءه سحابة من النجوم، والسماء الآن امتلأت بالنجوم فقط، ضجيج المحركات المصمّ تحته لايزال يصدع رأسه. حاول أن يسترجع شكل العلاف العجوز بائع الخروب، الذى عرف أبيه وتذكره بشكل مبهم، وكان يردد باستمرار: «ليس متكلما، فهو لم يكن كثير الكلام» لكن الضجيج يرهقه ويغرقه فى حالة سيئة من الخمود حيث كان يحاول سدى أن يرى مرة أخرى ليتخيل أباه الذى اختفى وراء هذا البلد الشاسع والعدائى، وذاب فى التاريخ المجهول لهذه القرية وهذا السهل. عادت اليه التفاصيل النابعة من حديثهما عند الطبيب وبالحركة نفسها، للزوارق التى طبقا للطبيب قادت المستوطنين الباريسيين إلى سولفرينو بالحركة نفسها لم يكن هناك قطار فى تلك الفترة، لا، لا، بلى ولكنه لم يكن يصل إلا حتى ليون فقط. وبالتالى، ستة زوارق تجرها الخيول على الطريق محاذ للنهر وبالطبع عزفت فرقة البلدية موسيقى نشيد المارسيليز، ومنح رجال الدين البركة على ضفاف نهر السين مع علم مطرز عليه اسم القرية التى لم توجد بعد ولكن سيخلقها المسافرون بسهولة..

انجرف الزورق، وانزلقت باريس وأصبحت ملتبسة وبدأت فى الاختفاء، وليبارك الرب مشروعكم، وحتى من اتسموا بالصلابة والقوة وراء المتاريس توقفوا عن الكلام وسكتوا والقلب منقبض، وزوجاتهم مذعورات، وفى قعر الزورق كان يتعين الرقاد على فراش من القش مع الصوت الحريرى والماء القذر على مستوى الرأس، ولكن كانت النساء تغيرن ملابسهن أولا وراء ملاءات أسرة كن يتوالين فى

الامساك بها أين كان والده فى كل ذلك؟ لم يكن موجودا، وبالرغم من ذلك فإن هذه الزوارق المجرورة بالحبال على امتداد القنوات فى أواخر الخريف منذ مائة عام، والمنجرفة طوال شهر كامل على الأنهار والجداول المغطاة بآخر الأوراق الميتة تواكبها أشجار البندق والصفصاف العارية تحت السماء الرمادية وتستقبلها المدن بجوقة موسيقية رسمية، والمنطلقة ثانية بحمولتها من المتشردين الجدد نحو بلد مجهول؟ هذا الزورق كانت تخبره بأشياء عن شاب سان بريوك المتوفى أكثر من الذكريات (المصابة بالشيخوخة) والمشوشة التى ذهب للبحث عنها غيرت محركات الطائرة الآن من سرعتها. هذه الكتلة الداكنة ، هذه القطع المفككة من الليل ، كانت الـ «قابيلى» (*) ، الجزء البرى والدامى من هذا البلد ، الذى ظل طويلا بريا وداميا والذى اتجه نحوه – منذ حوالى مائة سنة – عمال عام ١٨٤٨ مكدسين فى فرقاطة بدواليب ، «اللابرامور ، قال الطبيب العجوز كان ذلك اسمها ، تصور ذلك، اللابرامورللذهاب نحو البعوض والشمس» ، على أية حال كانت «اللابرامور» تنشط بكل شفرات مروحتها فى مواجهة المياه المثلجة التى تثيرها رياح المسترال فى شكل عاصفة ، وريح قطبى استمر لمدة خمسة أيام وخمس ليالٍ يكسح سطوحها ، والفاتحون فى قاع السفينة ، مرضى لحد الموت ، يتقيأون على بعضهم البعض ويتمنون الموت ، حتى وصلت الفرقاطة الى مدخل ميناء بون حيث الجماهير على الأرصفة يستقبلون بالموسيقى المغامرين الضاربين الى الخضرة، القادمين من بعيد، الذين غادروا عاصمة أوروبا مع زوجاتهم وأطفالهم وأثاثهم ليرسوا مترنحين، بعد خمسة أسابيع من التجوال، على هذه الأرض ذات الخلفيات المائلة للزرقة والتى وجدوا بقلق أن لها رائحة غريبة، مصنوعة من السماد الطبيعى والتوابل.

استدار چاك فى مقعده ، كان نصف نائم ، رأى أباه الذى لم يره قط ولم يكن يعرف حتى قامته ، رآه على هذا الرصيف فى ميناء بون وسط المهاجرين ،

(*) المنطقة الجبلية فى الجزائر التى يسكنها القبيليون .

بينما الرافعات البحرية تترك قطع الأثاث الفقيرة التى صمدت للرحلة وتتفجر المشاجرات حول قطع الأثاث التى ضاعت. كان هناك ، مصمم ، كئيب ، يكز على أسنانه ، على كل حال أليس هذا هو الطريق نفسه الذى سلكه من بون سولفرينو، بعد ذلك بحوالى ٤٠ عاما على متن العربة التى تجرها الخيول وتحت شمس الخريف نفسها ؟ لكن الطريق لم يكن موجوداً بالنسبة للمهاجرين ، تكدست النساء والأطفال على شاحنات مسطحة تابعة للجيش ، الرجال على الأقدام يمضون فى خط مستقيم تقريبا عبر السهل المليء بالمستنقعات أو الدغل الشائك، تحت النظرة العدائية للعرب المتجمعين على مسافات متباعدة والواقفين على بعد يصحبهم بشكل شبه دائم رهط من كلاب القبيلية النابحة ، حتى وصلوا فى نهاية النهار الى البلدة نفسها والتى وصل اليها أبوه منذ أربعين عاما مضت ، بلدة مسطحة تحيط بها مرتفعات بعيدة بدون مأوى ، بدون قطعة أرض مزروعة ، تغطيها حفنة من الخيام العسكرية التى بلون الأرض ، لا شىء سوى فضاء عار وقفر ، وهو ما كان بالنسبة لهم نهاية العالم بين السماء الخاوية والأرض المجهولة، وكانت النساء تبكين فى الليل من التعب والخوف والإحباط.

نفس الوصول ليلا إلى مكان بائس وعدائى ، ونفس الرجال ثم... أوه ! كان چاك يجهل فيما يتعلق بأبيه ، ولكن بالنسبة للآخرين ، كان الشىء نفسه ، كان يتعين التحرك أمام الجنود الذين يضحكون ، والاستقرار داخل الخيام. البيوت ، سيتم بناؤها ثم يجرى توزيع الأراضى ، إن العمل ، العمل المقدس سينقذ كل شىء. قال ڤيار «لم يكن العمل على الفور...» ، وانهمر المطر لمدة ثمانية أيام ، المطر الجزائرى ، قوى ، عنيف ، لا ينضب وفاض السيبوس. وصلت المستنقعات الى حافة الخيام وكانوا لا يستطيعون الخروج ، أخوة أعداء فى ظل الاختلاط القذر للخيام الضخمة التى ترن بلا نهاية تحت وابل المطر ، ولتفادى النتانة قطعوا

أعواد البوص المجوف لكى يتمكنوا من التبول من الداخل إلى الخارج . وبمجرد توقف المطر ، توجه الجميع بالفعل الى العمل تحت قيادة النجار لإقامة أكواخ خشبية خفيفة.

«يا لهم من شجعان» قال ڤيار ضاحكا «انتهوا من أكواخهم الصغيرة فى الربيع وبعد ذلك كان من حقهم الإصابة بالكوليرا. إذا صدقت العجوز فإن الجد الأكبر النجار فقد فى الكوليرا ابنته وزوجته اللتين كانتا على حق فى التردد إزاء السفر – نعم تماما». قال الطبيب العجوز وهو يمشى فى كل اتجاه ، منتصبا دائما وفخوراً طماقه (*) كان لا يستطيع أن يظل جالساً. «كان يموت حوالى عشرة أشخاص كل يوم فى هذه الأكواخ. جاء الحر قبل موعده ، وكان الجو حارقا فى الأكواخ. وبالنسبة لقواعد الصحة ، حدث ولا حرج أليس كذلك ؟ باختصار كان يموت عشرة أشخاص يوميا». لقد تجاوز الأمر امكانيات زملائه العسكريين. ومن جهة أخرى كانوا يتسمون بالطرافة استنفدوا كل أمواتهم. ومن ثم طرأت لهم فكرة يجب الرقص لتسخين الدم. وفى كل الليالى ، بعد العمل كان المستوطنون يرقصون بين عمليتى دفن على صوت الكمان. ونجحت التجربة ، مع الحرارة ، كانوا يعرقون كل ما بهم من عرق وتوقف الوباء. «انها فكرة تستحق التعمق فيها». نعم كانت فكرة . وفى الليل الحار والرطب كان عازف الكمان الردىء يجلس على صندوق بين الأكواخ حيث ينام المرضى ، والى جواره فانوس يطن حوله البعوض والحشرات ، كان الفاتحون يرقصون فى ثوب طويل وحلة من الصوف ، ويعرقون بشكل خطير حول نار أعشاب ونباتات شائكة كبيرة ، بينما يسهر الحرس فى أركان المعسكر الأربعة لحماية المحاصرين من الأسود ذوى اللبدة السوداء ، ولصوص الماشية ، والعصابات العربية ، وفى بعض الأحيان

(*) كساء للساق من جلد أو قماش .

أيضا ضد غزوات المستوطنات الفرنسية الأخرى التى كانت فى حاجة الى البهجة أو المؤن. بعد ذلك منحت الأرض أخيراً ، قطع صغيرة متناثرة بعيدة عن قرية الأكواخ وتم بعد ذلك بناء القرية بأسوار من الطين لكن ثلثى المهاجرين كانوا قد ماتوا ، هناك كما فى كل الجزائر دون أن يلمسوا المعول أوْ المحراث. واستمر الآخرون فى التصرف فى الحقول كباريسيين فكانوا يحرثون وهم يرتدون فوق رءوسهم قبعة عالية ، والبندقية معلقة فى الكتف والغليون بين الأسنان ، كان مسموح فقط بالغليون ذى الغطاء ، كانت السجائر ممنوعة بسبب الحرائق ، والكينين فى الجيب ، كان الكينين يباع فى مقاهى بون وفى مطعم موندوفى الجماعى مثل مواد استهلاكية عادية ، ترافقهم زوجاتهم فى أثواب من الحرير. لكن البندقية والجنود حولهم على الدوام ، ولغسل الغسيل فى السايبوس كان يتعين وجود حراسة للاتى كن فى السابق يعقدن وهن يعملن اجتماعا سلميا فى مغسلة شارع الأرشيف ، وكانت القرية نفسها كثيراً ما تتعرض للهجوم ليلا ، كما حدث فى عام ٥١ أثناء إحدى حركات العصيان المسلح حيث دار مئات الفرسان الذين يرتدون البرنس حول المتاريس وانتهى الأمر بهم الى الفرار عند رؤيتهم قصبات المواقد يشهرها المحاصرون وكأنها مواسير بنادق ، يشيدون ويعلمون فى بلد عدو ، بلد يرفض الاحتلال وينتقم من كل ما يجده . ولماذا فكر چاك فى أمه بينما تصعد الطائرة وتعاود الهبوط ؟ ويسترجع رؤية عربة النقل التى غرزت فى الوحل على طريق بون ، حيث ترك المستوطنون سيدة حاملا ليبحثوا عن مساعدة ووجدوا بطن المرأة مبقورا وثدييها مقطوعين. قال ڤيار «كانت الحرب ، – لنكن عادلين» أضاف الطبيب العجوز ، لقد سجنوهم فى المغارات مع كل العشيرة ، بالتأكيد لقد قطعوا خصيى البربر الأوائل الذين هم أنفسهم... وهكذا ترجع الى المجرم الأول، أتعرف أن اسمه قابيل ، ومنذ ذلك الحين هى الحرب ، الرجال بشعون ، خاصة تحت الشمس العنيفة».

وبعد الغداء ، عبروا القرية ، مثلها مثل مئات القرى الأخرى على امتداد البلد كلها بضع مئات من المنازل الصغيرة على الطراز البرجوازى نهاية القرن التاسع عشر موزعة على عدة شوارع تتقاطع بزاوية قائمة مع بنايات كبيرة مثل الجمعية التعاونية والصندوق الزراعى وقاعة الاحتفالات ويتلاقى كل ذلك عند كشك الموسيقى ذى الهيكل المعدنى الذى يشبه مدخلا كبيراً لمحطة مترو وحيث كانت الجوقة الموسيقية أو الفرقة الموسيقية العسكرية تقدم لسنوات حفلات أيام الأعياد بينما الأزواج يلفون حوله فى الحرارة والتراب وهم يرتدون ملابس الآحاد ، ويقشرون الفول السودانى. اليوم ، كان يوم الأحد أيضاً ، لكن الخدمات النفسية للجيش وكبت مكبرات صوت فى أكشاك الموسيقى وكان أغلب الحشد من العرب ولكنهم لم يكونوا يدورون حول المكان ، كانوا ساكنين ويستمعون للموسيقى العربية التى (تتعاقب) مع الخطب ، والفرنسيون ضائعون وسط الحشد ، كانوا يتشابهون جميعا ، لهم نفس الهيئة الكئيبة ، مثل الذين جاءوا من قبل الى هنا على متن «اللابرامور» ، أو الذين دسوا فى مكان آخر فى ظل الظروف نفسها ، والمعاناة والعذابات نفسها ، هاربين من البؤس أو الاضطهاد ، لملاقاة الصخر والألم. مثل الأسبان من ماهون ، أسلاف أم چاك أو سكان الألزاس الذين رفضوا السيطرة الألمانية فى عام ١٨٧١ واختاروا فرنسا ومنحوهم أراضى متمردى عام ١٨٧١ الذين قتلوا أو سجنوا ، مقاومون أخذوا المكان الساخن للمتمردين ، ضحايا الاضطهاد ومضطهدون فى آن واحد ، ومن هؤلاء ولد أبوه الذى وصل الى هذه الأماكن بعد ذلك بأربعين عاما ، الهيئة الكئيبة والعنيدة نفسها ، متوجهاً بكامله نحو المستقبل مثل الذين لا يحبون ماضيهم أو ينكرونه ، مهاجر هو أيضا مثل كل الذين كانوا يعيشون وعاشوا على هذه الأرض دون أن يتركوا أثراً ، إلا على شواهد القبور المستهلكة والمخضوضرة لمدافن الاحتلال الصغيرة مثل كل

التى زارها چاك مع الطبيب العجوز فى ختام جولتهم بعد رحيل ڤيار. من ناحية ، كانت المبانى الجديدة القبيحة المبنية حسب آخر موضة جنائزية، والتى تم إثراؤها بزخارف رخيصة من الخرز ، وتفقد المكان الورع المعاصر. من الناحية الأخرى فى ظل أشجار السرو القديمة وبين الممرات المغطاة بإبر أشجار الصنوبر وأكواز السرو ، أو قرب الجدارات الرطبة التى ينبث أسفلها الحميض وأزهارها الصفراء توجد شواهد قبور قديمة مختلطة تقريبا بالأرض وأصبحت غير مقروءة.

جموع كاملة جاءت هنا منذ أكثر من قرن ، حرثت وحفرت اثلاما متزايدة العمق فى بعض الأماكن بينما كانت الأثلام مرتجفة فى أماكن أخرى بحيث غطتها طبقة رقيقة من التربة ، ومن ثم عادت بالتالى المنطقة مرة أخرى للنباتات البرية ، انجبوا ثم اختفوا. وكذلك فعل أبناؤهم ووجد هؤلاء الابناء والأحفاد أنفسهم على هذه الأرض مثلما وجد هو نفسه ، بدون ماض، بدون أخلاق ، بدون دروس ، بدون دين ولكنهم سعداء بوجودهم وبأن وجودهم فى النور ، ولكنهم يشعرون بالقلق أمام الليل والموت. كل هذه الأجيال ، ؛كل هؤلاء الرجال الذين جاءوا من كل تلك البلدان المختلفة اختفوا دون أن يتركوا آثاراً ، منغلقون على أنفسهم ، تحت هذه السماء الرائعة وامتد عليهم نسيان ضخم تنشره وتوزعه هذه الأرض ، ذلك الذى كان ينزل من السماء مع الليل فوق الرجال الثلاثة الذين يسلكون طريق القرية مرة أخرى والقلب مقبوض بإقتراب الليل يملأهم ، ذلك الجزء الذى يستولى على كل رجال افريقيا عندما يحل المساء السريع على البحر وجبالهم المتعرجة وعلى الهضاب العالية ، الجزع المقدس نفسه الذى يجعل المعابد والمذابح تنشأ على منحدرات جبل دلف حيث يحدث المساء التأثير نفسه. ولكن على أرض أفريقيا دمرت المعابد ولم يبق سوى هذا الثقل غير المحتمل الذى يستعذبه القلب . نعم حيث أنهم ماتوا ! ولا زالوا يموتون ! صامتين منصرفين عن

كل شيء ، مثلما مات والده في مأساة غير مفهومة بعيدا عن موطنه ، بعد حياة كلها لا ارادية واضطرارية منذ ملجأ الأيتام الى المستشفى ، مرورا بالزواج المحتوم ، حياة أقيمت حوله رغما عنه الى أن قتلته الحرب ودفنته ، مجهولا للأبد بالنسبة لنويه وابنه ، الذى رد هو أيضا إلى النسيان الشاسع الذى يمثل الوطن النهائى للرجال من شاكلته ، وآل لحياة بدأت بدون جذور ، وفى مكتبات تلك الفترة العديد من المذكرات عن استخدام الأطفال اللقطاء لاستعمار هذا البلد ، نعم الجميع هنا أطفال لقطاء وضائعون شيدوا مدناً زائلة لكى يموتوا بعد ذلك ، للأبد ، فى أنفسهم وفى الآخرين. انه تاريخ الرجال ، هذا التاريخ الذى لم يكف عن التجول على أحد أقدام الأرض تاركا فيها آثاراً قليلة للغاية قد تتبخر تحت الشمس الملحة ومعه ذكرى الذين صنعوه فعلا ، وتحول هذا التاريخ الى نوبات عنف وقتل ، وتفجر بغضاً وكراهية ، وشلالات من الدم سرعان ما تتضخم وسرعان ما تجف مثل وديان البلاد. يصعد الليل الآن من التربة ذاتها ويبدأ فى إغراق كل شيء موتى وأحياء ، تحت السماء الرائعة الموجودة دائما.

لا ، لن يعرف أبدا والده ، الذى سيظل نائما هناك ، وجه ضائع للأبد فى الرماد. كان هناك سر لدى هذا الرجل ، أراد أن يكشفه لم يكن هناك سوى سر الفقر الذى ينتج أناسا بلا اسم ، وبلا ماضٍ ويجعلهم يدخلون فى تلك الجمهرة الضخمة للموتى بلا اسم للذين صنعوا العالم بهلاكهم للأبد. لأن ذلك بالتحديد هو المشترك بين والده ورجال «اللابرامور» سكان الماهون القادمين من الساحل الأسبانى ، والألزاسيون ومع هذه الجزيرة الضخمة بين الماء والرمال ، والتى بدأ يلفها الآن صمت ضخم ، أى أن يكون الشخص مجهول الاسم والهوية ، على مستوى الدم ، والشجاعة والعمل والغريزة ، وهو أمر قاس ورحيم فى آن واحد. وهو الذى أراد الهروب من البلد الذى بدون اسم ، ومن عامة الناس ومن أسرة

بدون اسم. ولكن فى داخله شخص ما لم يكف وبعناد عن المطالبة بالابهام وإغفال الأسماء ، انه أيضا جزء من القبيلة ، يمشى بلا تبصر فى الليل الى جوار الطبيب العجوز الذى كان يتنفس بجهد على يمينه ، يستمع الى نغمات الموسيقى القادمة من الساحة ، يسترجع وجع العرب الجامد المغلق حول الاكشاك، وضحكة ڤيار ووجهه العنيد ويسترجع أيضا بعذوبة وحزن يعصر قلبه وجه أمه وكأنه وجه محتضر لحظة الانفجار ، متجولا فى ليل السنين على أرض النسيان حيث كان كل واحد هو الانسان الأول ، حيث هو نفسه كان عليه أن يربى نفسه وحده بدون أب ، ولم يعرف أبدا تلك اللحظات التى ينادى فيه الأب على ابنه بعد أن انتظر حتى يبلغ السن التى تمكنه من الاستماع ، لكى يقول له سر الأسرة ، أو ألماً قديماً ، أو تجربة حياته ، هذه اللحظات التى يصبح فيها ، حتى يولونيوس الكريه والمثير للسخرية ، فجأة كبيراً وهو يتكلم إلى «لايرت» بينما بلغ هو السادسة عشرة ثم العشرين ولم يتكلم أحد معه ، وكان يتعين عليه أن يتعلم وحده ويكبر وحده ، بالقوة ، ويجد وحده قواعده الأخلاقية وحقيقته ، وأخيراً أن يولد كرجل ثم لكى يولد أيضا بعد ذلك ميلاداً أكثر قسوة وهو أن يولد بالنسبة للآخرين، للنساء ، مثل كل الرجال الذين ولدوا فى هذا البلد والذين حاولوا ، والواحد تلو الآخر، أن يتعلموا العيش بدون جذور وبدون ايمان والذين هم الآن يجازفون بالغفلية النهائية وضياع الآثار المقدسة الوحيدة لمرورهم على هذه الأرض ، هى شواهد القبور غير المقروءة التى غطاها الليل الآن فى المدافن، عليهم الآن تعلم أن يولدوا بالنسبة للآخرين، للجمهرة الضخمة من الفاتحين المبعدين الآن، والذين سبقوهم على هذه الأرض ويتعين عليهم الآن الاعتراف بأخوة الجنس والمصير معهم .

راحت الطائرة تهبط الآن نحو الجزائر العاصمة. أخذ جاك يفكر فى مقبرة سان بريوك ؛حيث مدافن الجنود مصانة بشكل أفضل من مقابر موندوڤى (*).

(*) الجزائر العاصمة .

البحر المتوسط يفصل بين عالمين بداخله ، عالم حيث تم الاحتفاظ بالذكريات والأسماء فى مساحات محدودة ، وآخر حيث تمحو رياح الرمال آثار الرجال على مساحات كبيرة..

لقد حاول الهروب من الحياة الفقيرة الجاهلة العنيدة ، لم يستطع أن يعيش بهذا الصبر الأعمى ، بدون جهل وبدون مشروع آخر غير الحالة الحاضرة ، لقد جاب العالم ، علم وخلق ، وأحرق الكائنات ، كانت أيامه حافلة. وبالرغم من ذلك فإنه يعرف الآن فى أعماق قلبه أن سان بريوك وما تتمثله لم تعن شيئا له أبداً وأنه كان يفكر فى المقابر المستهلكة التى غادرها تواً ، متقبلاً ، بنوع من الفرح الغريب ، أن الموت أعاده الى وطنه الحقيقى ويغطى بدوره بنسيانه الضخم ذكرى الرجل المخيف و«العادى» الذى كبر وتثقف بدون مساعدة وبلا عون فى ظل الفقر على شاطىء سعيد وتحت نور الصباحات الأولى للعالم لكى يرسو بعد ذلك ، وحده، بدون ذاكرة أو إيمان ، على عالم رجال عصره وحكايته البشعة والمثيرة.

الجزء الثانى

الابن .. أو الإنسان الآلى

(١)

المدرسة

فى أول شهر اكتوبر من ذلك العام ، كان چاك كورمرى ، غير ثابت فى حذائه الجديد السميك ورقبته غارقة فى القميص الذى لايزال محتفظا بنشائه ، مدرعا بحقيبة تفوح منها رائحة الجلد والورنيش ، وعندما رأى سائق الترام، الذى كان يقف بجواره هو وبيير فى مقدمة القاطرة ، يعيد رافعته إلى السرعة الاولى والمركبة الثقيلة تغادر محطة بلكور، استدار ليحاول أن يلمح ، على بعد بضعة أمتار من هناك ، أمه وجدته وهما مازالتا منحنيتين من النافذة لمصاحبته قليلا فى ذلك الرحيل الأول إلى المدرسة الغامضة ، لكنه لم يتمكن من رؤيتهما لأن جاره كان يقرأ الصفحات الداخلية لجريدة «لاديبش آلجيريين» فاستدار إلى الأمام ، ناظرا إلى القضبان الحديدية التى كانت القاطرة تلتهمها بانتظام والأسلاك الكهربائية المهتزة فوقهم فى ذلك الصباح الرطب، مديرا ظهره، والقلب منقبض قليلا، للبيت والحي القديم الذى لم يغادره قط إلا لنزهات نادرة ، (كان يقال «الذهاب إلى الجزائر العاصمة» عند الذهاب إلى قلب المدينة) ، وتتزايد أخيرا سرعة الترام، وبالرغم من كتف بيير الاخوى الملتصق تقريبا به كان يملؤه شعور بالوحدة القلقة من عالم مجهول حيث لايعرف كيف يجب أن يتصرف .

فى الحقيقة ، لا أحد كان يستطيع نصحهما، وسرعان ما أدركا، هو وبيير ، أنهما وحدهما . أما الاستاذ برنارد نفسه، الذى لن يجرؤ على أية حال على

ازعاجه ، فلا يستطيع أن يقول لهما شيئا عن هذه المدرسة التى لا يعرفانها . أما أهلهما فكان جهلهم بها أكثر شمولا . بالنسبة لأسرة جاك، كانت اللاتينية مثلا كلمة لا معنى لها اطلاقا. وأنه كانت هناك عصور (فيما عدا عصور الوحشية، التى كان يمكنهم على النقيض تصورها) لم يكن أحد يتكلم فيها الفرنسية وأن الحضارات (هذه الكلمة لاتعنى شيئا بالنسبة لهم) تتابعت وكانت عاداتها ولغتها مختلفة لهذه الدرجة ، هذه الحقائق لم تصل إليهم . كما لم تبلغهم الصورة والشىء المكتوب والمعلومات الشفوية ولا حتى الثقافة السطحية المتولدة من المحادثة العادية . ففى ذلك البيت، حيث لا توجد صحف ولا كتب ، إلى أن أحضرها جاك، ولا مذياع أيضا، لا يوجد سوى الأشياء ذات المنفعة المباشرة، وحيث لايتم استقبال سوى افراد العائلة ولايغادر أحد البيت إلا نادرا ودائما من اجل لقاء افراد نفس العائلة الجاهلة، كان ما يعود به چاك من المدرسة غير قابل للاستيعاب ، وكان الصمت يكبر بين الاسرة وبينه حتى فى المدرسة ، لم يكن بامكانه أن يتكلم عن أسرته التى كان يستشعر خصوصيتها دون أن يستطيع ترجمة هذه الخصوصية، حتى اذا انتصر على حيائه الذى لايقهر والذي كان يقفل له فهمه بالنسبة لهذا الموضوع.

لم يكن اختلاف الطبقات هو الذى يعزلهما. ففى ذلك البلد، بلد الهجرة والثراء السريع والافلاس المذهل كانت الحدود بين الطبقات أقل وضوحا من الحدود بين الأجناس . لو كان الطفلان عربا لكان شعورهما أكثر ألما ومرارة.

فى حين كان لهما زملاء عرب فى المدرسة الابتدائية فإن الطلبة العرب فى المدرسة الجديدة كانوا استثناء ، وكانوا دائما أبناء أعيان أثرياء . لا ، ان ما كان يفصلهما عن الآخرين، وأكثر بالنسبة لجاك عنه بالنسبة لبيير ، لان هذه الخصوصية كانت أكثر وضوحا في اسرته عنها فى أسرة بيير ، هو استحالة

ربطها بقيم أو كليشيهات تقليدية . أجاب بالطبع على تساؤلات بداية العام بأن أباه مات فى الحرب وهو ما كان يمثل إجمالا وضعا اجتماعيا، فهو ربيب الأمة، وكان ذلك مفهوما من الجميع. ولكن المصاعب بدأت بعد ذلك . ففى المطبوعات التى سلموها لهما ، كان لا يعرف ماذا يكتب أمام «مهنة الوالدين» .

فى أول الأمر كتب «ربة بيت» بينما كتب بيير« موظفة فى البريد والبرق والهاتف» . لكن بيير أوضح له أن ربة بيت ليست مهنة لكنها تقال عن المرأة التى تبقى فى البيت وتقوم بأعمالها المنزلية. أجاب چاك «لا، إنها تقوم بأعمال الآخرين المنزلية خاصة أعمال تاجر الخردوات الذى يقطن أمامنا»، قال بيير مترددا أعتقد أنه يجب كتابة «خادمة» . هذه الفكرة لم تطرأ قط لجاك لسبب بسيط ، إن هذه الكلمة ، النادرة لم ينطقها أحد أبدا فى بيتهم - ولسبب آخر أيضا ، هو أنه لم يكن لدى أى أحد فى بيتهم الاحساس بأنها تعمل للآخرين ، لقد كانت تعمل أولا من أجل اولادها . وبدأ جاك فى كتابة الكلمة ثم توقف ، فقد قاسى فجأة شعوراً بالخزى .

أى طفل لا يكون شيئا بذاته، إن والديه هما اللذان يقدماه.

إنه يعرف نفسه من خلالهما ، ومن خلالهما يتم تعريفه وتحديده فى عيون العالم، فهو يشعر أن الآخرين يحكمون عليه فى الحقيقة من خلال والديه ، وهو حكم لايستطيع استئنافه أو نقضه، وهذا ما اكتشفه جاك لتوه حكم العالم والآخرين ، كما اكتشف معه حكمه الذاتى على القلب السيىء الذى هو قلبه .

كان لايستطيع ان يعلم أنه مما يقلل من الجدارة، عندما يصير رجلا، عدم معرفة هذه المشاعر السيئة . لأن الحكم ، سلبا أو ايجابا ، يكون علي ما نكونه وبدرجة أقل بكثير على وضع اسرتنا، طالما يتم احيانا الحكم على الأسرة بدورها بناء على الطفل الذى أصبح رجلا . لكن ذلك كان يتطلب من جاك قلبا نقيا نقاء

بطوليا استثنائيا كى لايعانى مما اكتشفه لتوه ، كما يتطلب منه تواضعا مستحيلا كى لايستقبل بحنق وخزى هذه المعاناة وماكشفته له من طبيعته. ولم يكن لدى جاك شىء من ذلك كله، لكن كان لديه كبرياء صلب ساعده على الأقل فى هذا الظرف ، وجعله يكتب بريشة حازمة كلمة «خادمة» على المطبوعة التى حملها بوجه مقطب إلى المسئول الذى لم ينتبه حتى اليها . ومع ذلك، لم يكن جاك يرغب اطلاقا فى تغيير وضعه أو أسرته ، وظلت أمه كما هى أكثر شىء يحبه في العالم ، حتى ولو كان يحبها بيأس . ومن ناحية أخرى كيف يتسنى توضيح أن طفلا فقيرا يمكن أن يشعر أحيانا بالخزى دون أن يتطلع قط إلى شىء فريد غيره؟ .

وفى مناسبة أخرى ، عندما سئل عن عقيدته أجاب «كاثوليكى»

وعندما سألوه إذا كان يريد تسجيل اسمه فى فصول التربية الدينية أجاب بالنفى متذكرا مخاوف جدته . وقال المعيد ، وهو شخص يسخر دون أن يبدو عليه ذلك، «انت كاثوليكى غير ممارس لواجباتك الدينية» . كان جاك لايستطيع شرح ما كان يدور فى بيته ولا أن يفصح عن الطريقة الفريدة التى يتعامل بها أهله مع الدين .

وبالتالى أجاب بحزم «نعم» مما أثار ضحك الجميع واكسبه حيث أنه عنيد فى ذات اللحظة التى كان يشعر فيها أنه تائه ومبلبل تماما .

وفى يوم آخر ، وزع مدرس الأدب على التلاميذ مطبوعة تتعلق بنظام المدرسة وطلب منهم أن يعيدوها إليه موقعة من أهلهم، المطبوعة التى تعدد كل ما هو ممنوع أن يدخله التلاميذ إلى المدرسة، ابتداء من الأسلحة حتى النشرات المصورة مرورا بألعاب الورق، كانت مصاغة بلغة بليغة لدرجة أن جاك اضطر أن يلخصها فى كلمات بسيطة لأمه وجدته . وكانت أمه الوحيدة التى يمكنها أن تضع أسفل المطبوعة توقيعها غير المتقن . حيث كان من حقها بعد وفاة زوجها، أن تقبض من

الإدارة كل ثلاثة شهور معاشها كأرملة مقاتل، والإدارة في هذه الحالة هى الخزانة العامة ، ولكن كاترين كرومرى كانت تكتفى بقول أنها تذهب إلى الخزانة التى لم تكن بالنسبة لها سوي اسم علم خال من أى معنى، وعلى النقيض كانت تومى للأطفال بفكرة مكان غامض ذى موارد لاتنضب حيث بامكان امهم أن تغترف كميات قليلة من المال على فترات متباعدة . وكانت الإدارة فى كل مرة تطالبها بالتوقيع. وبعد الصعوبات الأولى ، قام أحد الجيران بتعليمها كيف تنقل نموذج توقيع أرملة كامى وكانت تنجح في رسمه على نحو يسمح بقبوله . غير أن جاك أدرك فى صباح اليوم التالى أن أمه التى نزلت مبكرة عنه بكثير لكى تنظف محلا يفتح مبكرا، نسيت أن توقع المطبوعة ولم تكن جدته تعرف كيف توقع. فهى من ناحية أخرى تجرى حساباتها بنظام دوائر تمثل الآحاد أو العشرات والمئات حسب ما إذا كانت مشطوبة مرة أو مرتين . واضطر جاك أن يعيد مطبوعته بدون توقيع وأن يقول أن أمه نسيت ، مما جعل المدرس يسأله ألم يكن هناك أحد غير أمه يستطيع أن يوقعها، وعندما أجاب بالنفى اكتشف من دهشة المدرس أن ذلك ليس عاديا كما كان يتصور حتى ذلك الوقت.

كما كان زملاؤه القادمون من فرنسا والذين قادتهم إلى الجزائر العاصمة مصادفات مهنة والدهم ، يوقعونه فى حيرة شديدة . وكان جورج ديدييه من أكثرهم إثارة لتفكيره ، حيث قرب بينه وبين جاك ميل مشترك لدروس اللغة الفرنسية والقراءة حتى ربطت بينهما صداقة عذبة جدا، وان كانت أثارت غيرة بيير ، كان ديدييه ابن ضابط كاثوليكى متدين للغاية وكانت والدته تعزف الموسيقى واخته التى لم يرها جاك قط . وان كان يحلم بها بلذة - تطرز ، وكان ديدييه الذى يهيىء نفسه للكهنوت حسب ما يقول شديد الذكاء متصلبا فيما يتعلق بقضايا العقيدة والأخلاق، حيث كان يتميز بيقين قاطع . لم يسمعه أحد قط يتلفظ بكلمة

بذيئة ، أو يلمح ، مثلما كان يفعل باقى الاطفال ويرضى لا يكل ، للوظائف الطبيعية أو وظائف التكاثر ، التى لم تكن من جهة أخرى واضحة فى أذهانهم مثلما كان يدعون . وكان أول شىء طلبه ديدييه من جاك عندما تبلورت صداقتهما هو أن يقلع عن البذاءات . ولم يكن صعبا على جاك أن يقلع عنها معه، لكنه مع الآخرين، كان يستعيد بسهولة بذاءات الحوار . (فى ذلك الوقت المبكر كانت ترتسم طبيعته المتعددة الاشكال التى ستسهل له العديد من الاشياء وتجعله قادرا على التحدث بكل اللغات والتكيف مع جميع الاوساط والقيام بجميع الأدوار، إلا..).. وبرفقة ديدييه فهم جاك ماهية الأسرة الفرنسية المتوسطة . كان لأسرة صديقه بيت فى فرنسا حيث كان يعود فى الأجازات ، ويتكلم ويكتب عنه باستمرار لجاك، بيت به عليّة مليئة بالحقائب والصناديق القديمة، حيث يحتفظون بخطابات الأسرة والذكريات والصور . كان ديدييه يعرف سيرة أجداده وأجدادهم، وأيضا سيرة أحد اسلافه الذى كان بحارا فى معركة الطرف الأغر ، وكان هذا التاريخ الطويل، الحى فى خياله يمده بالقدوة وبتعاليم للسلوك اليومى أيضا . جدى كان يقول أن.. بابا يريد أن ...»

وكان يبرر بذلك صرامته ونقاءه القاسى . وعندما كان يتكلم عن فرنسا كان يقول وطننا وكان يتقبل مقدما التضحيات التى قد يطلبها هذا الوطن (كان يقول لجاك : «أباك مات فداء للوطن») فى حين كان هذا المفهوم للوطن فارغا من المعنى بالنسبة لجاك، الذى كان يعرف انه فرنسى ، وأن ذلك ينجم عنه عدد من الواجبات، ولكن بالنسبة له كانت فرنسا هى الغائبة التى ينتسب إليها والتى تحتاج إليه أحيانا ، ولكن بشكل ما كما هو الحال بالنسبة لهذا الرب الذى سمع عنه خارج بيته واسرته، وهو على ما يبدو الموزع الأعلى للخيرات والآلام ولايمكن التأثير عليه، لكنه على النقيض قادر على كل شىء بالنسبة لمصير كل البشر .

وهذا الشعور الذى كان يحس به كان أيضا وبشكل أكبر شعور السيدتين اللتين تعيشان معه .

قال ذات يوم لأمه : ماما ، ما هو الوطن ؟ بدت مذعورة مثلما يحدث فى كل مرة لاتفهم فيها السؤال وقالت :

«لا أعرف . لا .. إنه فرنسا .. آه ! نعم» وبدت مرتاحة .. بينما ديدييه يعرف ما هو الوطن ، وكان وجود العائلة عبر الأجيال قويا لديه، والبلد الذى ولد فيه عبر تاريخه، كان يسمى جان دارك باسمها الشخصى فقط ، وينطبق الشىء نفسه على الخير والشر فهما محددان بالنسبة له مثل مصيره الحالى ومستقبله . كان جاك يشعر، وبيير أيضا ، وان كان بدرجة أقل ، أنه من نوع آخر ، بدون ماضٍ ولا بيت عائلة وعلّيّة محشوة بالخطابات والصور ، مواطنان نظريان لأمة غامضة حيث الثلج يغطى الأسطح بينما هما يكبران تحت شمس ثابتة ووحشية مزودان بأكثر الأخلاقيات أولية والتى تحرم عليهما السرقة مثلا، وتوصيهما بالدفاع من الأم والزوجة ، ولكنها تظل خرساء فيما يتعلق بكميات من القضايا التى تمس النساء والعلاقة مع الرؤساء .. (الخ) ، اطفال تجاهلهم الرب ولا يعرفونه، عاجزان عن تصور الحياة فى المستقبل ، لفرط ما يبدو لهما كل يوم أن الحياة الحاضرة لاتنضب فى ظل حماية آلهة غير مبالية بالشمس أو البحر أو البؤس .. وفى الحقيقة، إذا كان جاك قد ارتبط بديدييه بمثل هذا العمق ، فمرجع ذلك بدون شك إلى قلب هذا الطفل المولع بالمطلق والكامل فى انفعالاته الأمينة والصادقة (أول مرة سمع فيها جاك كلمة أمانة وصدق - التى قرأها مائة مرة - كانت من فم ديدييه) والقادر على حنان أخاذ، لكن ارتباط جاك بديدييه كان يرجع أيضا إلى غرابته فى عينيه ، وأصبحت جاذبيته بالنسبة لجاك جاذبية اغرابية تماما، وتشده

بشكل أقوى من حيث هى كذلك، كحاله حين كبر إذ كان يشعر بجاذبية لا تقاوم تجاه السيدات الاجنبيات كان لابن العائلة والتقاليد والدين - بالنسبة لجاك- اغراء وسحر المغامرين العائدين من المناطق الاستوائية وقد لوحتهم الشمس ويخفون سرا غريبا وغير مفهوم.

إن الراعى القبيلى الذى يشاهد ، وهو على جبله الأجرد المتآكل من الشمس مرور طيور اللقلق يستطيع أن يحلم طوال النهار بذلك الشمال الذى تأتى منه هذه الطيور بعد سفر طويل ، لكنه يرجع فى المساء إلى هضبة أشجار المصعكا والأسرة ذات الاثواب الطويلة وكوخ البؤس حيث نمت جذوره . وهكذا ، كان بامكان جاك ان ينتشى بشراب المحبة الغريب الخاص بالتقاليد البرجوازية، لكنه يظل مرتبطا، بمن يشبهه أكثر وهو بيير فى كل صباح ، وفى تمام السادسة والربع (فيما عدا الأحد والخميس) كان جاك ينزل سلالم منزله أربع درجات بأربع درجات ، راكضا فى رطوبة الفصل الحار أو تحت مطر الشتاء الشديد الذى ينفخ وشاحه مثل الأسفنجة، وينعطف عند النافورة فى شارع بيير ، وراكضا دائما ، يصعد الطابقين لكى يدق بهدوء على الباب . وكانت والدة بيير، وهو امرأة جميلة ذات بنية سخية، تفتح له الباب المؤدى مباشرة إلى قاعة الطعام ذات الأثاث الفقير . وفى نهاية القاعة ينفتح فى كل جانب باب يؤدى إلى غرفة . يتقاسم بيير وأمه احداهما بينما يتقاسم الغرفة الأخرى ، خالاه ، وهما عاملان خشنان فى السكك الحديدية، صامتان ومبتسمان . وعلي يمين قاعة الطعام توجد غرفة ضيقة بدون هواء ولا ضوء تستخدم كمطبخ وحمام .

وكان بيير دائما متأخرا يجلس أمام المنضدة المغطاة بالمشمع، ومصباح الغاز المضاء إذا كان الوقت شتاء ممسكا بين يديه بقدح من الفخار المطلى بطبقة لامعة، محاولا أن يبتلع القهوة باللبن الساخنة التى قدمتها له امه فى التو دون ان تلسعه

سخونتها . وكانت تقول «انفخ فيها» كان ينفخ ويشفط بتلمظ، بينما جاك يغير الساق التى يستند عليها وهو ينظر إليه . وعندما ينتهى بيير من شرب القهوة باللبن كان عليه أن يتجه إلى المطبخ ، الذى تضيئه شمعة، ليجد على حوض المطبخ المصنوع من الزنك كوب ماء تستند عليه فرشاة أسنان يزينها شريط سميك من معجون (أسنان خاص) ، لانه كان يعانى من التهاب اللثة. وكان يلبس وشاحة وحقيبته وقبعته ويفرش أسنانه طويلا وبقوة مرتديا كل عدته ، قبل أن يبصق بصوت مسموع فى حوض المطبخ المصنوع من الزنك وتختلط رائحة معجون الأسنان مع رائحة القهوة باللبن . فى أثناء ذلك ، كان جاك مشمئزا بعض الشىء ينتظر وهو نافد الصبر ولا يخفى نفاد صبره ، ولم يكن نادرا ان يعقب ذلك خصام، وهو اسمنت الصداقة . كانا ينزلان إلى الشارع فى صمت ويسيران حتى محطة الترام دون أى ابتسام . وعلى نقيض ذلك ، كانا فى مرات اخرى يتلاحقان ضاحكين أو يجريان وهما يتقاذفان إحدى الحقيبتين مثل كرة الرجبى . وعند المحطة ينتظران ، يرقبان وصول الترام الأحمر لكى يعرفا مع أى من السائقين الثلاثة سيركبان .

كانا يرفضان دائما الركوب فى عربات الترام العادية ويصعدان إلى القاطرة ليتجها بصعوبة إلى المقدمة، وحقائبهما تعوق سيرهما لأن الترام يكون مكتظا بالعاملين الذاهبين إلى وسط المدينة. وفى المقدمة ، كان يستغلان نزول كل راكب كى يقتربا أكثر وينضغطا على الجدار الخارجي المصنوع من الحديد والزجاج وصندوق السرعات المرتفع والضيق التى تعلوه رافعة ذات مقبض تدور افقيا على امتداد دائرة حيث تحدد علامة كبيرة بارزة من الصلب نقطة التوقف، وثلاث علامات أخرى للسرعات التدريجية وعلامة خاصة للسير إلى الوراء، كان السائقون يتمتعون فى عيون الطفلين بهيبة ونفوذ أنصاف الآلهة، فلهم وحدهم

الحق فى استعمال هذه الرافعة ، كما وضعت لافتة فوقهم تمنع التحدث إليهم، كانوا يلبسون زيا شبه عسكرى وقبعة بواقية من الجلد المقسى ، فيما عدا السائقون العرب فقد كانوا يرتدون غطاء للرأس من الشاش . وكان الطفلان يميزان بينهم تبعا لهيئتهم.. فهناك «الشاب الصغير الظريف»، له وجه فتى أول وأكتاف هشة ، و«الدب البنى»، وهو رجل عربى طويل قوى البنية ذو قسمات غليظة ، نظرته مثبتة دائما أمامه ، و «صديق الحيوانات»، وهو عجوز إيطالى له وجه ذابل وعيون فاتحة، ينحنى بكامله على مقبض إدارة الترام، وهو يدين بلقبه إلى أنه أوقف الترام تقريبا ذات مرة لكى يتفادى كلبا شارد الذهن، ومرة أخرى من أجل كلب مزعج كان يضع بعره بين القضبان، و«زورو»، وهو طويل وأبله وله وجه دوجلاس فيربانكس وشاربه الصغير كان صديق الحيوانات صديق قلب الأطفال أيضا لكن اعجابهما الشديد كان بالدب البنى الذى يقود آلته ذات الضجيج بكل سرعة رابط الجأش مزروعا منتصبا على قاعدة ساقيه الصلبة، واليد اليسرى الضخمة، تمسك بحزم بمقبض الرافعة الخشبى وتدفعه بمجرد أن يسمح ازدحام المرور بذلك نحو السرعة الثالثة، بينما اليد اليمنى يقظة على العجلة الضخمة الخاصة بالفرامل، على يمين صندوق السرعات، مستعدا لإدارة العجلة بقوة عدة لفات بينما يعيد رافعته إلى نقطة تغيير السرعة، وعندئذ تنزلق القاطرة بتثاقل على القضبان، وفى المنعطفات والتحويلات، كثيرا ما كان يحدث مع الدب البنى أن تترك العصا الطويلة، المثبتة بياى حلزونى على قمة القاطرة السلك الكهربى الذى تربطها به عجلة صغيرة ذات اطار مجوف، وتنتصب عندئذ العصا محدثة ضوضاء كبيرة من ذبذبات السلك وتصاعد الشرر، وعندها، يقفز المحصل من الترام ويلتقط السلك المثبت عند طرف العصاه الطويلة والذى ينطوى أتوماتيكيا فى صندوق من الحديد الزهر خلف القاطرة، ويجذب بكل قوته للتغلب على مقاومة

اليـاى الحلزونى المصنوع من الفولاذ، ويعـيد العـصـاه إلى الوراء ويتـركهـا ترتفع ببطء، ويحـاول ادخال السلك من جديد فى الإطار المجوف للعـجلة، وسط صـواريخ من الشـرر، كـان الطفـلان يتـابعـان المناورة وهمـا منحنيـان خـارج القـاطرة، أو لاصـقـان أنفـيهمـا على زجـاج النافذة إذا كـان الوقت شتـاء، وعندمـا كـانت تكلل بالنجاح، كانا يعلنان ذلك وكأنهما لا يخاطبان شخصا معينا لإعلام السائق دون اقتراف مخـالفة التحدث إليه مباشرة، لكن الدب البنى كان يظل هادئ الأعصاب ينتظر، طبقا للتعليمات، أن يعطيه المحصل إشارة الرحيل بجذب الحبل الرفيع المتدلى خلف القاطرة والذى يحرك جرسا موضوعا فى المقدمة، وعندئذ كان ينطلق مرة أخرى بالترام دون مزيد من الحرص، وفى المقدمة، كان الطفلان ينظران إلى الطريق المعدنى ينساب تحتهمـا وفوقـهمـا، سواء فى الصـبـاح الممطر أو المتلألئ، وكـانا يفـرحـان عندمـا يتـخطى التـرام بكل سـرعـة عـربـة تجـرهـا الخـيـول أو على النقيض يتنافس لبعض الوقت مع سيارة بطيئة وعند كل محطة كان الترام يفرغ جزءا من حمولته من العمـال العرب والفرنسيين ويمتلئ بركـاب أكثر أناقة كلمـا اتجه نحو وسط المدينة، ويعلن تحركه مرة أخرى برنين الجرس ويقطع هكذا مـا بين طرفى قوس الدائرة التى تمتد حوله المدينة، إلى اللحظة التى ينفذ فيها فجـأة إلى الميناء والفضـاء الضـخم للخليج الذى يمتد حتى الجبـال الكبيـرة المائلة إلى الزرقة فى الأفق البعيد .

وبعد ثلاث محطات تقع المحطة النهائية، ساحة الحكومة، حيث ينزل الطفلان وتنفتح السـاحة التى تحيط بها الأشجـار والمنازل ذات البواكى من ثلاثة جوانب، على مسـجد أبيض ثم على فضـاء الميناء، ويرتفع فى وسط السـاحة تحت السـمـاء السـاطعـة تمثـال لدوق أورليـان ممتطيـا جـوادا وقـد غطاه صـدأ النحـاس المائل للخضرة، فى حين غدت الأجزاء البرونزية من التمثـال سوداء تماما وكان يسيل

منها المطر فى الطقس الردئ «ويحكى بالضرورة أن المثال انتحر لأنه نسى سلسلة اللجام» بينما تنساب المياه بلا نهاية من ذيل الجواد فى حديقة صغيرة تحيط بالقصب ومحمية بسور من القضبان الحديدية، أما باقى الساحة فكانت مغطاة ببلاطات صغيرة لامعة، وكان الطفلان يقفزان من الترام وينطلقان عليها فى تزحلقات طويلة نحو شارع باب - أزون الذى يقودهما إلى المدرسة فى خمس دقائق .

كان شارع باب - أزون ضيقا ويزيده ضيقا بواكى على الجانبين تستند على أعمدة مربعة ضخمة، وتترك، بالكاد، المكان لخط ترام، تؤمنه شركة أخرى، يربط هذا الحى بالأحياء الأكثر ارتفاعا فى المدينة فى أيام الحر، ترقد السماء ذات اللون الأزرق الكثيف كالغطاء الحارق فوق الشارع، ويكون الظل رطبا تحت البواكى، وفى أيام المطر، كان الشارع كله يتحول إلى خندق عميق من الحجر الرطب اللامع . وعلى امتداد البواكى، كانت تتوالى محال التجار، تجار أقمشة بالجملة واجهات محلاتهم مطلية بألوان غامقة حيث أكوام القماش الفاتح تلمع بهدوء فى الظل، ومحال بقالة تفوح منها رائحة القرنفل والبن، وحوانيت صغيرة يبيع فيها تجار عرب حلوى يرشح منها الزيت والعسل، ومقاهى مظلمة وعميقة حيث تنتشر مرشحات القهوة فى تلك الساعة «بينما فى المساء، تمتلئ هذه المقاهى، المضاءة بمصابيح ساطعة، بالضوضاء والأصوات، شعب كامل من الرجال يطأون بأقدامهم النشارة المنتشرة على الأرضية الخشبية ويتزاحمون أمام طاولة الشرب المحملة بأكواب مملوءة بسائل أغبش وصحون صغيرة مليئة بالترمس والأنشوجة وقطع الكرفس الصغيرة والزيتون والفول «السودانى المحمص»، وأخيرا بازارات للسياح تبيع عقودا وأساور زجاجية شرقية قبيحة فى فترينات عرض مسطحة تحيط بها اسطوانات دوارة مزينة ببطاقات تذكارية وأوشحة موريتانية ذات ألوان فاقعة .

كان يدير أحد هذه البازارات الذى يقع فى منتصف البواكى رجل بدين يجلس دائما وراء واجهات محله في الظل أو تحت الضوء الكهربى، كان ضخما، مائلا إلى البياض وعيناه جاحظتان، أشبه بالحيوانات التى يعثر عليها عند رفع الأحجار أو جنوع الأشجار القديمة، وكان أصلع تماما، وبسبب هذه السمة الخاصة أطلق عليه تلاميذ المدرسة لقب «مزلقة الذباب» و «مضمار درجات البعوض» مدعين أن هذه الحشرات حين تقطع المساحة العارية لهذه الجمجمة فإنها تفقد توازنها عند المنعطفات، وكثيرا فى المساء، كانوا يمرون مثل سرب الزرازير راكضين أمام المحل لكى يروه صائحين بألقاب هذا البائس ومقلدين بـ «زرز– زز – زز » التزلج المفترض للذباب وكان التاجر البدين يسبهم، وحاول مرة أو مرتين ملاحقتهم ولكنه تخلى عن ذلك، وفجأة ظل هادئا أمام رشقة الصياح والسخرية، ولعدة أمسيات ترك الأطفال يتجرءون، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن جاءوا ليصيحوا تحت أنفه، وذات مساء، ظهر فجأة من وراء الأعمدة، حيث كان يختبىء، مجموعة من الشباب العرب، استأجرهم التاجر، وانطلقوا يلاحقون الأطفال، فى ذلك المساء، لم يفلت كل من چاك وبيير من العقاب إلا بفضل سرعتهما الاستثنائية، تلقى چاك صفعة فقط على الرأس من الخلف ثم، بعد أن أفاق من المفاجأة، تجاوز عدوه، لكن اثنين أو ثلاثة من رفاقهم تلقوا صفعات قوية على الرأس، ودبر التلاميذ بعد ذلك مؤامرة لنهب الدكان وتدمير صاحبه جسديا، غير أنهم لم ينفذوا فى الواقع شيئا من مؤامراتهم، وكفوا عن اضطهاد ضحيتهم واعتادوا أن يمروا على الرصيف المقابل، قال چاك بمرارة «لقد خفنا – على أى حال لقد كنا على خطأ»، أجابه بيير «كنا على خطأ وخفنا من الضرب» كان عليه أن يتذكر هذه الحكاية عندما فهم أن الرجال يتظاهرون باحترام القانون لكنهم لا يخضعون أبدا إلا أمام القوة.

كان شارع باب – أزون يتسع عند منتصفه فاقدا البواكى من جانب واحد لصالح كنيسة سانت – فيكتوار . كانت هذه الكنيسة الصغيرة تحتل موقع مسجد قديم . وعلى واجهتها المطلية بالجير حفر نوع من ترانيم صلاة التقويم فى القداس مزخرفة دائما بالورود، وعلى الرصيف الخالى، كانت محال الزهور تفتح أبوابها، وفى الساعة التى يمر فيها الأطفال تكون الزهور مفروشة بالفعل، كانت هذه المحال تقدم باقات ضخمة من السوس أو القرنفل أو الورد أو شقائق النعمان تبعا للفصول، وكانت الباقات مغروزة فى علب مأكولات محفوظة عالية، حافتها العليا صدئة بفعل الماء الذى ترش به الزهور باستمرار .

وعلى الرصيف نفسه، كان هناك أيضا، دكان صغير للفطائر العربية، هو فى الحقيقة حيز صغير يتسع لثلاثة أشخاص، وعلى أحد جوانبه حفر موقد زيت حوافه بخزف مزخرف باللونين الأزرق والأبيض ويغنى فوقه دست ضخم ملحة بالزيت المغلى، وأمام الموقد، كان يتربع شخص غريب يرتدى سروالا عربيا، وفى أيام وساعات الحر يكون جذعه نصف عار، أما فى الأيام الأخرى فيرتدى سترة أوروبية مقفولة فى أعلاها بدبوس انجليزى، وكان برأسه الحليقة ووجهه النحيف وفمه الخالى من الأسنان يشبه غاندى لكن بدون نظارات طبية، وكان يراقب قلى الفطائر المستديرة التى تتحمر فى الزيت ممسكا فى يده مقصوصة من المينا الحمراء، وعندما تنضج إحدى الفطائر أى تصبح حوافها ذهبية بينما تغدو العجينة الرقيقة جدا فى الوسط نصف شفافة ومقرمشة «مثل بطاطس محمرة شفافة»، كان يمرر مغرفته بحذر تحت الفطيرة ويجذبها بمهارة خارج الزيت، وبعد ذلك يهز المغرفة ثلاث أو أربع مرات فوق الدست ليصفيها من الزيت، ثم يضعها أمامه على منضدة العرض المحمية بالزجاج وهى عبارة عن أرفف مثقبة رصت فى جانب منها عصيان الفطائر الصغيرة ذات العسل والمجهزة من قبل، وفى الجانب

الآخر، فطائر الزيت المسطحة والمستديرة، كان بيير وجاك مغرمان بهذه الحلوى وعندما كان يتوفر لدى أحدهما قليل من النقود، وهو أمر استثنائى، كانا يتوقفان ويحصلان على زلابية فى ورقة يجعلها الزيت شفافة على التو أو على العصاة التى كان التاجر يغمسها قبل أن يعطيها لهما فى جرة بجواره مملوءة بعسل قاتم مزين بفتات الفطائر .

كان الطفلان يتلقيان هذه الروائع ويقضمونها وهما يركضان نحو المدرسة، والجذع والرأس مائلان إلى الأمام كى لا تتسخ ملابسهما .

أمام كنيسة سانت - فيكتوار كان يبدأ رحيل طيور السنونو بعد دخول المدارس بقليل، فى أعلى الشارع المتسع فى هذا المكان يمتد عدد كبير من الأسلاك الكهربية وكابلات الضغط العالى التى كانت تستخدم من قبل لتشغيل الترام، ولم يتم حكها بالرغم من عدم استخدامها بعد ذلك، ومع بداية البرد، وإن كان بردا نسبيا لأن الجليد لا يسقط أبدا، لكنه محسوس بعد وقع الحر الشديد لعدة شهور، كانت طيور السنونو، التى تطير عامة فوق الشوارع المطلة على البحر وفوق الساحة أمام المدرسة أو فى سماء الأحياء الفقيرة، مندفعة أحيانا بصرخات حادة نحو ثمرة تين أو قمامة على البحر أو روث طازج، كانت هذه الطيور تبدأ فى الظهور بشكل فردى فى بادئ الأمر فى ممر شارع باب - أزون، وتطير على ارتفاع منخفض بعض الشئ فى ملاقاة عربات الترام، حتى ترتفع فجأة لتختفى فى السماء فوق المنازل، وبغتة، ذات صباح راحت طيور السنونو تقف بالآلاف على جميع أسلاك ساحة سانت ڤيكتوار الصغيرة، وعلى أعلى المنازل، متراصة جنب بعضها البعض، تهز رءوسها، وأعلى أعناقها الصغيرة الداكنة، بينما تحرك أرجلها قليلا وهى تخفق بذيولها لتفسح المكان لدفعة جديدة من الطيور، وتغطى الرصيف بافرازاتها الصغيرة الرمادية، وتصدر جميعها معا زقزقة واحدة

مخنوقة، تقطعها نقنقات صغيرة، حديث مشبوه لا يتوقف، يمتد فوق الشارع منذ الصباح، ويتضخم تدريجيا حتى يكاد يصم الآذان بحلول المساء وعندما ينطلق الأطفال نحو عربات ترام العودة، ويتوقف الصوت فجأة بناء على أمر خفى، وتميل آلاف الرءوس الصغيرة والذيول السوداء والبيضاء على الطيور النائمة، ولمدة يومين أو ثلاثة، كانت الطيور تصل فى مجموعات صغيرة وخفيفة من جميع أرجاء الساحل وأبعد من ذلك أحيانا، وتحاول أن تجد لها مكانا بين من شغلوا المكان قبلها، وتستقر فوق الأفاريز على امتداد الشارع، وعلى جانبى التجمع الرئيسى، ويتزايد اصطفاق الأجنحة فوق المارة والزقزقة العامة التى تكاد أن تبعث على الصمم، وبعد ذلك، يصبح الشارع ذات صباح، خاليا بالشكل المفاجئ نفسه، ففى الليل، قبيل الفجر مباشرة، رحلت الطيور معا نحو الجنوب، ويعنى ذلك للأطفال أن الشتاء بدأ، قبل ميعاده بكثير، بما أن الصيف بالنسبة لهم لا يأتى قط بدون صرخات طيور السنونو الحادة فى سماء المساء التى مازالت حارة .

كان شارع باب أزون يفضى إلى ساحة كبيرة حيث ترتفع على اليسار واليمين المدرسة والثكنة العسكرية وجها لوجه . تدير المدرسة ظهرها للمدينة العربية، التى تبدأ شوارعها المنحدرة والرطبة فى الصعود على امتداد التل، أما الثكنة العسكرية فتدير ظهرها للبحر، وخلف المدرسة، تبدأ حديقة مارنجو، بينما يبدأ خلف الثكنة حى باب - العود الفقير نصف الأسبانى . قبل الساعة السابعة والربع بدقائق قليلة كان بيير وجاك، بعد صعودهما السلالم بأقصى سرعة، يدخلان وسط تجمع الأطفال من الباب الصغير للبواب، المجاور لبوابة الشرف، وينفذان إلى درج الشرف الكبير، الذى علقت على جانبيه لوحات الشرف، ويتسلقانه أيضا بأقصى سرعة ليصلا إلى قرص الدرج حيث يبدأ على اليسار سلم الطوابق الذى يفصله عن الفناء الكبير ممر مزجج، وهناك، وراء أحد أعمدة قرص الدرج، كانا يرصدان موضع وحيد القرن الذى يترصد المتأخرين .

حصل چاك وبيير، نظرا «لوضعهما الاجتماعى»، على منحة تسمح لهما بالتمتع بوضع الطلبة نصف المقيمين فى الداخلية وبالتالى كان يقضيان طوال اليوم فى المدرسة ويتناولان طعام الغداء فى مطعمها، وكان اليوم الدراسى يبدأ فى الساعة الثامنة أو التاسعة تبعا للأيام، لكن الإفطار كان يقدم للطلبة المقيمين فى الداخلية فى الساعة السابعة والربع وكان من حق الطلبة نصف المقيمين أن يتناولوا هذا الإفطار ولم تتمكن أسرتا الطفلين قط من تخيل إمكانية التخلى عن أى حق، خاصة أنهما يتمتعان بأقل القليل من الحقوق، ومن ثم كان چاك وبيير ضمن الطلبة نصف المقيمين القليلين الذين يصلون فى الساعة السابعة والربع إلى مطعم المدرسة الكبير المستدير ذى اللون الأبيض، حيث يجلس تلاميذ القسم الداخلى وهم لم يستكملوا استيقاظهم بعد أمام طاولات طويلة مغطاة بالزنك، وأقداح كبيرة وسلال ضخمة رصت فيها شرائح كبيرة من الخبز اليابس، بينما كان العمال، فى الغالب عرباً يمرون، وهم يرتدون فوطا من التيل الخشن، بين الصفوف بأباريق قهوة كبيرة كانت لامعة فيما مضى وذات فم ملوى على شكل مرفق، لكى يصبوا فى الأكواب سائلا يغلى يحتوى على هندباء أكثر من البن، وبعد ممارسة الطفلين لحقهما كانا يستطيعان بعد ذلك بربع ساعة، الانضمام للدراسة حيث يمكن للتلاميذ مراجعة دروسهم قبل بداية اليوم الدراسى تحت إشراف معيد، هو نفسه طالب مقيم فى القسم الداخلى .

كان تعدد المدرسين يمثل الفرق الكبير عن المدرسة الابتدائية، الأستاذ برنارد كان يعرف كل شئ ويدرس كل ما يعرفه بذات الطريقة، أما فى المدرسة الثانوية فكان المدرسون يتغيرون مع المواد، وكانت الطرق تتغير مع الرجال، وأصبحت المقارنة ممكنة، بمعنى أنه كان يتعين الاختيار بين من نحبهم ومن لا نحبهم قط، ومن هذا المنظور، يكون المدرس فى المدرسة الابتدائية أشبه بالأب، فهو يحتل كل

مكانه تقريبا، أنه كالأب لا مفر منه، وهو جزء من الضرورة، ومن ثم لا يطرح سؤال أنحبه أم لا، وفى أغلب الأحيان نحبه لأننا نعتمد تماما عليه، ولكن إذا تصادف ولم يحبه الطفل، أو أحبه قليلا، يظل الاحتياج والتبعية قائمين، وهو ما يشبه إلى حد ما الحب، وعلى نقيض ذلك، كان المدرسون فى المدرسة الثانوية مثل هؤلاء الأعمام والأخوال الذين من حق كل منا الاختيار بينهم، ومن الممكن، بشكل خاص، ألا نحبهم، وهو ما كان بالنسبة لمدرس فيزياء شديد الأناقة فى هندامه ولكنه متسلط وفظ فى أسلوب حديثه، ولم يستطع چاك وبيير تحمله قط، وإن كانا قد اضطرا إلى الالتقاء به مرتين أو ثلاث مرات على امتداد سنوات الدراسة، أما المدرس الذى لديه أكبر فرصة ليحظى بحب التلاميذ فهو مدرس الأدب، الذى كان يراه الأطفال أكثر من غيره، وبالفعل ارتبط چاك وبيير به فى جميع الصفوف تقريبا، دون أن يتمكنا بالرغم من ذلك من الاعتماد عليه لأنه كان لا يعرف شيئا عنهما، وحين ينتهى اليوم الدراسى كان يرحل إلى حياة مجهولة وهما أيضا يرحلان إلى الحر البعيد حيث لا توجد أية فرصة لاقامة أى مدرس فى المدرسة الثانوية، لدرجة أنهما كانا لا يقابلان أحدا قط، لا مدرسين ولا طلبة، على خط الترام الخاص بهما – العربات – الحمراء تؤمن الخدمة للأحياء الدنيا، أما الأحياء العليا المعروفة بأنها الأحياء الأنيقة، فيخدمها خط آخر عرباته خضراء .

ومن ناحية أخرى كانت هذه العربات تصل حتى المدرسة فى حين كانت العربات الحمراء تقف فى ساحة «الحكومة» حتى أن الطفلين، عند نهاية اليوم الدراسى، كانا يشعران بانفصالهما عن باب المدرسة، أو بالكاد أبعد من ذلك قليلا عند ساحة «الحكومة»، عندما يتجهان نحو العربات الحمراء الموصلة إلى الأحياء الأكثر فقرا، تاركين زمرة زملائهما المرحة، كان ما يشعران به هو انفصالهما وليس دونيتهما، أنهما كانا من مكان آخر، هذا كل ما فى الأمر .

على النقيض، كان الانفصال يزول أثناء اليوم الدراسى، ربما تكون المرايل أكثر، أو أقل، أناقة إلا أنها تتشابه، المنافسات الوحيدة كانت منافسات الذكاء أثناء الدروس، واللياقة البدنية أثناء الألعاب، وفى هذين النوعين من المباريات لم يكن الطفلان من الأواخر، إن التكوين والتدريب الصلب الذى حصل عليه الطفلان فى المدرسة الابتدائية منحهما تفوقا وضعهما منذ الصف السادس فى عداد المتفوقين، إن تمكنهما من الإملاء وصلابتهما فى الحساب وذاكرتهما المدربة، وبشكل خاص الاحترام الذى تم ترسيخه لديهما لكل أنواع المعرفة، كل ذلك كان بمثابة وسائل نجاح رئيسية، فى بداية دراستهما على الأقل . ولو لم يكن جاك مثيرا للمشاكل، وهو ما كان يعكر بشكل منتظم تسجيله فى لوحة الشرف، ولو كان بيير أكثر تمكنا من اللغة اللاتينية، لكان انتصارهما كاملا، فى جميع الحالات، حظى الاثنان بتشجيع مدرسيهما ونالا احترام الجميع، أما بالنسبة للألعاب ، فهى تعنى كرة القدم بشكل خاص، اكتشف جاك منذ أولى فترات الاستراحة ما سيصبح ولعه لسنوات عديدة. كانت المباريات تجرى فى فترات الاستراحة التى تلى الغداء فى مطعم المدرسة، كذلك فى فترة الفسحة التى تمتد ساعة وتسبق درس الساعة الرابعة الأخير، بالنسبة للطلبة المقيمين ونصف المقيمين والطلبة الخارجيين الموضوعين تحت الملاحظة، كانت فترة الفسحة لمدة ساعة، تسمح للأطفال أن يتناولوا وجبة خفيفة وأن يسترخوا قبل العودة للدراسة لمدة ساعتين يمكنهم خلالها أداء واجبات اليوم التالى. بالنسبة لجاك، لم يكن الأكل يهمه، كان يندفع مع المولعين بكرة القدم فى الفناء الاسمنتى الذى تحيط بجوانبه الأربعة المزروعة بأشجار التين والتى تحميها قضبان حديدية.. بواكى ذات أعمدة ضخمة (تحت هذه البواكى كان الطلبة المثابرون على الدرس والعقلاء يتمشون وهم يثرثرون) وتحف به أربعة أو خمسة مقاعد

خضراء.. ويتقاسم الفناء معسكران، ويقف حارسا المرمى عند طرفى الفناء بين الأعمدة، وتوضع كرة كبيرة من المطاط فى المنتصف ، لم يكن هناك حكم، ومع أول ضربة قدم يعلو الصراخ ويبدأ الركض. وجاك الذى كان يتكلم على قدم المساواة مع أفضل تلاميذ الفصل، كان يكسب أيضا على هذه الأرض احترام وحب أسوأ التلاميذ ، الذين غالبا ما تمنحهم السماء سيقانا قوية، ونفساً لا ينقطع تعويضا عن ضعف رءوسهم . وفى الملعب، كان يفترض لأول مرة عن بيير الذى كان لا يلعب، بالرغم من رشاقته لقد أصبح اكثر هشاشة، انه ينمو بسرعة أكبر من جاك وغدا أكثر شقرة وكأن عملية الزرع فى أرض أخرى لم تنجح معه بشكل جيد.. أما جاك فقد تأخر نموه وهو ما استحق عليه بعض الكنايات الطريفة، لكنه لم يكن يبالى ، كان يشعر وهو يجرى بشغف والكرة بين قدميه، كى يتفادى شجرة أو لاعبا منافسا، انه ملك الملعب والحياة. وعندما كان صوت الطبل يعلن نهاية الفسحة وبداية الدراسة ، كان يسقط بالفعل من السماء ، متوقفا فجأة على الاسمنت، لاهثا وهو يتصبب عرقا، وحانقا من قصر الساعات، ثم مدركا بالتدريج اللحظة، وعندئذ يتدافع من جديد نحو الطوابير مع الرفاق، وهو يمسح العرق عن وجهه بأكمام قميصه، وفجأة ينتابه الرعب من تآكل المسامير فى نعل حذائه والتى كان يفحصها بقلق فى بداية الدرس، محاولا تقييم الفرق مع عشية اليوم السابق ولمعان المسامير، وعندما يصعب عليه قياس درجة التآكل يشعر بالاطمئنان، إلا عندما كانت تحدث خسائر غير قابلة للاصلاح مثل نعل مفتوح أو قطع الحذاء أو التواء الكعب، عندها لم يكن يخالجه أدنى شك فى الاستقبال الذى سيحظى به عند عودته إلى البيت، فكان يبلع ريقه وتظل بطنه منقبضة طوال ساعتى الدرس، ويحاول تعويض غلطته بعمل أكثر ثابتا واستمراراً. رغم كل هذا الجهد فان الخوف جعل تشتته حتميا. من

ناحية أخرى، كان الدرس الأخير يبدوا أطول الدروس جميعا.. إذ كان يستمر ساعتين ويتم ليلا أو مع بداية المساء.

وكانت النوافذ العالية تطل على حديقة مارنجو.. وحول جاك وبيير ، الجالسين جنبا الى جنب، كان التلاميذ أكثر صمتا عن المعتاد، منهكين من العمل واللعب، ومنهمكين فى المهام الأخيرة.. وخاصة فى آخر العام، كان المساء يهبط على الأشجار الكبيرة، وبستان الزهور وغابة أشجار الموز الصغيرة فى الحديقة.. وكانت السماء التى تخضر تدريجيا تتمدد بقدر، بينما ضجيج المدينة يغدو أبعد وأكثر خفوتا. وعندما يكون الجو شديد الحرارة وتترك إحدى النوافذ مواربة، كانت صرخات آخر طيور السنونو تسمع فوق الحديقة الصغيرة، وكانت رائحة نبات السرنجة ونبات الماجوليا تطغى على عطور الحبر والمسطرة الأكثر حمضية ومرارة.. كان جاك يحلم، وقلبه منقبض بشكل غريب، حتى ينبهه الى النظام المعيد الشاب، الذى يحضر هو نفسه دروسه للكلية. وكان لزاما انتظار آخر دقات الطبلة..

وفى الساعة السابعة، كان الانفضاض خارج المدرسة والعدو فى مجموعات صاخبة على امتداد شارع باب - أزون، الذى تكون كل محلاته مضاءة والأرصفة مزدحمة بالناس تحت البواكى، لدرجة يلزم معها أحيانا الجرى على قارعة الطريق ذاتها وبين القضبان حتى تلوح إحدى عربات الترام، عندئذ كان يتعين الارتداد مرة أخرى تحت البواكى الى أن تنفتح أمامهم ساحة الحكومة ذات المحيط المضاء بالاكشاك وفترينات التجار العرب التى تنيرها لمبات الاستيلين والتى كان الأطفال يشمون رائحتها بتلذذ.

كانت عربات الترام الحمراء تنتظر خاصة بالركاب، بينما تكون أقل ازدحاما فى الصباح، وكان يتعين أحيانا الوقوف على سلم العربة وهو ما كان ممنوعا

ومسموحا به فى الوقت نفسه، إلى أن ينزل بعض الركاب عند محطة ما وعندئذ يغوص الطفلان فى الكتلة الآدمية، ويتفرقان، دون أن يتمكنا من الثرثرة، ويقتصرا على العمل ببطء للوصول الى أحد الدرابزينات حيث يمكن رؤية الميناء المظلم، الذى تبدو فيه البواخر الكبيرة كأنها، فى ليل البحر والسماء، هياكل بنايات محترقة حيث ترك الحريق كل جمراته. وكانت عربات الترام الكبيرة المضاءة تمر فى ضوضاء كبيرة أعلى البحر ثم تغوص قليلا نحو الداخل وتسير بين بيوت أكثر فقرا مع امتداد الطريق الى أن تصل الى حى بلكور، وهنا يتعين الافتراض وصعود السلالم التى لا تضاء أبدا نحو النور الدائرى لمصباح البترول الذى يضىء مشمع المائدة والمقاعد حولها، تاركا باقى الغرفة فى الظلام حيث كانت كاترين كورمرى منهمكة.أمام صوان السفرة فى تحضير أدوات المائدة، بينما الجدة فى المطبخ تقوم بتسخين يخنة الظهيرة، والأخ الأكبر يقرأ على أحد أركان المائدة رواية مغامرات . وأحيانا كان يتعين الذهاب الى البقال الزابى لشراء الملح الذى ينقص فى آخر لحظة ، أو الذهاب لاحضار الخال أرنست الذى كان يخطب عند جابى فى المقهى.

وفى الساعة الثامنة، يتم تناول العشاء فى صمت أو يروى الخال مغامرة غامضة تجعله يقهقه. لكن فى جميع الأحوال لم تكن المدرسة أبدا موضوع حديث، فيما عدا عندما تسأل الجدة إذا كان جاك قد حصل على درجات جيدة، وكان يقول «نعم» دون أن يتحدث أحد عن ذلك أبدا، لم تكن أمه تسأله عن شىء قط وتهز رأسها وهى تنظر اليه بعينيها العذبة عندما كان يقر أنه حصل على درجات جيدة، لكنها دائما صامتة ومنصرفة قليلا عما حولها، كانت تقول لامها: « لا تتحركى ، سأحضر الجبن»، ثم لا شىء حتى نهاية الطعام، حين تقوم لرفع الاطباق.

وكانت الجدة تقول: «ساعد والدتك» لانه كان يأخذ كتاب المغامرات لكى يقرأ بشغف ـ كان يساعد ثم يعود تحت اللمبة، واضعا الكتاب الكبير الذى يتحدث عن المبارزات والشجاعة على المشمع الناعم ، بينما تجذب امه مقعدا خارج دائرة ضوء المصباح، وتجلس عند النافذة فى الشتاء، أو فى الشرفة صيفا، وتنظر الى عربات الترام والسيارات والمارة الذين يتناقص عددهم تدريجيا. تقول الجدة لجاك أن عليه أن يذهب للنوم لانه يستيقظ فى الساعة الخامسة والنصف صباحا، يقبلها أولا ثم الخال وفى النهاية أمه التى تعطيه قبلة حنونة شاردة، ثم تعود الى وضعها الساكن حيث تجلس فى الظل دون كلل، ونظرتها الشاردة على الشارع وتيار الحياة الذى ينساب بلا كلل تحت حافة الطريق، بينما يراقبها ابنها فى الظلام وحلقه مقبوض، ناظرا الى الظهر النحيف المحنى، يملؤه قلق غامض أمام شقاء لم يكن يستطيع فهمه.

عشة الدجاج وذبح الدجاجة

هذا الجزء أمام المجهول والموت الذى كان يعاوده دائما وهو عائد من المدرسة إلى المنزل، والذى كان يملأ قلبه فى نهاية النهار بذات السرعة التى كان الظلام يلتهم بها الضوء والأرض، كان هذا الجزء لا يتوقف إلا فى اللحظة التى تضىء فيها الجدة مصباح الكيروسين، واضعة الزجاجة على مفرش المشمع، مشرئبة قليلا على أطراف أصابعها، ومستندة بفخذيها على حافة المائدة، وجسمها منحنى الى الأمام ورأسها ملوية لكى ترى بشكل أفضل عنق اللمبة تحت كوة المصباح ، ممسكة دولاب القداحة النحاسى الذى يضبط الفتيل تحت زجاجة المصباح واليد الأخرى تحك الفتيل بواسطة عود ثقاب مشتعل إلى أن يكف الفتيل عن التفحم ويعطى لهبا مضيئا صافياً وجميلا ، وعندئذ تعيد الزجاجة التى كانت تصر قليلا عند احتكاكها بأسنان الميزاب النحاسى حيث يتم غرزها ، ثم تعود لتقف مستقيمة مرة أخرى أمام المائدة ، وذراعها مرفوعا ، وهي ما تزال تضبط الفتيل إلى أن يتساوى الضوء الأصفر الدافىء ، على المائدة فى شكل دائرة كاملة واسعة ، فينير بضوء أكثر عنوية ، وكأن المفرش المشمع قد عكسه ، وجه المرأة ووجه الطفل ، الذى يشاهد على الاحتفال من الناحية الأخرى من المائدة ، فيما ينشرح قلبه ببطء مع ارتفاع النور .

كان يستشعر ذلك الجزء ، الذى يحاول مغالبته باحساس الكرامة أو الغرور ، عندما كانت جدته تأمره فى بعض المناسبات أن يذهب لاحضار دجاجة من الفناء.

وكان ذلك يتم دائما فى المساء ، عشية عيد مهم ، عيد الفصح أو عيد الميلاد ، أو بمناسبة زيارة أقارب أكثر ثراء يراد إكرامهم ، وفى الوقت نفسه اخفاء الوضع الحقيقى للأسرة عنهم كنوع من اللياقة . وفى السنوات الأولى للمدرسة الثانوية ، كانت الجدة قد طلبت من الخال جوزفين أن يحضر لها فراريج عربية من رحلاته التجارية التى كان يقوم بها يوم الأحد ، كما جندت الخال ارنست ليبنى لها عشة دجاج بدائية ، فى آخر الفناء ، مباشرة على التراب اللزج من الرطوبة ، حيث كانت تربى خمس أو ست طيور تعطيها بيضا وعند الحاجة دماءها . فى المرة الأولى التى قررت فيها الجدة إجراء عملية ذبح ، كانت الاسرة حول مائدة الطعام، وطلبت من أكبر الأخين الذهاب لاحضار الضحية . لكن لويس رفض وأعلن بصراحة أنه خائف . وضحكت الجدة بسخرية ، ووبخت أطفال الاثرياء أولئك المختلفين عن أطفال زمانها ، فى قلب الريف ، والذين كانوا لا يخشون شيئا . «جاك أشجع ، أننى أعرف ذلك ، إذهب أنت» فى حقيقة الأمر ، لم يكن جاك يشعر قط أنه أشجع . لكنه لم يستطع التراجع منذ لحظة إعلان شجاعته ، وذهب إلى هناك فى ذلك المساء الأول . كان عليه أن يهبط الدرج تحسسا فى الظلام ، ثم الدوران يسارا فى الممر المظلم أيضا ، والعثور على باب الفناء وفتحه كان الليل أقل إظلاما من الممر مما مكنه من تمييز الدرجات الأربع الزلقة والمخضوضرة المؤدية للفناء . على اليمين ، كان ضوء ضنين ينساب من مصارع نوافذ الجناح الصغير الذى تسكنه أسرة الحلاق والأسرة العربية . وفى الجانب المقابل ، كان يلمح البقع المائلة إلى البياض للحيوانات النائمة على الأرض أو على قضبان العشة المغطاة بالبراز ، وبوصوله إلى عشة الدجاج ، وبمجرد أن لمس وهو فى وضع القرفصاء تلك العشة المترنحة ، ووضع أصابعه التى تعلو رأسه فى العيون الكبيرة لشبكات سياجها ، بدأت ترتفع قوقأة خافتة وترتفع معها فى الوقت نفسه

رائحة البراز الدافئة . فتح الباب الصغير ذا الحاجز الشبكى الواقع على مستوى الأرض ، وانحنى كى يدخل يده وذراعه ، كان يقابل باشمئزاز الأرضية ، أو عصاة ملوثة فيسرع بسحب يده ، وقلبه منقبض من الخوف عندما تنفجر ضوضاء الأجنحة والأرجل ، وترفرف الطيور وتركض فى جميع الجوانب ، غير أنه كان يتعين عليه حسم الموقف طالما تم اختياره باعتباره الأشجع ، لكن ذلك الهياج الذى كانت عليه الطيور فى الظلام ، فى ذلك الركن من العتمة والقذارة ، كان يملأه بجزع يقبض بطنه كان ينتظر ، وينظر فوقه إلى الليل النظيف ، والسماء المليئة بالنجوم الواضحة الهادئة ، ثم يندفع إلى الامام ويمسك بأول رجل فى متناول يده ويسحب الطائر الممتلئ بالصراخ والفزع حتى الباب الصغير ، عندئذ يمسك بالرجل الأخرى بيده الثانية ويجذب الدجاجة خارج العشة بعنف ينزع جزءا من ريشها عند احتكاكها بقوائم الباب ، بينما امتلأت العشة كلها بقوقأت حادة ومذعورة أيقظت العربى العجوز ودفعته إلى الخروج حيث برز فجأة بوضوح فى مستطيل من الضوء ، قال الطفل بصوت خافت «أنه أنا يا سيد طاهر ، احضر دجاجة لجدتى - أوه ، أنه أنت ، حسن ، ظننت أنهم اللصوص » دخل العجوز مغرقا الفناء مرة أخرى فى الظلام، عندئذ انطلق جاك راكضا بينما الدجاجة تتخبط بجنون ، وهو يصدمها بجدران الممر أو قضبان السلم . سقيما من الاشمئزاز والخوف وهو يستشعر على كفة جلد أرجل الدجاجة السميك البارد ذى القشور ، راكضا بسرعة أكبر على قرص الدرجة وفى ممر المنزل ، ليظهر أخيرا فى قاعة الطعام كمنتصر برز المنتصر بوضوح فى المدخل ، أشعث الشعر، ركبتاه مخضرتان من حزاز الفناء ، ممسكا الدجاجة بعيدا قدر الإمكان عن جسمه ، ووجهه شاحب من الخوف ، بينما الجدة تقول للابن الأكبر : «أترى ، أنه أصغر منك ، لكنه يجعلك تخجل من نفسك» ؛ وانتظر جاك أن تأخذ الجدة بيد

حازمة أرجل الدجاجة كى ينتفخ بحق ، وهدأت الدجاجة فجأة وكأنها أدركت أنها أصبحت من الآن فصاعدا بين أيد لا ترحم ، راح شقيقه يأكل تحليته دون أن ينظر إليه ، إلا ليوجه له تكشيرة احتقار تزيد من رضا چاك ، على أية حال كان عمر هذا الرضا قصيرا فالجدة ، سعيدة بأن لها حفيداً يتسم بالرجولة ، كانت تدعوه لحضور مشهد ذبح الدجاجة فى المطبخ كمكافأة له ، كانت ترتدى مريلة زرقاء سميكة ، وتمسك بيدها أرجل الدجاجة ، وقد جهزت على الأرضية طبقا كبيرا عميقا من الخزف الأبيض ، وكذلك سكين مطبخ طويلة كان الخال ارنست يشحذها بانتظام على حجر طويل أسود ، بحيث بدا نصلها ، الذى أصبح ضيقا جدا وضامرا نتيجة للاستهلاك ، وكأنه خيط لامع «اتخذ مكانك هنا» أخذ چاك مكانه فى مؤخرة المطبخ ، بينما اتخذت الجدة مكانها فى المدخل ، وبذلك سدت الخروج على الدجاجة وعلى الطفل أيضا ، كان يتابع مرعوبا ، وخاصرته عند حوض المطبخ وكتفه الأيسر على الجدار ، الحركات الدقيقة للكاهن مقدم الذبائح والقرابين ، كانت الجدة تدفع الطبق بالضبط تحت ضوء مصباح الكيروسين الصغير الموضوع على طاولة خشبية ، يسار المدخل ، ثم تطرح الدجاجة أرضا وتضع الركبة اليمنى على الأرض لتتحكم بذلك فى أرجل الدجاجة ، بينما تفعصها بيديها لتمنعها من التخبط ثم تمسك بعد ذلك برأسها فى يدها اليسرى وتمطها إلى الخلف فوق الطبق ، وبالسكين الحادة مثل الموس ، تذبحها ببطء فى الموضع الذى توجد فيه لدى الإنسان تفاحة آدم ، وتفتح الجرح بأن تلوى الرأس فيما تدخل السكين على عمق أكبر فى الغضاريف بصوت بشع، والآن أصبحت الدجاجة ساكنة بعد أن هزت جسمها رجفات رهيبة بينما إنسال الدم قرمزيا فى الطبق الأبيض ، ونظر چاك إلى الدم وهو يسيل وساقاه مترنحتان وكأن دمه هو الذى يصفى منه ، وبعد وقت سرمدى قالت الجدة : «خذ الطبق» الدجاجة لم تعد

تنزف وضع چاك الطبق على الطاولة بحذر حيث بدأ لون الدم يغمق . ورمت الجدة الدجاجة إلى جوار الطبق وقد فقد ريشها لمعانه وأصبح كابيا ونزل الجفن المستدير المغضن على عينها الذابلة ، نظر چاك إلى الجسم الساكن والأرجل ذات الاصابع المتجمعة الآن والتى تتدلى بلا قوة ، وإلى العرف الرخو الباهت ، الموت أخيرا ، ثم ذهب إلى قاعة الطعام فى أول مساء ، قال له أخوه بغضب مكبوت : «أنا ، لا أستطيع مشاهدة ذلك ، إنه لشئ مقزز – لكن لا»، أجاب چاك بصوت متردد ، وكان لويس ينظر إليه نظرة فاحصة وعدوانية فى آن واحد ، وچاك ينتصب ويتعاظم ، ثم انغلق ثانية على الجزع ، على هذا الخوف المفاجئ العنيف الذى يستولى عليه أمام الليل والموت الرهيب ، واجدا فى الكبرياء والكبرياء فقط، إرادة شجاعة أدت فى النهاية إلى أن تقوم مقام الشجاعة ، وانتهى بأن قال : «إنك خائف ، هذا كل شئ » قالت الجدة التى كانت قد وصلت إلى قاعة الطعام : نعم چاك هو الذى سيذهب فى المرات القادمة إلى عشة الدجاج، ردد الخال ارنست «حسن أنه شجاع» ، بينما چاك مستمر فى مكانه وهو ينظر إلى أمه ، الجالسة بعيدا بعض الشئ ، ترتق جوارب حول بيضة خشبية كبيرة ، نظرت أمه إليه وقالت : « نعم ، إنك شجاع ، هذا جيد» واستدارت نحو الشارع ، وشعر چاك من جديد ، وهو ينظر إليها بملء عينيه ، بالتعاسة تستقر فى قلبه المنقبض . قالت الجدة : « إذهب إلى الفراش» وبدون أن يشعل مصباح الكيروسين الصغير ، خلع چاك ملابسه فى الغرفة على الضوء القادم من قاعة الطعام ، ونام على حافة السرير الذى يتسع لشخصين حتى لا يكون هناك مجال أن يلمس أخيه ولا أن يضايقه أنه على الفور منهك من التعب والانفعالات ، قد يوقظه أخوه أحيانا وهو يتخطاه لكى ينام عند الحائط ، لأنه يستيقظ فى الصباح بعد چاك ، أو توقظه أمه حين ترتطم أحيانا بالصوان فى العتمة وهى تخلع ملابسها ، وكانت تصعد بخفة إلى سريرها وسرعان ما تنام حتى يخال للمرء أنها ساهرة .

وتنتاب چاك الرغبة فى أن يناديها ويقول لنفسه أنها لن تسمعه على أية حال ، وكان يرغم نفسه عندئذ على البقاء مستيقظا مثلها ، بالخفة نفسها ، ساكنا دون أن يصدر أى صوت إلى أن يغلبه النعاس ، كما غلب أمه من قبل بعد يوم قاس من الغسيل أو الأعمال المنزلية .

أيام الخميس والأجازات

فقط ، فى يومى الخميس والأحد كان چاك وبيير يستردان عالمهما (باستثناء بعض أيام الخميس حيث كان چاك يحتجز فى المدرسة) وكان عليه (كما تشير إلى ذلك ورقة من الرقابة العامة كان چاك يوقعها من والدته بعد أن يكون قد لخص لها الأمر فى كلمة عقاب)، أن يمضى ساعتين ، من الثامنة حتى العاشرة (وأحيانا أربع ساعات فى الحالات الخطيرة) فى المدرسة، فى قاعة خاصة ضمن آخرين مثله، لتنفيذ عقاب عقيم تماما، تحت رقابة معيد حانق لاستدعائه فى ذلك اليوم، لم يعرف بيير قط خلال ثمانٍ سنوات من الدراسة عقاب الاحتجاز فى المدرسة. لكن چاك كان يجمع عقوبات الاحتجاز ، فهو كثير الحركة وشديد الغرور أيضا، وكان يجعل من نفسه أحمق لمجرد متعة الظهور. وكثيرا ما شرح للجدة أن هذه العقوبات تتعلق بالسلوك، إلا أنها كانت لا تستطيع التمييز بين الغباء وسوء السلوك بالنسبة لها، كان التلميذ الجيد صالحا وحكيما بالضرورة، وبالمثل فإن الفضيلة تقود مباشرة إلى العلم ، وهكذا كانت عقوبات الخميس تتفاقم بعمليات تأديب يوم الأربعاء، على الأقل فى السنوات الأولى).

كان صباح أيام الخميس الخالية من العقاب وأيام الآحاد مكرسا لشراء احتياجات المنزل والأعمال المنزلية، وفى العصر، كان بيير وچان يستطيعان الخروج معا، وفى نهاية الربيع ونهاية الصيف، كان هناك شاطىء الـ «سابليت»، أو حقل المناورات، وهو عبارة عن أرض فضاء تضم ملعب كرة قدم مرسوما بشكل بدائى والعديد من المسارات للاعبى لعبة الكرات، وكان لعب كرة القدم يتم غالبا

بكرة مصنوعة من الخرق القديمة، وبفرق تتكون تلقائيا من الصبية العرب والفرنسيين، لكن فى بقية العام ، كان الطفلان يذهبان إلى بيت العجزة فى «القبة»، حيث كانت والدة بيير ، التى تركت العمل بالبريد، تعمل رئيسة للمسئولات عن توزيع البياضات والعناية بها، «قبة» هو اسم ربوة فى شرقى الجزائر العاصمة، عند نهاية أحد خطوط الترام، فى الحقيقة، كانت المدينة تتوقف هناك، ويبدأ ريف الساحل العذب بتلاله المتناسقة ومياهه العزيزة نسبيا ومروج خصبة تقريبا وحقول ذات تربة حمراء شهية، تقطعها على مسافات متباعدة سياج من أشجار السرو العالية أو البوص، وتنمو حقول الكروم وأشجار الفاكهة والذرة بغزارة وبدون جهد كبير، وكان الهواء منعشا ويعتبر مفيدا بالنسبة للقادمين من المدينة والأحياء الفقيرة الرطبة الحارة، كان سكان العاصمة الجزائرية، بمجرد أن يتوافر لهم قليل من المال وبعض الايرادات، يهربون من صيف العاصمة إلى فرنسا ذات الحرارة المعتدلة ، وكان يكفى أن يكون الهواء الذى يتم تنفسه فى مكان ما باردا بعض الشىء لكى يسمونه «هواء فرنسا»، وبالتالى كان الهواء الذى يتم استنشاقه فى القبة هو هواء فرنسا، وكانت دار العجزة ، التى انشئت بعد الحرب بوقت قليل من أجل مشوهى الحرب المحالين للتقاعد، تقع على مسافة خمس دقائق من نهاية خط الترام، كانت الدار فى الأصل ديراً قديماً واسعاً ذا معمار مركب وموزع إلى عدة أجنحة، بجدران سميكة جدا مدهونة بالجير، وممرات مغطاة وقاعات كبيرة مقببة وطرية حيث اقيمت قاعات الطعام والخدمات، وكان مخزن البياضات التى تديره السيدة مارلون ، والدة بيير، يقع فى إحدى هذه القاعات الكبيرة، وكانت تستقبل الطفلين أولا فى هذه القاعة، وسط رائحة المكاوى الساخنة والبياضات الرطبة، وبين عاملتين، إحداهما عربية والأخرى فرنسية ، تعملان تحت إدارتها، وكانت تعطى كلا منهما قطعة خبز وشيكولاته، ثم تشمر

أكمامها عن ذراعيها الجميلتين اللتين تتميزان بالنداوة والقوة: «ضعا هذا فى جيبكما لوجبة الساعة الرابعة واذهبا إلى الحديقة، لدىّ عمل».

كان الطفلان يهيمان أولا فى الممرات والفناءات الداخلية، وفى أغلب الأوقات كانا يأكلان وجبتيهما على الفور لكى يتخلصا من الخبز المعيق لحركتيهما ومن الشيكولاته التى تنوب بين أصابعهما وكان يلتقيان بعجزة، فقدوا ذراعا أو ساقا أو يجلسون فى عربات صغيرة بعجلات دراجة، لم يكن هناك مشوهو حرب أو من فقدوا البصر، ، بل فقط من فقدوا الأطراف، يرتدون ملابس نظيفة وغالبا ما يحملون وساما، كم القميص أو السترة أو ساق السروال مرفوع بعناية ومثبت بدبوس انجليزى حول الجدعة غير المرئية، ولم يكن الأمر فظيعا، وكانوا عديدين، وبعد انقضاء مفاجأة أول يوم كان الطفلان يعتبرونهم مثل كل جديد يكتشفونه وسرعان ما يدمجونه فى نظام العالم، وكانت السيدة مارلون قد أوضحت لهما أن هؤلاء الرجال فقدوا ذراعا أو ساقا فى الحرب، وكانت الحرب بالذات تمثل جزءا من عالمهما، ويدور الحديث دائما عنها، لقد أثرت على العديد من الأشياء حولهما بحيث كانا يفهمان بدون عناء امكانية فقد ذراع أو ساق فيها، بل يمكن تعريفها بأنها فترة من الحياة تفقد فيها السيقان والأذرع، لذلك فإن هذا العالم من العرج لم يكن قط حزينا بالنسبة للطفلين، كان بعض جرحى الحرب صامتين وكئيبين ، لكن الأغلبية كانت شابة ومبتسمة، بل كانوا يسخرون من إعاقتهم، كان أحدهم أشقر وله وجه مربع قوى، مفعم بالصحة، وكان يشاهد كثيرا وهو يتجول فى مخزن البياضات، وكان يقول للطفلين: «ليس لدىّ سوى ساق واحدة، لكنك مازلت تستطيع تلقى قدمى فى العجيزة». ومستندا على عصاه باليد اليمنى وعلى درابزين الممر باليد اليسرى، كان ينتصب ويطلق قدمه الوحيدة فى اتجاههما، كان الطفلان يضحكان معه، ثم يفران بسرعة كبيرة، كان يبدو لهما طبيعيا أن يكونا

الوحيدين اللذين يستطيعان الركض أو استخدام ذراعيهما، مرة واحدة. عندما اصيب چاك بالتواء فى مفصله وهو يلعب كرة القدم واضطر إلى جر قدمه لعدة أيام، خطرت له فكرة أن عجزة يوم الخميس يعيشون طوال حياتهم عاجزين، مثله الآن، عن الجرى والصعود إلى الترام أثناء سيره وضرب الكرة، إن ذلك الشىء المعجز فى الميكانيكا البشرية أذهله فجأة، وفى الوقت نفسه انتابه جزع أعمى لفكرة أنه قد يصبح هو أيضا عاجزا، ثم نسى كل شىء.

كانا يحازيان قاعات الطعام ذات المصارع نصف المغلقة، حيث الطاولات الكبيرة المغطاة بالكامل بالزنك تلمع فى الظل قليلا، ثم المطابخ ذات الأوعية الضخمة والقدور والأوانى التى ينبعث منها رائحة شياط ثابتة، وفى الجناح الأخير، كانا يلمحان الغرف التى تضم سريرين أو ثلاثة أسرة مغطاة بأغطية رمادية وبواليب من الخشب الأبيض، ثم كانا ينزلان من سلم خارجى إلى الحديقة.

يحيط بدار العجزة منتزه كبير مهمل تماما تقريبا، وكان بعض العجزة قد أخذوا على عاتقهم أن يرعوا أجمات من أشجار الورد وروضات من الزهور حول الدار، فضلا عن بستان فاكهة صغير، محاط بسياج كبير من البوص الجاف، فيما عدا ذلك فإن المنتزه، الذى كان فى السابق رائعا، أصبح بلا عناية، كانت الأشجار الضخمة والنجيل الملكى وأشجار جوز الهند والمطاط ذات الجذع الضخم التى تتجزر فروعها المنخفضة بعيدا وتكون بذلك متاهة نباتية مليئة بالظل والأسرار، وأشجار السرو الكثيفة، المتينة، وأشجار البرتقال القوية، وباقات من الغار الوردى والأبيض ذى حجم غير طبيعى، تحيط بالممرات التى انمحت حيث أكل الصلصال الحصى، وتآكلت بفعل ركام عطرى من الرنجة، والياسمين، وياسمين البر، وأزهار الآلام، وأدغال من أزهار العسل اجتاحها هى نفسها عند القاعدة بساط قوى من النفل والحميض والأعشاب البرية، لقد كانا ينتشيان

بالتنزه فى الغابة المعطرة والزحف فيها والاختباء بحيث تكون الأنف على مستوى العشب، وتمهيد الممرات المتشابكة بواسطة السكين والخروج منها بسيقان مشطبة والوجه مليء بالماء.

لكن صنع سموم مرعبة كان يشغل أيضا جزءا كبيرا من بعد الظهر، فقد كوم الطفلان، تحت مقعد حجرى قديم يستند إلى شقة جدار مغطى بكرم برى، عدة كاملة تشكل معملهما وتضم أنابيب اسبرين وقوارير دواء وحبارات قديمة وشقفات أطباق وفناجين مشروخة، وهناك مستغرقان فى أكثر مناطق المنتزه كثافة، وبمعزل عن العيون، كانا يحضران شراب المحبة الغامض الخاص بهما، وأساس هذا الشراب هو الغار الوردى، وذلك ببساطة لأنهما كثيرا ما سمعا حولهما أن ظله ذو تأثير ضار وان المتهور الذى ينام تحته لا يستيقظ قط، وعندما يأتى الموسم، كان يتم صحن أوراق الغار وأزهاره بين حجرين لفترة طويلة حتى تتكون عجينة سيئة يعد شكلها وحده بموت مريع، وكانت تترك هذه العجينة فى الهواء الطلق، حيث تكتسب على الفور بعض الألوان المخيفة، وأثناء ذلك، يجرى أحد الطفلين ليملأ زجاجة قديمة بالماء، كما يتم سحق ثمار أشجار السرو، كان الطفلان على يقين من تأثيرها السيىء لسبب غير مؤكد هو أن السرو هو شجر المقابر، لكنهما كانا يقطفان الثمار من الشجرة ولا يأخذانها من الأرض حيث كان التيبس يعطيها شكلا مزعجا جافا وصلبا، ثم كانا يخلطان العجينتين فى قدح قديم، ويخففان الخليط بالماء ويصفيانه بمنديل قذر. كان الطفلان يتعاملان عندئذ مع العصير الناتج ذى اللون الأخضر المقلق، بكل الحذر والاحتراس الممكنين ازاء سم زعاف، كان يتم توزيع هذا السم بعناية على أنابيب الاسبرين أو على قوارير الأدوية التى يتم إغلاقها مرة أخرى مع تفادى لمس السائل، وكان يتم خلط ما تبقى بعجائن مختلفة ، من كل العينات التى يمكن قطفها، لتكوين مجموعات من السموم

المتزايدة التعقيد، ويتم ترقيمها بعناية ودقة ورصها تحت المقعد الحجرى حتى الأسبوع التالى، حيث يجعل التخمر تلك الأكاسير مهلكة بشكل قاطع، وعندما كان ينتهى هذا العمل السرى، كان چاك وبيير يتأملان بافتتان مجموعة القوارير المرعبة ويستنشقان بلذة الرائحة المرة والحمضية التى كانت تتصاعد من الحجر الملطخ بالعجينة الخضراء، ومع ذلك، لم تكن تلك السموم موجهة إلى أحد، وكان الكيميائيان يحصيان كمية البشر التى يستطيعان قتلها، وكانا فى بعض الأحيان يدفعان التفاؤل إلى حد افتراض أنهما صنعا كمية من السموم تكفى للقضاء على سكان المدينة ، غير أنهما لم يفكرا قط أن تلك العقاقير السحرية يمكن أن تخلصهما من زميل أو مدرس مكروه، ذلك لأنهما فى الحقيقة لم يمقتا أحدا قط، وهو ما كان كفيلا بازعاجهما كثيرا فى سن النضوج وفى المجتمع الذى كان عليهما عندئذ العيش فيه.

لكن أعظم الأيام كانت أيام الريح، فأحد جوانب البيت المطلة على المنتزه تنتهى بما كان شرفة فى الماضى ، وكان الدرابزين الحجرى لتلك الشرفة ممددا فى العشب أسفل القاعدة الأسمنتية الواسعة المغطاة بالبلاط الأحمر، ومن الشرفة المفتوحة على الجوانب الثلاثة، يتم الاشراف على المنتزه، وفيما ورائه، على خور يفصل رابية القبة عن إحدى هضاب الساحل، وفى الأيام التى تهب فيها ريح الشرق، وهى ريح عنيفة دائما فى العاصمة الجزائرية ، كان اتجاه الشرفة بحيث تهب الريح عليها مباشرة وعمودية على محورها، كان الطفلان فى تلك الأيام، يركضان نحو أشجار النخيل التى ترقد أسفلها دائما سعفات نخل طويلة جافة، كانا يقشران قاعدتها لنزع الأشواك منها وليتمكنا أيضا من امساكها بكلتا اليدين، ثم يجريان نحو الشرفة وهما يجران السعفات وراءهما، وكانت الرياح تعصف هائجة، مصفرة فى أشجار الأكالبتوس التى تهز فروعها العليا بجنون، وتشعث أشجار النخيل، وتفرك بصوب الحفيف الأوراق الكبيرة اللامعة لأشجار

المطاط، كان يتعين تسلق الشرفة، ورفع السعفات واعطاء ظهرهما للريح. وعندئذ، كان الطفلان يأخذان بكلتا اليدين السعفات الجافة التى تحدث صريرا، ويحمياها جزئيا بجسديهما، ثم يستديران فجأة ، وعلى الفور، تلتصق السعفة بهما، ويتنفسان رائحتها من التراب والقش. وكانت اللعبة هى التقدم ضد اتجاه الريح وهما يرفعان السعفة دائما إلى أعلى ، والفائز من يستطيع أولا الوصول إلى طرف الشرفة دون أن ينزع الريح السعفة من يده، ثم من يستطيع أن يظل قائما والسعفة مرفوعة على امتداد ذراعيه، وكل جسمه محمل على ساق واحدة ممدودة إلى الأمام، ويقاوم بنجاح قوة الريح الغاضبة ولأطول فترة ممكنة، هناك، قائما فوق ذلك المنتزه وتلك الهضبة الفائرة بالأشجار، وتحت سماء تجتازها سحب ضخمة بأقصى سرعة، كان جاك يشعر أن الريح القادمة من أطراف البلاد تنزل على امتداد السعفة وذراعيه كى تملأه بقوة وابتهاج كانا يجعلانه يطلق صرخات طويلة، دون توقف ، إلى أن يترك السعفة تجرفها العاصفة مع صرخاته، بعد أن يكون الجهد نشر ذراعيه وأكتافه . وفى المساء، وهو راقد، منهوك القوى من التعب، فى صمت الغرفة حيث تنام أمه بخفة، كان لايزال يسمع يعوى داخله صخب وجنون الريح التى ظل يحبها طوال حياته.

كان يوم الخميس أيضا هو اليوم الذى يذهب فيه جاك وبيير إلى مكتبة البلدية، كان جاك يلتهم دائما الكتب التى تقع تحت يده، ويبتلعها بالنهم نفسه الذى يحيا أو يلعب أو يحلم به لكن القراءة كانت تتيح له الفرار إلى عالم برىء حيث الثراء والفقر لهما نفس الجاذبية لأنهما خياليان تماما، إن مجلدات الجرائد المصورة الكبيرة، التى كان يتبادلها هو وزملاؤه فيما بينهم إلى أن أصبح غلافها المقوى رماديا وخشنا وصفحاتها الداخلية ممزقة ومطوية الأركان، أخذته أولا إلى عالم فكاهى وبطولى كان يشبع فى نفسه عطشين أساسيين، التعطش إلى المرح وإلى الشجاعة، كان حب البطولة والحماسة قويا جدا بدون شك، لدى الصبيين،

إذا حكمنا باستهلاكهما غير المعقول لروايات الفروسية، والسهولة التى كانا يخلطان بها شخصيات هذه الروايات بحياتهما اليومية. كان كاتبهما الكبير هو ميشل زيفاكو وكان عصر النهضة، خاصة الإيطالية، بألوان الخنجر والسم، وسط القصور الرومانية والفورنسية والبذخ الملكى والباباوى، هو المملكة المفضلة لهذين الارستقراطيين اللذين يشاهدان أحيانا، فى الشارع الأصفر المغبر الذى يسكن فيه بيير، وهما يستلان مسطرتين طويلتين ويجريان بين القمامة يتبارزان مبارزات مندفعة ومتحمسة، كانت أصابعهما بعدها تحمل طويلا آثارها، فى ذلك الوقت كانا لا يستطيعان أن يعثرا على كتب أخرى، فقليلون من يقرءون فى هذا الحى، ولم يكن بإمكانهما أن يشتريا وعلى فترات متباعدة، إلا الكتب الشعبية الموجودة لدى بائع الكتب.

لكن، عندما التحقا بالمدرسة الثانوية ، أقيمت مكتبة بلدية فى الحى، فى منتصف الطريق بين الشارع الذى يسكن فيه چاك والمرتفعات حيث تبدأ الأحياء الأكثر رقيا بڤيلات تحيطها حدائق صغيرة، مليئة بالنباتات العطرية التى تنمو بقوة على المنحدرات الرطبة والحارة للعاصمة الجزائرية، وتحيط هذه الڤيلات بالمنتزه الكبير لمدرسة سانت - اوديل الداخلية ، وهى مدرسة داخلية للراهبات لا تستقبل سوى الفتيات. وفى ذلك الحى، القريب جدا والبعيد جدا عن حيهما، عرف چاك وبيير أكثر انفعالاتهما عمقا «والتى لم يحن الوقت بعد للكلام عنها والتى سيتم التحدث عنها ، ... الخ»، كان الحد الفاصل بين العالمين «عالم مغبر وبدون أشجار حيث المكان كله محجوز للسكان والأحجار التى تأويهم، وعالم آخر حيث تجلب الزهور والأشجار الرفاهية الحقيقية لهذا العالم» يتمثل فى حارة واسعة مزروعة على رصيفيها بأشجار الصنار الرائعة، وتمتد الڤيللات على أحد جانبيها وعلى الجانب الآخر بنايات صغيرة رخيصة الثمن، وقد أقيمت المكتبة البلدية على هذا السوق.

وكانت تفتح فى المساء، بعد ساعات العمل ثلاث مرات أسبوعيا، من بينها الخميس حيث تفتح أبوابها طوال النهار، ووراء طاولة كبيرة من الخشب الأبيض كانت تجلس مدرسة شابة، كئيبة المظهر ، تتبرع ببضع ساعات من وقتها لهذه المكتبة، حيث كانت مسئولة عن كتب الإعارة، كانت غرفة المكتبة مربعة وجدرانها مغطاة برفوف من الخشب الأبيض والكتب المجلدة بنسيج أسود، وكانت هناك أيضا طاولة صغيرة حولها بضعة مقاعد لمن يريدون البحث بسرعة فى القاموس ، لأنها كانت مكتبة استعارة فقط، كما توجد بطاقات مرتبة أبجديا لم يكن جاك أو بيير يرجعان إليها قط، فطريقتهما تتلخص فى السير أمام الرفوف واختيار الكتاب بناء على عنوانه، وبشكل أندر كثيرا بناء على مؤلفه، وتدوين رقمه على البطاقة الزرقاء التى كان يطلب من خلالها الاطلاع على العمل، وللحصول على حق الاستعارة كان يتعين فقط احضار وصل إيجار المنزل ودفع رسم بسيط. وعندئذ كان يتم الحصول على بطاقة مطوية مسجل فيها الكتب المعارة، كما يتم تسجيلها فى سجل تتولاه المدرسة الشابة .

كانت المكتبة تضم كثيراً من الروايات، لكن أغلبها ممنوع لأقل من ١٥ عاما ومرتب على حدة، ولم يكن منهج الطفلين الحدسى تماما يقوم باختيار حقيقى من بين الكتب المتبقية، لكن الصدفة ليست الأسوأ بالنسبة لشئون الثقافة، وكان النهمان يلتهمان الأفضل وكذلك الأسوأ، يلتهمان كل شىء بلا نظام، وبدون اهتمام بالاحتفاظ بشىء، ولا يحتفظان بشىء تقريبا، فيما عدا انفعال غريب وقوى، كان يولد وينمى فيهما ، على امتداد الأسابيع والشهور والسنوات ، عالما كاملا من الصور والذكريات التى يمكن تحويلها إلى الواقع الذى يعيشان فيه كل يوم، لكنها بالطبع حاضرة بالنسبة لهذين الطفلين النشيطين اللذين يعيشان أحلامهما بشكل لا يقل عنفوانا عن حياتهما .

فى الواقع، لا يهم كثيرا ما تحتويه هذه الكتب. المهم هو ما يستشعرانه وهما يدخلان المكتبة، حيث لا يريان الجدران ذات الكتب السوداء ولكن آفاقا متعددة تنتزعهما عند عتبة الباب من حياة الحى الضيقة، ثم كانت تأتى اللحظة التى يدلفان فيها فى الحارة المظلمة وكل منهما مزود بالكتابين اللذين من حقهما، ويضمان كتبهما بشدة بالمرفق إلى جنبيهما، ويدهسان تحت أقدامهما كرات أشجار الصنار ويعددان اللذات التى سيتمكنان من جنيها من كتبهما، ويقارنانها بمتع الأسبوع المنصرم، إلى أن يصلا إلى الشارع الرئيسى، ويبدآن فى فتح الكتب تحت الضوء المتردد لأول فانوس لكى يلتقطا بضع جمل (مثلاً «كان ذا قوة قليلة الشيوع») كانت تدعمهما فى أملهما المرح والنهم، كانا يفترقان بسرعة ويركضان نحو قاعة الطعام ليبسط كل منهما الكتاب على المشمع تحت ضوء مصباح الكيروسين، وكان يتصاعد من التجليد البدائى، الذى كان يحك الأصابع، رائحة صمغ قوية.

وتدل طريقة طباعة الكتاب القارىء سلفا على المتعة التى سيحصل عليها منه. لم يكن بيير وچاك يحبان الكتب ذات الحروف الكبيرة والهوامش الكبيرة التى تعجب القراء المرهفين، كانا يفضلان الصفحات الممتلئة بحروف صغيرة راكضة على امتداد السطور المتقاربة المسافات ، والممتلئة حتى حافتها بالكلمات والجمل، مثل تلك الصحون الريفية الضخمة التى يمكن الأكل منها كثيرا وطويلا دون أن تستهلك قط وهى فقط التى تستطيع اشباع بعض الشهيات الضخمة، لم يكن يعنيهما كثيرا الذوق المرهف، كانا لا يعرفان شيئا ويريدان معرفة كل شىء، لا يهم كثيرا أن يكون الكتاب مكتوبا بشكل ردىء وغير متقن التكوين، طالما أنه مكتوب بشكل واضح وملىء بحياة عنيفة، كانت تلك الكتب تمنحهما عجينة أحلامهما، التى كان يستطيعان النوم عليها بعد ذلك نوما عميقا.

ومن ناحية أخرى، كان لكل كتاب رائحة خاصة تبعا لنوع الورق المستخدم لطبعه، رائحة لطيفة، خفية ، فى كل حالة، ولكنها مميزة جدا حتى أن چاك كان يمكنه أن يميز وهو مغمض العينين، بين كتاب من سلسلة نلسون والإصدارات الشائعة التى يصدرها فاسكل، وكانت كل واحدة من هذه الروائح تسلب لب چاك، حتى قبل أن يبدأ القراءة، وتدخله إلى عالم آخر ملىء بالوعود التى سبق الوفاء بها، عالم يجعل الغرفة التى يمكث فيها باهتة ويلغى الحى نفسه وضوضاءه، والمدينة والعالم كله الذى سيختفى تماما بمجرد البدء فى القراءة بنهم متحمس ومجنون ينتهى بالقاء الطفل فى حالة نشوة كاملة، وكانت الأوامر المكررة لا تنجح فى إخراجه منها. «چاك .. جهز المائدة ، للمرة الثالثة». فيجهز المائدة ، ونظراته فارغة كابية، تائهة بعض الشىء، كأنه قد تسمم من القراءة، ثم يرجع إلى كتابه وكأنه لم يتركه قط. «كل يا چاك». فيأكل أخيرا غذاء يبدو له أقل واقعية وصلابة من الغذاء الذى يجده فى الكتب، ثم يرفع المائدة ويعود إلى الكتاب. كانت أمه أحيانا تقترب قبل أن تذهب للجلوس فى ركنها وتقول : «انها المكتبة». تنطق الكلمة بشكل ردىء ، وإن كانت لا تعنى لها شيئا، إنها تتعرف على غلاف الكتب. كان چاك يقول «نعم» دون أن يرفع رأسه. وكانت كاترين كورمرى تنحنى فوق كتفه، وتنظر إلى المستطيل المزدوج تحت النور، وإلى صف السطور المنتظم، كما تشم هى أيضا الرائحة وتمرر فى بعض الأحيان أصابعها المتخدرة والمتغضنة من ماء الغسيل على الصفحة، وكأنها تحاول أن تتعرف بشكل أفضل على ماهية الكتاب، وأن تقترب أكثر من هذه العلامات الغامضة، وغير المفهومة بالنسبة لها، وإن كان ابنها يجد فيها، فى أكثر الأحيان، ولساعات طويلة حياة مجهولة بالنسبة له ويعود منها بتلك النظرة التى كان يلقيها عليها وكأنها غريبة. وكانت اليد المشوهة تربت بلطف على رأس الصبى الذى لا يبدى أى تفاعل، وكانت تتنهد، ثم تذهب لتجلس، بعيدا عنه، كانت الجدة تكرر أمر النوم «چاك، اذهب للفراش»،

«ستتأخر غدا»، وكان چاك يقوم ويعد حقيبته لدروس الغد، دون أن يترك كتابه الموضوع تحت أبطه، ثم ينام نوما عميقا، مثل السكير ، بعد أن يكون قد وضع الكتاب تحت وسادته.

وهكذا، ولسنوات عديدة، انقسمت حياة چاك بشكل غير متساو بين حياتين كان لا يستطيع ربط إحداهما بالأخرى، فطوال ١٢ ساعة، وعلى صوت الطبل، عاش چاك فى مجتمع الأطفال والمعلمين، بين الألعاب والدراسة، وطوال ساعتين أو ثلاث ساعات من الحياة الصباحية كان يعيش فى بيت الحى القديم، إلى جوار أمه التى لا ينضم إليها فعليا إلا فى نوم الفقراء، وإن كان هذا الحى يمثل الجزء الأقدم من حياته، فإن حياته الحاضرة ، والأكثر من ذلك مستقبله، كان فى المدرسة الثانوية، حتى أن الحى كان يختلط بطريقة ما مع المساء، والنوم والحلم، ومن جهة أخرى، هل كان لهذا الحى وجود أم هو تلك الصحراء التى أصبحت ذات مساء عندما فقد الوعى؟ أثر سقوطه على الأسمنت... على أى حال لم يستطع التحدث مع أحد فى المدرسة عن أمه وأسرته، كذلك لم يستطع أن يتحدث مع أحد من أسرته عن المدرسة. طوال السنوات التى سبقت البكالوريا، لم يأت أحد قط إلى بيته، لا زميل ولا مدرس، وبالنسبة لوالدته وجدته فكانتا لا تأتيان إلى المدرسة، إلا مرة واحدة فى العام، فى مستهل شهر يوليو فى حفل توزيع الجوائز، فى ذلك اليوم، كانتا تدخلان إلى المدرسة من الباب الكبير وسط حشد من أولياء الأمور والتلاميذ الذين يرتدون ثياب يوم الأحد، كانت الجدة ترتدى الثوب والوشاح الأسود الخاص بالمناسبات المهمة، أما كاترين كورمرى فتضع قبعة مزينة بقماش تول بنى وبعنب أسود مصنوعا من الشمع وترتدى ثوبا صيفيا بنيا وتلبس الحذاء الوحيد لديها ذا الكعب نصف العالى، وكان چاك يرتدى فى ذلك اليوم قميصا أبيض ذا ياقة دنتون وأكماما قصيرة وسروالا قصيرا فى بادىء الأمر ثم طويلا بعد ذلك، لكن فى الحالتين يكون مكوياً بعناية، فأمه قد كوته له عشية ذلك اليوم.

وحوالى الساعة الواحدة بعد الظهر، يسير بين السيدتين، ويوجههما بنفسه نحو الترام الأحمر، ويجلسهما على مقعد فى القاطرة بينما يقف هو فى المقدمة، ينظر إلى أمه من خلال الزجاج وهى تبتسم له من وقت لآخر، وكانت تراجع طوال الطريق قاعدة قبعتها أو تهدل جواربها أو مكان الميدالية الذهبية التى تمثل العذراء والتى كانت تعلقها فى سلسلة صغيرة ورفيعة، وفى ساحة «الحكومة»، وعلى امتداد شارع باب - ازون، كان يبدأ الطريق اليومى الذى كان يقطعه الطفل مرة واحدة فى العام مع السيدتين، كان چاك يشم رائحة كولونيا «لامبيرو» التى تستخدمها أمه بوفرة لهذه المناسبة، بينما تمضى الجدة منتصبة بإباء، وتوبخ ابنتها عندما تشكو من قدميها «قد يعلمك ذلك ألا تشترى حذاء صغيرا جدا لا يناسب سنك»، فى حين يشير لهما چاك بلا كلل إلى المحلات والتجار الذين احتلوا مكانا كبيرا فى حياته، وفى المدرسة ، كان باب الشرف مفتوحا، وتزين أصص النباتات جوانب السلم الضخم من أعلى إلى أسفل، وكان التلاميذ وأولياء أمورهم الذين وصلوا مبكرين قد بدأوا يصعدونه، وبالطبع كانت أسرة كورمرى تصل مبكرة تماما، كما هو حال الفقراء دائما الذين لا يتمتعون إلا بالقليل من المتع والالتزامات الاجتماعية ويخشون ألا يكونوا فى الموعد المحدد . ويتم عندئذ بلوغ فناء الكبار ، المغطى بصفوف من المقاعد التى تم استئجارها من شركة لحفلات الرقص والموسيقى ، بينما توجد فى خلفية المكان، تحت الساعة الكبيرة ، منصة تقطع عرض الفناء بالكامل ، تصطف عليها المقاعد وتزينها هى أيضا نباتات خضراء كثيرة ، وامتلأ الفناء تدريجيا بأزياء فاتحة ، وكانت الأغلبية من النساء ، ويختار من وصلوا مبكرين الأماكن تحت الأشجار ، بمنأى عن الشمس ويتروح الآخرون بمراوح عربية ، من القش الناعم المجدول ، تزين حوافها شرابات من الصوف الأحمر . وكانت زرقة السماء تتخثر فوق الحضور لتصبح متزايدة القسوة تحت اكتواء الحرارة .

وفى تمام الساعة الثانية ، عزفت أوركسترا عسكرى، غير مرئى فى الممر العلوى، نشيد المارسييز ، فوقف كل الحاضرين ، ودخل المدرسون ، بقلنسوات مربعة وأثواب طويلة تختلف ألوانها تبعا لتخصصهم ، ويتقدمهم المدير والشخصية الرسمية المكلفة لتلك السنة (عادة يكون موظفا كبيرا فى الحكومة العامة) ، وغطى مارش عسكرى جديد على حركة جلوس المدرسين ، وعقب ذلك أخذ المندوب الرسمى الكلمة وأعطى وجهة نظره عن فرنسا بشكل عام والتعليم بشكل خاص ، وكانت كاترين كورمرى تستمع دون أن تسمع ، لكنها لم تكن تظهر قط نفاد صبر ولا ضجر . أما الجدة فكانت تستمع دون أن تفهم الشئ الكثير ، وتقول لابنتها : « إنه يتكلم بشكل جيد» ، وتوافقها الابنة باقتناع ، وهو ما كان يشجع الجدة على النظر إلى جارها أو جارتها الجالسة على يسارها والابتسام لهما ، مؤكدة بهزة رأس الحكم الذى عبرت عنه لتوها ، لاحظ چاك فى السنة الأولى أن جدته هى الوحيدة التى ترتدى الوشاح الأسود الخاص بالمسنات الاسبانيات ، وأحس بحرج من ذلك . والحق يقال ، إن هذا الخجل الباطل ، لم يفارقه قط ، وقرر أنه لا يستطيع شيئا حيال ذلك عندما حاول على استحياء أن يحدث جدته عن ارتداء قبعة فأجابته أن ليس لديها مال لتفقده ، ومن جهة أخرى فإن الوشاح يدفئ أذنيها . لكن عندما كانت جدته توجه الحديث إلى جيرانها أثناء توزيع الجوائز ، كان يشعر أن وجهه يحمر ببشاعة . وبعد كلمة الشخصية الرسمية ، كان على أصغر معلم ، والذى يكون عادة قد جاء من فرنسا فى العام نفسه ، أن يلقى خطابا احتفاليا ، وقد تمتد الخطبة نصف الساعة أو الساعة كاملة ، وكان لا يفوت الجامعى الشاب قط أن يحشو خطابه باشارات ثقافية ودقائق الآداب القديمة مما كان يجعله غير مفهوم اطلاقا بالنسبة لهذا الجمهور الجزائرى ، ويفتر الانتباه ، وتساعد الحرارة على ذلك ، وتتحرك المراوح بسرعة أكبر - حتى الجدة كانت تعبر

عن ضجرها بالنظر إلى مكان آخر . كاترين كورمرى ، وحدها كانت تواصل الانصات وتتلقى دون أن ترمش مطر المعرفة والحكمة الذى يتساقط عليها دون توقف . أما بالنسبة لچاك ، فكان يضرب الأرض بقدميه ، ويبحث بنظره عن بيير والزملاء الاخرين ، وينبههم باشارات حذرة ويبدأ معهم حديثا طويلا من الحركات بالوجه ، وأخيرا كان التصفيق الكثيف يشكر الخطيب لأنه تكرم واختتم خطابه ، ويبدأ النداء على الطلبة المكرمين . كانت البداية بالفصول الكبيرة ، وفى السنوات الأولى ، كانت القيلولة كلها تمر على السيدتين وهما على مقعديهما إلى أن يتم الوصول إلى سنة چاك الدراسية ، كانت أبواق الفرقة الموسيقية غير المرئية تحيى فقط جوائز الامتياز . وكان المكرمون ، الأصغر سنا بشكل مطرد ، يقفون ويحازون الفناء ويصعدون على المنصة ويتلقون مصافحة المسئول الرسمى المرشوشة بالكلمات الطيبة ، ثم يصافحون المدير الذى يسلمهم حزمة الكتب «التى يتلقاها من الحاجب الذى صعد قبل المكرم من أسفل المنصة حيث وضعت صناديق مليئة بالكتب» ، وبعد ذلك ، ينزل المكرم وسط التصفيق بينما تصاحبه الموسيقى ، وهو يضم كتبه بذراعه ، منشرحا وباحثا بعينيه عن الأهل السعداء الذين يمسحون الدموع ، وتصبح السماء أقل زرقة وتفقد بعض حرارتها من خلال فجوة غير مرئية فى مكان ما فوق البحر ، كان المكرمون يصعدون وينزلون ، والموسيقى تتوالى ، والفناء يفرغ تدريجيا ، بينما تميل السماء إلى الاخضرار ، ويتم الوصول إلى سنة چاك الدراسية . وبمجرد نطق اسم فصله ، يكف چاك عن تصرفاته الصبيانية ويصبح جادا ، وعند مناداة اسمه ، يقف وبرأسه طنين ، ويسمع أمه وراءه ، والتى لم تسمع الاسم جيدا ، تسأل جدته : «هل قال كورمرى؟ - نعم» كانت الجدة ترد ولونها وردى من الانفعال . الطريق الاسمنتى الذى كان يجتازه والمنصة وصديرى المسئول الحكومى وسلسلة ساعته ، وابتسامة المدير

الودودة ، وأحيانا النظرة الودية لأحد أساتذته الضائع فى حشد المنصة ، ثم العودة بمصاحبة الموسيقى نحو السيدتين اللتين تقفان الآن فى الممر ، تنظر إليه والدته بنوع من الفرحة المندهشة ، واعطاها قائمة الجوائز السميكة لتحفظها ، تنظر جدته إلى جيرانها لتشهدهم ، يسير كل شئ بسرعة كبيرة بعد العصر الذى لا ينتهى ، يتعجل چاك أن يجد نفسه مرة أخرى فى البيت ليلقى نظرة على الكتب التى تلقاها .

كانوا يعودون عادة مع بيير وأمه ، والجدة تقارن فى صمته بين ارتفاع عمودى الكتب . وفى البيت ، كان چاك يأخذ أولا قائمة الجوائز ، وبناء على طلب جدته يطوى زاوية الصفحات التى تضم اسمه ، لتستطيع عرضها على الأسرة والجيران، ثم يحصى كنوزه . وقبل أن ينتهى من ذلك يرى أمه بعد أن غيرت ملابسها ، ولبست خفها ، وهى تزرر قميصها الكتانى وتجذب مقعدها نحو النافذة. ابتسمت له قائلة: «لقد عملت بجد»، هزت رأسها وهى تنظر إليه ، ونظر إليها هو أيضا ، وكان ينتظر ، ولا يعرف ماذا ينتظر ، واستدارت نحو الشارع فى وضعها المعتاد، بعيدا عن المدرسة الآن ، والتى لن تراها ثانية أبدا قبل عام ، بينما يجتاح الظلام الغرفة وتضاء أولى مصابيح الشارع ، حيث لا يسير سوى متنزهين لا وجه لهم .

ولكن إذا كانت الأم قد غادرت للأبد تلك المدرسة التى لمحتها فإن چاك عاد ثانية وبلا تمهيد للأسرة والحى الذى لن يخرج منه قط .

أعادت الاجازة الصيفية أيضا چاك إلى أسرته ، على الأقل فى السنوات الأولى . لا أحد فى الأسرة لديه اجازات ، فالرجال يعملون طوال العام . فقط حوادث العمل ، كانت تمنحهم وقت فراغ ، وذلك عندما يعملون فى شركات تؤمن عليهم ضد هذا النوع من الأخطار ، وكانت اجازاتهم تمر بالمستشفى أو الطبيب ،

الخال ارنست مثلا عندما يشعر أنه منهك ، فإنه «يضع نفسه تحت التأمين» ، على حد قوله ، بأن يخلع عمدا بواسطة المسحج سلخة سميكة من لحم كفه ، أما بالنسبة للنساء ، فإن كاترين كورمرى تعمل دون راحة ، لسبب بسيط هو أن الراحة تعنى أن تكون كل الوجبات أكثر تقشفا ، كانت البطالة ، التى لا يؤمنها شئ هى أكثر ما يخشى من الشرور ، وهو ما كان يفسر ان العمال ، سواء فى أسرة بيير أو أسرة چاك ، الذين يكونون دائما أكثر الرجال تسامحا فى الحياة اليومية، يصبحون دائما كارهين للأجانب فى مسائل العمل ، ويتهمون الايطاليين والأسبان واليهود على التوالى ، والأرض كلها فى آخر الأمر ، بانهم يسرقون منهم عملهم – موقف محير بالطبع بالنسبة للمثقفين المؤمنين بنظرية البروليتاريا ، لكنه مع ذلك موقف إنسانى ومبرر تماما ، إن هؤلاء القوميين غير المتوقعين لايتنازعون مع القوميات الأخرى السيطرة على العالم أو امتيازات نقود ووقت فراغ وإنما امتياز العبودية ، لم يكن العمل فى هذا الحى فضيلة ولكن ضرورة ، لكى تجعل الناس يعيشون ، تقودهم إلى الموت .

فى جميع الحالات ، ومهما كان صيف الجزائر حاراً ، وبينما السفن المكتظة تذهب بموظفى الدولة والموسرين لكى يستعيدوا قواهم فى «هواء فرنسا» الطيب (وكان من يعود من هناك يأتى معه بأوصاف اسطورية وغير معقولة لمروج خصبة حيث يسيل الماء فى عز شهر أغسطس) ، كانت الأحياء الفقيرة لا تغير أبدا شيئا فى حياتها ، وبدلا من أن تفرغ من نصف سكانها مثل أحياء المركز ، كانت على النقيض تبدو وكأن سكانها زادوا لأن الأطفال يتدفقون بأعداد كبيرة فى الشوارع.

كانت الاجازة الصيفية بالنسبة لبيير وچاك تعنى أولا القيظ ، فهما يهيمان فى الشوارع الجافة ، يرتديان حذاء قماشياً مثقوبا ، وسروالا رديئا وكنزة من التريكو

القطنى ذات فتحة رقبة مستديرة ، إن آخر أمطار نزلت كانت فى شهر أبريل أو مايو على أقصى تقدير ، وعلى امتداد الأسابيع والشهور ، كانت الشمس التى تتزايد حرارتها وثباتها باستمرار ، قد جففت ثم يبست ثم حمصت الجدران وسحقت الطلاء والأحجار والقرميد وحولته إلى تراب دقيق يغطى الشوارع وواجهات المحال وأوراق كل الأشجار تبعا لهبوب الرياح ، وبالتالى كان الحى بأكمله ، فى شهر يوليو ، يصبح أثناء النهار مثل متاهة رمادية وصفراء خالية ، كل مصارع جميع المنازل مغلقة بعناية ، وتسود الشمس عليه بوحشية ، تطرح الكلاب والقطط على عتبات البيوت ، وتدفع الناس إلى ملامسة الجدران لكى يبقوا بعيدا عن متناولها ، وفى شهر أغسطس ، تختفى الشمس وراء غلالة كثيفة لسماء رمادية من الحرارة ، ثقيلة ورطبة ، ينزل منها ضوء منتشر ، مائل إلى البياض ، ومتعب للعين ، يطفئ فى الشوارع آخر آثار للألوان ، وفى ورش صناعة البراميل، تدق المطارق بليونة أكثر ويتوقف العمال أحيانا لكى يضعوا رؤوسهم وجذوعهم تحت مياه المضخة الباردة . وفى البيوت يتم لف زجاجات المياه وزجاجات النبيذ ، الأكثر ندرة ، بقطعة قماش مبللة . وكانت جدة چاك تمشى فى الغرفة الظليلة حافية القدمين ، وهى ترتدى قميصا بسيطا ، بينما تحرك بطريقة آلية مروحتها المصنوعة من القش ، تعمل فى الصباح ، وتجر چاك إلى السرير لنوم القيلولة وتنتظر بعد ذلك أولى نسمات الماء لكى تستأنف العمل ، ولأسابيع طويلة ، يجر الصيف ورعاياه أقدامهم تحت السماء الرطبة الثقيلة والمحرقة ، إلى أن يتم نسيان حتى ذكرى جو الشتاء البارد ومياهه ، وكأن العالم لم يعرف قط الريح ولا الجليد ولا الأمطار ، وكأن منذ بدء الخليقة حتى ذلك اليوم من سبتمبر ، لم يكن هناك سوى هذا الجماد الضخم الجاف المحفور بممرات فائقة التسخين ، حيث تتحرك ببطء ، كائنات يغطيها التراب والعرق ، ثابتة النظرة وتائهة بعض الشئ ، بعد ذلك

وفجـأة ، تنكمش السمـاء على نفسـها حـتى أقصـى تـوتر ، وتنشق إلى نصـفين ، ويغرق أول مطر ، مطر سبـتمبـر العنيف السـخى ، المدينة ، وتبدأ شـوارع الحى كلها تلمع كذلك أوراق أشجار التين المبرنقة ، وأسـلاك الكهرباء وقضبـان الترام ، ومن فوق الروابى المطلة على المدينة ، كانت تأتى من الحقول البعيدة رائحة أرض مبللة ، وتجلب معها لسجناء الصيف رسالة براح وحرية ، وعندئذ ينطلق الأطفال فى الشـارع ، ويركضـون تحت المطر فى ثيـابهم الخـفيـة ويتخـبطون بسـعـادة فى جداول الشـارع الفـاترة ، مزروعين على شكل دائرة فى برك كـبيـرة ، يتسـاندون بالأكتـاف ، والوجـه مفـعم بالصـرخـات والضـحكات ، ينقلبـون نحـو المطر الذى لا يتوقف ، ويدوسـون بطريقة منتظمة قطاف العنب الجديد لكى ينبـثق منه مـاء قذر، ماء مسكر أكثر من النبيذ .

ياه نعم ، كانت الحرارة فظيعة ، وكثيرا ما تدفع الناس تقريبا للجنون ، ومع الأيام يصبح الجميع أكثر عصبية بلا حول أو طاقة لرد الفعل ، أو الصـراخ ، أو السب والضـرب ، وتتراكم العصبية مثل الحرارة نفسـها ، إلى أن تنفجر هنا أو هناك فى الحى الأشـقر الحزين – مثل ذلك اليوم ، فى شـارع ليون ، على مشـارف الحى العربى تقريبا ، الذى يطلق عليه مارابو ، حول المقبرة المنحوتة فى صلصال الربوة الأحـمـر ، حـيث رأى چاك رجـلا عـربيـا ، حليق الرأس يرتدى زيا أزرق ، يخــرج من المحل المتـرب للحــلاق الموريتــانى ، خطـا الرجل بضـع خطوات علي الرصـيف أمام الطفل ، فى وضـع غريب ، جسمه مـائل إلى الامام ، والرأس مـائلة إلى الوراء أكثر مما يبـدو ممكنا ، لقـد مس الحـلاق الجنون وهو يحلق له ، فـقطع بضـربة واحدة من مـوسـيته الطويلة الزور المعروض أمـامـه ، وتحت حد الشـفرة الرقـيق لم يشـعر الآخر بشئ إلا بالدم الذى كان يخـنقه ، وخـرج راكضـا مثل ذكر بط لم يحسـن ذبحـه ، بينمـا أمسك الزبائن بالحـلاق على الفور وهو يصـيح بشكل مرعب – مثل الحرارة نفسها أثناء تلك الأيام التى لا نهاية لها .

كان الماء ، القادم من شلالات السماء ، يغسل الأشجار بعنف ، وأسقف البيوت والجدران والشوارع من تراب الصيف ، وسرعان ما ملأت تلك المياه الموحلة الجداول ، وقرقرت بعنف فى الصنابير ، فتفجر مثل كل عام المجارى وتغطى قارعة الطريق . وترتد أمام السيارات وعربات الترام مثل جناحين صغيرين حدودهما الخارجية غير دقيقة .

وكان البحر ذاته يصبح عندئذ موحلا على الشاطئ وفى الميناء ، وكانت أول شمس بعد ذلك تجعل البيوت والشوارع والمدينة كلها تدخن ، وكان من الممكن أن يعود الحر ، لكنه لم يعد يسود قط ، وكانت السماء أكثر انفراجا ، والتنفس أكثر اتساعا ، ووراء سمك الشموس راح اختلاج الهواء ووعد المطر يعلنان عن قدوم الخريف ودخول المدارس ، وكانت الجدة تقول : « الصيف طويل جدا » ، وتستقبل بتنهيدة الارتياح مطر الخريف ورحيل چاك ، فعلى امتداد الأيام الحارقة كانت حركة قدمى چاك الملونة فى الغرف ذات المصاريع المغلقة تضيف المزيد إلى ثورة أعصابها .

ومن ناحية أخرى لم تفهم أن يكون هناك فترة من السنة مخصصة لكى لا يُعمل فيها شيء ، كانت تقول : « أنا ، لم أحظ باجازات قط» ، وكان ذلك صحيحا ، فهى لم تعرف لا المدرسة ولا وقت الفراغ ، لقد عملت دون انقطاع منذ أن كانت طفلة ، ولعدة سنوات ، قبلت ألا يجلب حفيدها نقوداً إلى المنزل ، من أجل نفع أكبر ، لكن منذ أول يوم ، بدأت تفكر مليا فى تلك الشهور الثلاثة الضائعة ، وتقلب الموضوع فى ذهنها ، وعندما أصبح چاك فى الاعدادية ، ارتأت أن الوقت قد حان لإيجاد عمل له فى الاجازة الصيفية ، وقالت له فى نهاية العام الدراسى: «سوف تعمل هذا الصيف ، وتجلب قليلا من المال للبيت ، لا يمكن أن تظل هكذا لا تفعل شيئا ، فى الواقع ، كان چاك يجد أن لديه الكثير ليفعله ما بين

الاستحمام فى البحر والرحلات إلى «القبة» والرياضة والتجول فى شوارع بيلكور وقراءة الروايات الشعبية المصورة ومفكرة فيرموت وكتالوج مصنع أسلحة سانت - اتيين الذى لا ينضب ، فضلا عن القيام بمشتروات البيت والأعمال الصغيرة التى كانت جدته تأمره بالقيام بها ، لكن كل ذلك كان لا يعنى شيئا لديها ، طالما أن الطفل لا يجلب مالا ولا يعمل كما أثناء السنة الدراسية ، وهذا الوضع اللا نفعى كان يلمع بالنسبة لها بكل نيران جهنم ، وبالتالى ، كان أبسط شئ هو إيجاد عمل له .

فى الحقيقة ، لم يكن الأمر بهذه البساطة ، كانت توجد بالطبع اعلانات صغيرة فى الصحف ، وعروض عمل لصغار الكتبة أو السعاة ، وكانت السيدة برتو ، اللبانة التى كان يفوح من محلها ، الواقع إلى جوار محل الحلاق ، رائحة الزبدة (وهى رائحة غريبة بالنسبة للأنف والحنك المعتادين على الزيت) ، تقرأ للجدة هذه الاعلانات، لكن أرباب العمل كانوا يطلبون دائما ألا يقل سن المتقدمين لشغل الوظائف عن ١٥ عاما ، وكان من الصعب الكذب بدون وقاحة بالنسبة لسن جاك الذى لم يكن طوله يتناسب وسنوات عمره الثلاث عشرة ، ومن ناحية أخرى ، كان المعلنون يحلمون دائما بموظفين يعملون ويحترفون المهنة عندهم ، إن أول أرباب عمل قدمت الجدة جاك لهم (وهى متأنقة كما كانت تفعل لمناسبات الخروج الكبيرة ، بما فى ذلك الوشاح الشهير) وجدوا أنه صغير جدا أو رفضوا بوضوح استخدام موظف لمدة شهرين فقط . وقالت الجدة : « ليس هناك سوى أن تقول أنك ستبقى .

- ولكن ذلك ليس صحيحا .

- لا يهم ، سوف يصدقونك » .

لم يكن ذلك ما يريد چاك قوله ، ففى الحقيقة ، لم يكن يقلقه معرفة إذا كان سيتم تصديقه أم لا ، ولكن كان يبدو له أن هذا النوع من الكذب سيقف فى حلقه، لقد كذب بالطبع كثيرا فى إطار الأسرة ، لكى يحمى نفسه من عقاب ، أو للاحتفاظ بقطعة نقود من فئة فرنكين ، والأكثر من أجل متعة الحديث أو التفاخر. ولكن إذا كان الكذب فى إطار أسرته يتراءى له غير مميت ، فإنه يبدو مميتا مع الاغراب . وكان يشعر ، بشكل غامض ، أنه فيما يتعلق بالأمور الأساسية لا ينبغى الكذب على من نحبهم ، لأنه لا يمكن عندئذ العيش معهم أو حبهم ، إن الكذب على أرباب العمل سيكون كاملا ، فلن يكون بامكانهم معرفة أى شئ عنه إلا ما سيقولونه لهم ، وبالتالى لن يعرفوا قط ، وذات يوم ذكرت السيدة برتو للجدة أن محل خردوات كبيراً يطلب كاتبا شابا لترتيب الحسابات ، فقالت الجدة وهى تعقد وشاحها : «هيا» . كان محل الخردوات يقع فى أحد الطرق الصاعدة نحو أحياء المركز ، وكانت شمس منتصف يوليو تحمصه وتهيج روائح البول والقار المتصاعدة من أرضيته .

وفى الدور الأرضى ، كان يوجد محل ضيق ولكنه عميق جدا ، ينقسم إلى نصفين بمائدة طولية مغطاة بعينات من قطع الحديد وأقفال ومزاليج ، ويزين الجزء الأكبر من الجدران أدراج تحمل بطاقات غامضة ، وعلى يمين المدخل ، كان يعلو الطاولة شبكة من الحديد المطروق بها فتحة شباك للخزينة . ودعت السيدة الحالمة والذابلة التى تجلس خلف الشبكة الجدة إلى الصعود للمكاتب فى الطابق الأول ، ويؤدى سلم خشبى فى آخر المحل، إلى غرفة مكتب كبيرة مهيأة ومقسمة فى الواقع مثل المحل ، ويجلس فيها حول طاولة مركزية كبيرة خمسة أو ستة من العاملين من الرجال والنساء، ويفضى باب بأحد الجوانب إلى مكتب المدير .

كان رب العمل يرتدى قميصا مفتوح الياقة وقد شمر أكمامه ، فى مكتبه الشديد الحرارة ، وخلفه نافذة صغيرة تطل على فناء لا تطوله الشمس ، رغم أن الوقت كان الثانية عصرا ، كان قصيرا وسمينا ، يضع ابهامه فى حمالات عريضة سماوية اللون ، وكان نفسه ضيقا ، ولم يتم التمييز بشكل جيد للوجه الذى يخرج منه الصوت الخافت اللاهث الذى يدعو الجدة إلى الجلوس . كان چاك يشم رائحة الحديد التى كانت سائدة فى أرجاء المحل . وبدا له أن ثبات رب العمل هو ثبات الشك والريبة، وشعر بساقيه ترتجفان لفكرة الاكاذيب التى يتعين القيام بها أمام هذا الرجل القوى المخيف ، أما الجدة فلم ترتجف، سيكمل چاك عامه الخامس عشر ويجب أن يجد لنفسه وظيفة ، وعليه أن يبدأ بدون تأخير ، وطبقا لرب العمل، كانت لا تبدو عليه سنواته الخمس عشرة، ولكن إذا كان ذكيا .. وبالمناسبة ، هل لديه شهادة انهاء الدراسة الابتدائية ؟ لقد حصل على منحة ، أية منحة ؟ لكى يذهب إلى المدرسة الثانوية ، هو إذن فى المدرسة الثانوية ؟ فى أية سنة دراسية ؟ الثالثة وسيترك المدرسة ؟ كان رب العمل أكثر جمودا وأصبح وجهه أكثر وضوحا الآن ، وعيناه المستديرتان اللبنيتان تتحركان بين الجدة والطفل الذى كانت تلك النظرة تجعله يرتجف . قالت الجدة : « نعم إننا شديدو الفقر» . استرخى رب العمل بشكل خفى ، وقال : « خسارة ، بما أنه موهوب ، ولكن يمكن تحقيق مراكز طيبة فى التجارة أيضا» ، وفى الحقيقة المركز الطيب يبدأ متواضعا ، فچاك كان سيكسب ١٥٠ فرنكا شهريا مقابل وجوده لمدة ثمان ساعات يوميا ، وكان بإمكانه أن يبدأ العمل فى اليوم التالى ، قالت الجدة « أرأيت ، لقد صدقنا .

- لكن عندما أرحل ، كيف أفسر له ذلك .

- اترك الأمر لى ، أجاب الطفل مستسلما «حسنا» كان ينظر إلى سماء الصيف فوق رأسيهما ويفكر فى رائحة الحديد ، والمكتب المليئ بالظلال ، وأنه سيتعين عليه الاستيقاظ مبكرا فى الغد وأن الاجازة انتهت بمجرد أن بدأت .

ولمدة عامين ، عمل جاك أثناء الصيف ، فى البداية بمحل الخردوات ثم عند وكيل بحرى ، وفى كل مرة كان يرى قدوم ١٥ سبتمبر بخوف ، التاريخ الذى يتعين فيه أن ينقطع عن العمل .

. في الواقع ، انتهت الاجازة ، وإن ظل الصيف كما كان فى السابق ، بحرارته وملله ، ولكنه فقد ما كان يجمله في السابق ، سماءه ، وفضاءه وصخبه ، لم يعد جاك يقضى النهار فى الحى الفقير ، ولكن فى حى المركز ، حيث حل الأسمنت الغني محل الملاط الفقير معطيا البيوت لونا رماديا أكثر رقيا وحزنا ، منذ الساعة الثامنة ، لحظة دخول جاك إلى المحل الذى تفوح منه رائحة الحديد والظل ، كان نور ينطفئ داخله ، لقد اختفت السماء ، كان يحيى موظفة الخزينة ويصعد إلى الطابق الأول حيث المكتب الكبير السيئ الاضاءة لم يكن له مكان حول المائدة المركزية ، كان هناك المحاسب العجوز ، ذو الشارب المصفر بفعل السجائر التى يلفها بيديه ويلعقها طيلة اليوم ، ومساعد المحاسب ، رجل فى الثلاثين من عمره نصف اصلع له جذع ووجه ثور ، وكاتبان أصغر سنا ، احدهما رفيع ، أسود الشعر ، مفتول العضلات ، كان يصل دائما بوجهه الوسيم ذى التقاطيع المستقيمة وقمصانه مبللة تلتصق به ، ناشرا رائحة بحر طيبة لأنه كان يذهب للاستحمام على رصيف الميناء كل صباح قبل أن يدفن نفسه فى المكتب طوال اليوم، والآخر سمين وضاحك لا يستطيع السيطرة على حيويته المرحة ، وأخيرا ، السيدة راسلين ، سكرتيرة الإدارة ، التى تشبه الخيل بعض الشئ وإن كان من المستحب النظر إليها فى أثوابها الكتانية الوردية اللون ، لكنها تجيل على العالم كله نظرة صارمة ، كل هؤلاء كانوا كافيين لزحم الطاولة بملفاتهم ، ودفاتر حساباتهم وآلاتهم ، ومن ثم كان جاك يجلس على مقعد على يمين باب المدير ، ينتظر أن يكلف بعمل ما ، وفى أكثر الأحيان ، كان الأمر يتعلق بترتيب الفواتير

أو المراسلات التجارية في علب البطاقات التي تحيط بالنافذة ، وكان في البداية ، يحب اخراج الملفات المزودة بأشرطة للشد ، ومعالجتها واستنشاقها ، إلى أن انتهت رائحة الورق والصمغ ، اللذيذة في البداية ، بأن أصبحت بالنسبة له رائحة الملل نفسه ، أو كان يطلب منه مراجعة عملية جمع طويلة مرة أخرى وكان يقوم بذلك على ركبتيه ، وهو جالس على مقعده ، أو كان يدعوه أيضا مساعد المحاسب إلى «تدقيق» مجموعة أرقام معه ، فكان يراجع باجتهاد ، وهو واقف دائما ، الأرقام التي كان الآخر يذكرها بصوت كئيب وخافت ، لكي لا يضايق زملاءه ، من النافذة ، كان يمكن رؤية الشارع والعمارات المواجهة ، إلا أنه كان لا يمكن رؤية السماء قط ، أحيانا ، كان يتم ارسال چاك لشراء لوازم مكتبية من المكتبة القريبة من المحل ، أو إلى مكتب البريد لارسال حوالة عاجلة ، وإن كان ذلك لا يحدث كثيرا ، كان مكتب البريد الكبير يقع على بعد مائتي متر على جادة واسعة تصعد من الميناء حتى قمة الروابي حيث شيدت المدينة ، وفي هذه الجادة ، كان چاك يجد الفضاء والنور مرة أخرى . مكتب البريد نفسه ، الذي يقع داخل بناء ضخم مستدير ومقبب ، كان يضاء من خلال ثلاثة أبواب كبيرة وقبة واسعة ينساب منها الضوء ، ولكن في أغلب الأحيان ، للأسف ، كان چاك يكلف بارسال البريد في نهاية يوم العمل ، عندما يغادر المكتب وكان ذلك بالتالي بمثابة عمل اضافي مرهق لأنه كان يتعين عليه الجرى ، في الساعة التي يبدأ فيها النهار في الشحوب ، نحو مكتب بريد اجتاحه حشد من العملاء، والوقوف في الطابور أمام الشبابيك ، وكان الانتظار يطيل وقت عمله . عمليا ، كان الصيف الطويل يستنفد في أيام قاتمة بلا بريق وفي مشاغل لا معنى لها ، كانت الجدة تقول : « لا يمكن البقاء دون عمل شئ» بالضبط ، كان چاك يشعر في هذا المكتب أنه لا يفعل شيئا ، لم يكن يرفض العمل ، وإن كان لا شئ عنده يعوض البحر أو ألعاب «القبة» لكن العمل

الحقيقى بالنسبة له هو العمل فى ورشة صناعة البراميل مثلا ، مجهود عضلى طويل ، وسلسلة من الحركات الدقيقة البارعة ، وأيد صلبة وخفيفة ، وحيث تظهر للعين نتيجة مجهوداته : برميل جديد ، متقن ، بدون أى شقوق ، ويستطيع العامل بالتالى أن يتأمله .

لكن هذا العمل المكتبى لا يأتى من أى مكان ولا ينتهى إلى شئ . البيع والشراء، كل شئ يدور حول هذه العمليات الزهيدة المتواضعة ، وعلى الرغم من أنه عاش حتى ذلك الحين فى الفقر ، فلقد اكتشف چاك فى هذا المكتب السوقية ، ولم يكن زملاؤه مسئولين عن هذا الإحساس الخانق كانوا لطفاء معه ، لا يأمرونه أبدا بطريقة فظة ، وحتى السيدة راسلين الصارمة كانت تبتسم له أحيانا ، كانوا قليلا ما يتكلمون فيما بينهم ، بهذا المزيج من المودة المرحة واللامبالاة الخاصة بالجزائريين .

وعندما كان رب العمل يصل ، بعدهم بربع ساعة ، أو عندما يخرج من مكتبه ليعطى أمرا وللتحقق من فاتورة «فى حالة المسائل الهامة» كان يطلب من المحاسب العجوز أو الموظف المعنى أن يمثل أمامه فى مكتبه »، كانت الطباع تنكشف بشكل أفضل ، وكأن هؤلاء الرجال وهذه السيدة لا يمكنهم أن يتحددوا إلا فى العلاقات مع السلطة ، المحاسب العجوز جاف ومستقل ، السيدة راسلين تائهة فى حلمها الصارم ، أما مساعد المحاسب ، فعلى النقيض ، فهو يتميز بتبعية تامة ، لكن خلال باقى اليوم ، يدخل كل منهم فى قوقعته ، وينتظر چاك على مقعده الأمر الذى سيعطيه فرصة نشاط تافهة تسميه جدته العمل .

وحين لا يستطيع تحمل المزيد، فائرا على مقعده ، بالمعنى الحرفى للكلمة ، كان ينزل إلى الفناء خلف المحل وينعزل فى المراحيض ذات الطراز التركى ، والجدران الاسمنتية ، المضاءة بالكاد وحيث تسود رائحة البول المرة ، فى هذا المكان المظلم،

كان يغلق عينيه ويحلم ، بينما يستنشق الرائحة المألوفة ، كان هناك شئ يتحرك داخله ، شئ مبهم ، أعمى ، على مستوى الدم والنوع ويبصر أحيانا سيقان السيدة راسلين التى رأها يوم أن سقطت منه علبة الدبابيس أمامها ، وركع على ركبتيه لكى يجمعها ، وعندما رفع رأسه رأى الركبتين مفتوحتين تحت الجونلة والأفخاذ فى ملابس داخلية من الدانتلا . لم يكن حتى ذلك الحين قد رأى قط ما كانت تلبسه المرأة تحت جونلاتها، هذه الرؤية المباغتة جففت فمه وملأته بارتجاف شبه مجنون . وتجلى له سر ، أنه بالرغم من تجاريه المتواصلة ، لم يستنفد قط .

كان چاك يندفع إلى الخارج ، مرتان فى اليوم ، فى الساعة الثانية عشر ظهرا والساعة السادسة ، ينزل الشارع المنحدر ويقفز فى عربات الترام المزدحمة ، المشحونة بكتل من الركاب على كل السلالم والتى كانت تعيد العاملين إلى أحيائهم . يتراصون جنبا إلى جنب فى الحر الثقيل ، صامتين، يستديرون نحو البيت الذى ينتظرهم ، يعرقون بهدوء ، مستسلمون لهذه الحياة الموزعة بين عمل بدون روح والذهابات والروحات الطويلة فى عربات ترام غير مريحة للانتهاء بنوم مباشر وعاجل . كان چاك يشعر دائما بانقباض فى قلبه وهو ينظر إليهم فى بعض الأمسيات . لم يعرف حتى الآن سوى ثروات وأفراح الفقر . لكن الحر والملل والتعب كانوا يكشفون له لعنته ، لعنة العمل الغبى لدرجة البكاء ورتابته التى لا تنتهى القادرة على جعل الأيام طويلة جدا والحياة قصيرة جدا ، فى الوقت ذاته .

كان الصيف أفضل عند الوكيل البحرى ، لأن المكاتب كانت تطل على جادة فرون دى مير وخاصة لأن جزءا من العمل كان يدور فى الميناء . كان على چاك ، أن يصعد إلى ظهر سفن من جميع الجنسيات ترسو فى

الجزائر العاصمة والتى كان الوكيل - وهو عجوز وسيم وردى اللون بشعر مجعد - مسئولا عن تمثيلها لدى إدارات متعددة . كان چاك يحضر أوراق السفينة إلى المكتب حيث يتم ترجمتها ، وفى غضون أسبوع كان هو نفسه مكلفا بترجمة قوائم المؤن وبعض وثائق البضائع المشحونة عندما تكون مكتوبة بالانجليزية وموجهة إلى سلطات الجمارك أو إلى بيوت الاستيراد الكبيرة التى تتلقى البضائع . وبالتالى عليه أن يذهب بانتظام إلى ميناء «أغا» التجارى لإحضار هذه الأوراق . كانت الحرارة تكتسح الشوارع التى تنحدر إلى الميناء ، وكان الدرابزين الثقيل المصنوع من الحديد الزهر الذى يحف بها حارقا ولا يمكن وضع اليد عليه . وعلى أرصفة الميناء الواسعة ، كانت الشمس تخلى المكان ، إلا حول السفن التى رست للتو ، حيث يتحرك العمال بنشاط على الرصيف ، يرتدى كل واحد منهم سروالا أزرق مشمرا حتى ربلة الساق ، والجذع عار لوحته الشمس وعلى الرأس كيس يغطى الأكتاف حتى الكلى ويحملون عليه أكياس الأسمنت والفحم أو الطرود ذات الحواف الحادة . كانوا يذهبون ويجيئون على جسر ينزل من ظهر السفينة على الرصيف ، أو يدخلون مباشرة فى بطن سفينة الشحن من خلال باب الحوض الكبير المفتوح ، يسيرون بسرعة على رافدة تربط بين الحوض والرصيف . وراء رائحة الشمس والتراب المتصاعدة من الأرضية أو رائحة الجسور المحماة التى انصهر قطرانها والتهب كل حديدها ، كان چاك يتعرف على الرائحة الخاصة لكل سفينة شحن . سفن النرويج تفوح منها رائحة الخشب ، أما تلك القادمة من داكار أو البرازيل فكانت تجلب معها عطر بن وبهارات ، بينما تفوح من السفن الألمانية رائحة ، الزيت ، ومن السفن الانجليزية رائحة الحديد ، كان چاك يصعد سلم الباخرة ، ويبرز

بطاقة الوكيل لأحد البحارة الذى لم يكن يفهمها . يقودونه ، عبر الممرات حيث الظل نفسه ملتهب ، إلى مقصورة أحد الضباط وأحيانا إلى مقصورة القبطان . وكان أثناء سيره ينظر بنهم إلى تلك المقصورات الصغيرة الضيقة والعارية التى يتركز فيها ما هو أساسى لحياة أى رجل ، وبدأ عندئذ يفضل تلك المقصورات على أكثر الغرف طرفا . كانوا يستقبلونه بلطف لأنه كان هو نفسه يبتسم بود ، كما كان يحب وجوه الرجال الخشنين تلك ، والنظرة التى تمنحها للجميع حياة العزلة ، وكان يظهر ذلك الحب . أحيانا كان أحدهم يتكلم قليلا من الفرنسية ويوجه إليه بعض الأسئلة . ثم كان يغادر السفينة ، مسرورا ، إلى الرصيف الملتهب والدرابزين الحارق والعمل فى المكتب . ببساطة ، كانت تلك المشاوير فى الحر ترهقه ، فينام بعمق ، وكان شهر سبتمبر يجده وقد أصبح أكثر نحافة وعصبية .

كان يرى قدوم أيام المدرسة ذات الساعات الأثنتى عشرة باحساس بالراحة والعزاء ، وفى الوقت نفسه كان يزداد داخله الشعور بالحرج لاضطراره أن يعلن فى المكتب أنه سيترك العمل . كان أقسى موقف هو ما تعرض له فى محل الخردوات . كان يفضل ألا يذهب إلى المكتب وأن تذهب الجدة لتقدم أى عذر . لكنها ببساطة كانت ترى الغاء كل الشكليات ، فكل ما عليه هو أن يقبض أجره ولا يعود مرة أخرى إلى المحل ، دون تقديم أى تفسير . كان چاك يعتقد أن ذهاب جدته لتلقى غضب رب العمل هو الطبيعى ، لأنها فى الحقيقة مسئولة بشكل ما عن ذلك الموقف وما نتج عنه من كذب ، غير أنه بالرغم من ذلك كان يشعر ، إزاء تهربه هذا ، بغضب لا يستطيع تفسير سببه ، ووجد ، فضلا عن ذلك ، الحجة المقنعة : «لكن رب

العمل سيرسل شخصا إلى هنا» . أجابت الجدة : «هذا صحيح ، لذا عليك أن تقول له أنك ستعمل لدى خالك» . وعندما قالت له الجدة : «خذ أجرك أولا ، وبعد ذلك تكلم معه» ، غادر چاك وعذاب النار فى قلبه . وعند قدوم المساء ، طلب رب العمل كل موظف على حدة فى عرينه لكى يعطيه أجره ، قال لچاك وهو يمد له مظروفه : «خذ يا صغيرى» . مد چاك يده مترددا ، عندما ابتسم له الآخر: «الأمور تسير بشكل جيد جدا ، يمكنك أن تقول ذلك لأهلك» . «كان چاك قد بدأ يتكلم ويوضح أنه لن يعود . نظر إليه رب العمل مشدوها ، وذراعه مازالت ممدودة نحوه : «لماذا ؟» . كان يتعين عليه أن يكذب ، لكن الكذبة لا تخرج . ظل چاك صامتا وشكله ينم عن ضيق شديد حتى أن رب العمل أدرك الأمر . «هل ستعود إلى المدرسة ؟ » .

أجابه چاك : «نعم» ، وسط خوفه وضيقه شعر بارتياح مفاجئ دفع بالدموع إلى عينيه . وقف رب العمل ، حانقا : «أنت كنت تعرف ذلك عندما جئت إلى هنا . وجدتك أيضا كانت تعرف ذلك» . لم يستطع چاك سوى أن يقول نعم برأسه . كانت الصيحات تملأ الغرفة الآن ، لقد كانوا غير أمناء ، وهو ، رب العمل يمقت عدم الأمانة . هل يعرف أن من حقه ألا يدفع له أجره ، سيكون غبيا تماما لو دفع له ، لا لن يدفع له ، وعلى جدته أن تحضر ، وسيتم استقبالها بشكل جيد ، ولو كانوا قالوا له الحقيقة ربما كان ألحقه بالعمل ، لكن هذه الكذبة ، أوه ! «لن يستطيع الذهاب إلى المدرسة بعد ذلك ، فنحن فقراء جدا» وترك نفسه ينخدع . قال چاك فجأة وهو شارد : «لهذا السبب - ماذا ، لهذا السبب ؟ - لأننا فقراء» ، ثم صمت ، وكان الآخر هو الذى أضاف ببطء بعد أن نظر إليه : «لهذا السبب فعلتما ذلك ، ورويتما لى هذه الرواية ؟» راح چاك ينظر إلى قدميه وهو يجز على أسنانه ، وران صمت

لا نهاية له . ثم أخذ رب العمل المظروف من على المائدة ومده له وقال بعنف : «خذ نقودك وأذهب – . رد چاك «لا» . دس رب العمل المظروف فى جيب چاك : «إذهب» . وفى الشارع ، ركض چاك باكيا ويداه ممسكتان بياقة سترته لكى لا يلمس النقود التى تحرق جيبه .

حرم بالكذب على حق عدم أخذ أجازة ، والعمل بعيدا عن سماء الصيف والبحر الذى يحبه حبا جما ، وبالكذب أيضا حصل على حق استئناف عمله في المدرسة يقبض هذا الظلم قلبه حتى الموت . لأن الأسوأ لم يكن فى تلك الأكاذيب التى عجز فى النهاية عن النطق بها ، انه مستعد دوما لكذب المتعة وعاجز عن الخضوع لكذب الضرورة ، وبشكل خاص فى تلك الأفراح المفقودة ، وفى الضوء واستراحات فصل الصيف التى سرقت منه ، ولم تعد السنة سوى سلسلة من الاستيقاظ المبكر وأيام كئيبة ومتسرعة . كان عليه أن يفقد ما يملكه فى حياته كفقير ، والثروات الفريدة التى كان يتمتع بها بسخاء ، ونهم ، من أجل كسب قليل من المال لا يستطيع أن يشترى جزءا من المليون من هذه الكنوز . ومع ذلك ، كان يفهم أن عليه أن يفعل ذلك ، هناك بداخله فى لحظة تمرده شئ يفخر بأنه يفعل لأن التعويض الوحيد عن مواسم الصيف التى ضحى بها من أجل شقاء الكذب ، قد وجده يوم أن حصل على أول أجر له عندما دخل إلى قاعة الطعام حيث كانت جدته تقشر ثمرات البطاطس ثم تلقى بها فى إناء به ماء ، وكان الخال ارنست جالسا ينظف كلبه الصبور بريان من البراغيث ممسكا به بين ساقيه ، وكانت والدته ، التى حضرت لتوها ، تفك على أحد أركان صوان السفرة حزمة من غسيل وسخ أعطى لها لتغسله ، تقدم چاك دون أن يقول شيئا ووضع على المائدة ، ورقة المائة فرنك والعملات المعدنية التى أمسكها فى يده طوال الطريق . وبدون أن تقول شيئا ، دفعت الجدة بقطعة نقود من فئة العشرين فرنكا نحوه وجمعت

الباقى . ولمست بيدها جنب كاترين كورمرى لكى تشد انتباهها وأشارت إلى النقود : «إنه ابنك » أجابت :«نعم» . ولثانية ربتت على الطفل بعينيها الحزينتين . وهز الخال رأسه ممسكا دائما ببريان الذى يعتقد أن عذابه قد انتهى وقال : «حسن ، حسن ، أنت ، رجل» .

نعم ، كان رجلا ، فهو يسدد القليل مما هو مدين به ، وكانت فكرة أنه قلل بؤس هذا البيت ولو بقدر ضئيل يملؤه بذلك الزهو الذى يكاد يكون شريرا والذى يأتى إلى الرجال عندما يبدأون فى الشعور بأنهم أحرار ولا يخضعون لشئ . فى الواقع ، وعند دخول المدارس الذى أعقب ذلك ، وعندما دخل فصل أولى ثانوى ، لم يعد ، بعد ذلك ، الطفل التائه ، الذى ترك بلكور قبل أربع سنوات ، ترنح فى الصباح الباكر على حذائه المزين بالمسامير ، وقلبه مقبوض لفكرة العالم المجهول الذى ينتظره ، كما فقدت النظرة التى يلقيها على زملائه بعض البراءة . وبدأ العديد من الأشياء فى تلك اللحظة تنتزعه من الطفل الذى كانه . حتى أنه ذات يوم، هو الذى كان يتقبل بصبر حتى ذلك الحين أن تضربه جدته وكأن ذلك جزء من الالتزامات التى لا مفر منها لحياة الطفل ، نزع السوط من يدها ، وقد جن فجأة من العنف والحنق وصمم تماما على ضرب هذه الرأس الشيباء ذات العينين الفاتحتين الباردتين اللتين تثيرانه ، وفهمت الجدة وتراجعت وذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب ، وهى تنوح على مأساة تربيتها «ولاد عاقين» لكنها اقتنعت ألا تضرب چاك أبدا بعد الآن ، وبالفعل لم تضربه قط فيما بعد ، لأن الطفل مات فى هذا المراهق النحيف القوى العضلات ، ذى الشعر الأشعث والنظرة الغضوبة ، الذى عمل طوال الصيف من أجل جلب راتب للمنزل ، وتم اختياره حارس مرمى أساسيا لفريق المدرسة لكرة القدم ، وقبل ذلك بثلاثة أيام تنوق ولأول مرة ، وهو يكاد يغشى عليه ، ثغر فتاة .

(٢)

غامض بالنسبة لذاته

ياه ! نعم هكذا كانت حياة هذا الطفل ، هكذا كانت الحياة فى جزيرة الحى الفقير ، مرتبطة بالاحتياج الشديد ، وسط أسرة معاقة وجاهلة ، وهو بدمه الشاب الهادر ، وشهية مفترسة للحياة ، والذكاء الوحشى الشره ، وعلى امتداد الحياة جنون فرح تقطعه وقفات عنيفة مباغتة يفرضها عليه عالم مجهول ، يتركه حائرا قلقا ، لكنه سرعان ما يسترد أنفاسه ويحاول فهم ومعرفة واستيعاب هذا العالم الذى لم يكن يعرفه ، ويستوعبه بالفعل لأنه كان يقتحمه بشراهة ، دون أن يحاول أن يندس فيه ، بقوة إرادة ولكن بلا دناءة أو خسة ، وبدون أن ينقصه يقين هادئ ، نعم ثقة ، طالما أنها تؤكد له وصوله إلى مبتغاه ، ولن يكون هناك أبدا مستحيل بالنسبة له فيما يتعلق بهذا العالم ، وبهذا العالم فقط ، مهيئا نفسه (ومهيأ أيضا بعرى طفولته) لكى يحتل مكانه فى كل مكان ، لأنه لا يبتغى أى مكان ، وإنما الفرح فقط والكائنات الحرة ، والقوة وكل ما فى الحياة من طيب ، وغموض وهى أشياء غير قابلة للشراء بالمرة . مهيئا نفسه ، حتى من فرط الفقر ، لأن يكون قادرا ذات يوم أن يتلقى المال دون أن يطالب به أو يخضع له ، مثلما هو الآن ، انه فى الأربعين من عمره ، هو چاك ، يسيطر على أشياء كثيرة ومع ذلك يوقن تماما أنه الإنسان الأكثر تواضعا ، وأنه لا شئ على الإطلاق مقارنة بأمه . نعم ،

لقد عاش هكذا فى ألعاب البحر ، والهواء والشارع ، تحت ثقل الصيف والأمطار الغزيرة للشتاء القصير ، بدون أب ، بدون تقاليد موروثة ، لكنه وجد أبا لمدة عام واحد ، وفى اللحظة التى كان يحتاج إليه فيها بالضبط ، وتقدم خلال الكائنات والأشياء ، والمعرفة التى كانت تتفتح له لكى يصنع لنفسه شيئا يشبه السلوك (كان يكفى فى ذلك الوقت بالنسبة للظروف المحيطة ، ولم يكن كافيا بعد ذلك أمام آفة العالم) ولكى يخلق لنفسه تقاليده الخاصة به .

لكن هل ذلك كل شئ ، هذه الحركات ، والألعاب ، والجرأة ، والجموع ، والأسرة ، ومصباح الكيروسين ، والسلم المظلم ، وسعف النخيل فى الهواء ، والميلاد والعماد فى البحر ، وأخيرا مواسم الصيف الشاقة الغامضة تلك ، نعم كان هناك كل ذلك . ولكن هناك أيضا الجزء الغامض من الكائن ، ما كان يتحرك خفية داخله طوال هذه السنوات مثل تلك المياه العميقة تحت الأرض ، فى أعماق المتاهات الصخرية ، والتى لم تر نور النهار وإن كانت تعكس بريقا مبهما ، لا يعرف مصدره ، ربما امتص من مركز الأرض المحمى عبر أوعية شعرية صخرية نحو الهواء الأسود لهذه الكهوف المطمورة ، حيث النباتات اللزجة (المضغوطة) لازالت تأخذ غذاءها لكى تحيا هناك حيث تبدو كل حياة مستحيلة . وهذه الحركة العمياء داخله ، والتى لم تتوقف قط ، ولا يزال يعانيها حتى الآن ، نار سوداء مدفونة داخله مثل إحدي نيران الخث (*) التى تبدو منطفئة على السطح بينما اشتعالها مستمر في الداخل ، ينقل التشققات الخارجية للخث وتلك الاضطرابات النباتية البدائية ، بحيث يصبح للسطح الطينى تحركات خث المستنقعات نفسها ، ومن هذه التموجات الكثيفة وغير المحسوسة تتولد فى نفسه ، - يوما بعد يوم - ، أكثر رغباته عنفا وبشاعة ، وحالات جزعه القاحلة ، ولحظات حنينه الأكثر خصوبة ، واحتياجه المباغت

(*) الخث : تراب عضوى قابل للاشتعال يتكون من الانحلال البطىء لبعض النباتات الطحلبية .

للتجرد والزهد ، وتوقه ألا يكون شيئا ، نعم ، هذا التحرك الغامض على امتداد كل تلك السنوات كان ينسجم مع هذا البلد الشاسع حوله ، والذى شعر بثقله وهو طفل صغير ، البحر الشاسع أمامه ، ووراءه هذا الفضاء اللامتناهى من الجبال والهضاب والصحراء الذى يسمي «الداخل» ، وبين الاثنين ذلك الخطر الدائم الذى لم يكن أحد يتكلم عنه لأنه يبدو طبيعيا ، لكن چاك كان يلحظه فى مزرعة بيرمندريس الصغيرة ذات الغرف المقببة والجدران المطلية بالجير ، عندما كانت الخالة تمر بالغرف لحظة الغروب للتأكد من جذب المزاليج الضخمة على المصاريع المصنوعة من الخشب المصمت السميك ، بلد كان يشعر كأنه أول سكانه ، أو أول غزاته ، رأسيا هناك حيث لا يزال قانون القوة سائدا وحيث تطبق العدالة بقسوة لعقاب ما لم تتمكن التقاليد من تداركه ، ومن حوله هذا الشعب الجذاب والمثير للقلق ، القريب والمنفصل ، والذى يتجاور طوال النهار ، وتتولد الصداقة أحيانا ، أو الزمالة ، لكن مع حلول المساء كانوا ينسحبون إلى منازلهم المعزولة والمجهولة التى لا يدخلها أحد قط ، ومعهم نساؤهم اللاتى لم يكن أحد يشاهدهن قط ، وإذا شوهدن فى الشارع ، لا يعرف من هن ، بنقابهن الذى يغطى نصف وجوههن وعيونهن الحسية الوديعة الجميلة أعلى القماش الأبيض ، وكان عددهم كبيرا فى الأحياء التى يتمركزون فيها ، لدرجة أنهم وإن كانوا مستسلمين ومتعبين ، فإنهم بعددهم الكبير هذا كانوا يجعلون تهديدا غير مرئ يرفرف ، تهديدا كان يشم فى هواء الشوارع فى بعض الأمسيات التى تنفجر فيها مشاجرة بين فرنسى وعربى ، بالكيفية نفسها التى تنفجر بين اثنين من الفرنسيين أو اثنين من العرب ، غير أنها لم تكن تقابل بالطريقة نفسها ، حيث يقترب عرب الحى ببطء ، وهم يرتدون جلابيب فقيرة أو زى عمال القاطرات الباهت اللون ،

قادمين من جـميع الجهات بحركة مسـتمرة ، إلى أن تلفـظ الجموع المتراصة من بين صـفـوفـهـا بالتـدريج ، وبدون عـنف ، وبحـركـة تجـمـعـهـا فـقط ، بعض الفـرنسـيين الذين جـذبهم شـهـود المشـاجـرة ، وعند تراجع الفـرنسى الذى يتشاجر وجد نفسه فجأة أمام خصمه وحشـد من الوجوه المغتمة المغلقة ، كان ذلك كفيـلا أن ينزع منه أية شـجاعة إذا لم يكن قد تربى فى هذا البلد بالتحديد وعرف أن الشـجـاعـة وحدهـا تسمح بالعيـش فيه ، وعنـدئذ كـان يواجـه هـذا الحـشـد المهـدد والذى مع ذلك لم يكن يهـدد شـيـئـا ، إلا بوجـوده فى حـد ذاته ويتحـركه الذى لم يستطع منع نفسه من القـيام به ، وفى أغلب الأحيان كانوا هم الذين يمسـكون بالعـربى المتشـاجـر باندفـاع ونشـوة لكى يجعـلوه يرحل قـبل مجئ الشـرطة ، التي يتم ابلاغـها بسرعـة ، وسـرعـان ما تـأتى ، وتقـبض دونما مناقـشـة على طرفى المـشـاجـرة اللذين يمران مـهـانين تحت نافـذة چاك ، فى طريقـهـمـا لمركـز الشرطة . تقول أمـه وهى ترى الرجلين مقـبوضـا عليـهـمـا بقـوة ويدفعهما رجال الشرطة فى اكتافـهـما «مسـاكين» ، وبعـد رحيلهمـا ، يحوم التهديد والعنف والخوف فى الشارع بالنسـبة للطـفل ، مما يجعـل حـلقه يجف من جـزء مـجـهـول . هذا الليل داخـله ، وجـذوره الغـامـضـة والمتـشـابكة التى تربطـه بهذه الأرض البهـية والمخيـفة وبصياحاتها الحارقة وأمسياتها السريعة لدرجـة تقبـض القلـب ، كان بمثابة حـياة ثانية ، ربما أكـثر صـدقا وحقيقة تحت مظاهر الحياة اليوميـة الأولى ، صنعت حكايتـهـا من سلسلة من الرغبـات الغـامـضـة والأحـاسـيس الـقـوية التى يتـعـذر وصـفـهـا ، رائحـة المدارس ، واسطبـلات الحى ، وآثار الغسيل على يدى أمـه ، والياسـمين وزهر العـسل فى الأحـياء الراقية ، وصـفـحات القاموس والكتب الملتـهـبة ، ورائحـة المراحيض الحـامـضـة فى البيـت وفى دكان الخـردوات ، ورائحـة قـاعـات الدرس الكبيـرة

البـاردة التى يدخلهـا وحـده قـبل أو بـعـد الدرس ، وحـرارة الزمـلاء المفـضلين ، ورائحـة الصـوف السـاخن والبراز التى كان ديدييه يصطحبها معه ، أو رائحـة الكولونيا التى تنثـرها والـدة ماركونى الكبـير على ابنـها بوفرة ، فتثير رغبة چاك ، فى الاقتـراب أكثر من صديقه ، على درج الفصل ، وعطر أحمـر الشفاه الذى أخذه بيير من إحدى خـالاته وكانوا يشـمونه جـماعة ، بينما يشـعرون بالقلق والارتباك مـثل الكلاب التى تدخـل منزلا مرت به كلبة مطاردة ، ويتخيلون أن المرأة هى تلك الكتلة من العطر المتكلف اللطف المصنوع من البرغموت والكريمة والذى كان يجـلب لهم فى عالـهم العنيف ، عالم الصراخ والعرق والتراب ، تجلى عـالم مـرهف رقـيق وذى إغـراء يدق عن الوصف ، وحـتى الكلام البـذئ الذى ينطـقون به حول أصبع أحمر الشفاه كان لا ينجح فى حـجبهم عن هذا العالم ، والحب الذى كـان يشعر به منذ نعومة أظافره تجاه الأجســاد ، وجمالها الذى يجعله وهو على الشواطئ يضحك من فرط السعادة ، ودفئها الذى يجذبه دائما ، بدون فكرة محددة ، بشـكل حيـوانى ، ليـس من أجل امتلاكها ، فلم يكن يعرف كيف يفعل ذلك ، ولكن للدخول فقـط فـى اشعاعها ، الاستناد بكتفه على كتف الزميل ، بإحسـاس كبير من الثقـة والعـفوية ، ويكاد يغـشى عليه عندما تلامس يد امـرأة يده لمدة طويلة بعض الشئ فى ازدحـام التـرام ، الرغبـة ، نعـم ، فى الحـياة ، وفى مـزيد من الحياة ، وفى الاختلاط والامتزاج بأكثر ما لدى الأرض من حرارة ، وما كان ينتـظره مـن أمـه دون أن يعـرف ، ولا يحصل عليه أو ربما لا يـجرؤ على الحصـول عليه وكـان يـجده قرب الكلب بريان عندما يتمـدد إلى جانبه فى الشـمس ويشـم رائحة شعره القوية ، أو فى الروائح الأقـوى والأكثر حيوانية حيث ظلت حرارة الحياة المهولة وبالرغم من كل شئ محفوظة بالنسبة له ولا يستطيع التخلى عنها .

وفـى هذا الغمـوض والإبهـام الذى بداخله ، تولد هـذا النشـاط والحمـاس الجائع ، وجنـون الحياة الذى سـكنه دائما وحافظ حتى اليوم على وجوده سليما، وجعل فقط الإحسـاس المفاجئ والمفزع بأن زمن الشباب يهرب ، يصبح أكثر مرارة عندما يكون وسـط أسـرته وأمـام صـور طـفولتـه ، مثل تلك المرأة التى أحبها ، ياه نعم ، لقد احبها حبا عميقا من القلب والجسد أيضا ، نعم ، كانت الرغبة معها مطلقة ، وكان العالم يسترجع نظامه الحارق عندما يخرج منها بصرخة كبيرة مكبوتة لحظة النشـوة ، لقـد أحبها بسبب جمالها وجنون الحياة النبـيل اليائس الذي يتملكها ويجعلها ترفض ، ترفض أن يمر الزمن وإن كانت تعـرف إنه يمـر فى هـذه اللحظة نفسـها ، ترفـض أن يـقال عنها يومـا أنها كانت شـابة ، وتريد على النقيض أن تظل شابة ، شابة دائما ، لقد انفجرت فى البكاء ذات يوم لأنه قال لها ضاحكا أن الشباب يمضي والأيام تئول إلي الزوال ، قالت وهى تبكى : «أوه لا ، لا ، أنا أحب الحب كثيرا» ، كـانت نكيـة وراقيـة من جمـيع الوجـوه ، إنها ترفض العالم كما هو . مثلما حدث فى تلك الأيام ، التى عـادت فـيها لاقـامة قصـيرة فى البلد الأجنبى الذى ولدت فيه ، وتلك الزيارات الكئيبـة ، لخالات وعمات يقولون لها عنهن : «إنها المرة الأخيرة التى تريهن فيها»، بينمـا ترى فى الواقـع وجـوههن ، واجسـادهن ، وإطلالهن ، فـترغب فى الرحـيل صارخة ، أو دعوات العشاء الأسرية على مفرش قامت بتطريزه جدة بعيدة ماتت منذ وقت طويل ولم يعـد أحـد يفكـر فـيـها ، إلا هى التى كـانت تفكر فى هذه الجدة وهى شـابة ، في متـعـها ، وشهيتها للحياة ، كانت مثلها ، جميلة بشكل رائع في ريعان شبابها ، وكان الجميع يمتدحونها على هذه المائدة التى ينتشر على الجدران حولها صور شابة وجميلة لسيدات هن أنفسـهن اللاتى يمتـدحونها وقـد أصـبـحن الآن عـاجزات ومنهكات . عندئذ ، كـانت دمـاؤها تشـتـعل وتريد

الهروب ، الهروب لبلد لا يشيخ ولا يموت فيها أحد ، حيث الجمال خالد ، والحياة برية دائما وصاخبة ، وهى بلد لا وجود لها ، وكانت تبكى بين ذراعيه ، وكان يحبها بشدة .

هو أيضا ، وربما أكثر منها ، بما أنه ولد على أرض بدون أسلاف وبلا ذاكرة، حيث كان فناء من سبقوه أكثر اكتمالا وحيث لا تجد الشيخوخة أى مدد من الحنين الذى تحصل عليه فى بلدان الحضارة ، هو مثل نصل وحيد دائم الاهتزاز مقدر له أن يتحطم بضربة واحدة وللأبد ، ولع صرف بالحياة فى مواجهة موت تام ، كان يشعر أن الحياة والشباب والكائنات تفلت منه ، دون أن يستطيع انقاذها بشئ ، متروك فقط للأمل الأعمى أن تلك القوة الغامضة التى حملته لسنوات طويلة فوق الأيام ، وغذته بلا حدود ، وفى أصعب الظروف ، تلك القوة التى سبق أن منحته بكرم لا يكل أسباب الحياة ، سوف تمده أيضا بأسباب لأن يشيخ ويموت دون تمرد .

رقم الايداع : ١١٨٩٩ / ١٩٩٨

I. S. B . N

977 - 07 -0607- 8



ألبير كامي

● واحد من أهم الروائيين والمفكرين الفرنسيين في القرن العشرين .

● مولود في الجزائر عام ١٩١٣ ، ومات في ظروف غامضة ، قيل أنه انتحر ، عام ١٩٦٠ .

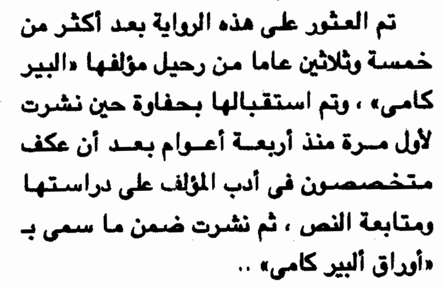
● يعتبر أصغر كاتب حصل على جائزة نوبل في القرن العشرين ، حيث نالها عام ١٩٥٧ .

● أحدث دويا أدبيا بروايته «الغريب» ، وتبعها برواية «الطاعون» .

● من أهم مسرحياته «العادلون» ، «كاليجولا» ، «سوء تفاهم» و«حالة حصار» .

● عرف بأفكاره الوجودية، وترك كتبا فلسفية باللغة العربية ، تركت أثرها على أجيال من المثقفين مثل «اسطورة سيزيف» ، «المتمرد» .

هذه الرواية



تم العثور على هذه الرواية بعد أكثر من خمسة وثلاثين عاما من رحيل مؤلفها «البير كامي» ، وتم استقبالها بحفاوة حين نشرت لأول مرة منذ أربعة أعوام بعد أن عكف متخصصون في أدب المؤلف على دراستها ومتابعة النص ، ثم نشرت ضمن ما سمي بـ «أوراق ألبير كامي» ..

أغلب الظن أن كامي كان يكتب هذه الرواية على فترات متقطعة في نهاية الاربعينات والتي تدور أحداثها كلها ، في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي ، مثلما حدث في رواية «الغريب» .. انها رواية عن التحول الذي يعيشه صبي صغير ، عليه أن يترك عالمه القديم كي يصبح رجلا لأول مرة .

هذا نص كاد أن يتوه في دائرة النسيان .. فأصبح بعد العثور عليه شاهدا على عبقرية صاحبه .. ألبير كامي .



مدن الملح
"التيه"
عبد الرحمن منيف






روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
زهور 71
رجل أحببته
روايات مصرية للجيب
لنتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢